

الكتب من مركز العالم العربي

الدكتور سعيد المرصفي

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع



مكتبة المنار الإسلامية

مكتبة المهتدين الإسلامية



جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

مكتبة المنار الإسلامية

طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية

كويت - حوليف - شارع المثنى - تلفون: ٤٥٠-٢٦١٥ - فاكس: ٢٦١٨٥٤ - ص.ب. ٤٣٠٩٩ - حوليف - الزمزم البريدي 32045
Kuwait - Hawalli Al-Mothana Street, Tel: 2615045, Fax: 2636854, P.O. Box: 43099 Hawalli, Postal Code No. 32045

مؤسسة الريان

للطباعة والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب. ٥١٣٦٠ / ١٤ السجل التجاري في بيروت رقم ٥ / ٧٤٢١



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنُ

الرَّحِيمُ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ

نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ (٧) .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ
الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

(آية ١٤٣ سورة البقرة)

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ .

(آية ٧ سورة الشورى)



مقدمة

ما أحوجنا كأمة إلى أن نعرف معالم ديننا القيم ، الذي يحمل الكثيرون اسمه ، ويجهلون كنهه ، ويأخذونه بالوراثة والتقليد ، أكثر مما يجب أن يكونوا عليه من الفهم والسلوك ، وأن يكيّفوا حياتهم في دائرة الإذعان والخضوع ، والانقياد والخشوع ، لأمر الله ورسوله ، حتى يكون التجرد الكامل لله ، بكل حركة في الحياة ، وحتى تكون تسبيحة التوحيد المطلق ، والعبودية الكاملة ، في إسلام لا يستبقي في النفس ولا في الحياة بقية لا يُعبّدها لله ، ولا يحتجز دونه شيئاً في الضمير ولا في واقع الحياة !

وما أحوجنا أن نعتقد اعتقاداً جازماً يظهر أثره في كل ما نقول ونعمل ، لأن المسلم - كما يراه شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال - لم يخلق ليندفع مع التيار ، ويساير الركب البشري حيث اتجه وسار ، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ، ويملي عليها إرادته ، لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ، ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهه ، فليس مقامه التقليد والاتباع ، ولكن مقامه مقام الإمامة والقيادة ، ومقام الإرشاد والتوجيه ، ومقام الأمر الناهي ، وإذا تنكر له الزمان ، وعصاه المجتمع ، وانحرف عن الجادة ، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ، ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور وينازله ، ويظل في صراع معه وعراك ، حتى يقضي الله في أمره ، فالخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة ، والأوضاع القاهرة ، والاعتذار . . من شأن الضعفاء والأقزام ، أما المؤمن فهو بنفسه قضاء الله الغالب ، وقدره الذي لا يرد !^(١) .

(١) شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، للأستاذ أبي الحسن الندوي : ٦٦-٦٨ بتصرف .

وما أحتاجنا أن نعرف أننا خير أمة أخرجت للناس ، لتكون طليعة ، ولتكون لها القيادة ، ومن ثم لا يجوز أن نتلقى من غيرنا ما يتعارض ومنهج الدين القيم ، إنما يجب أن تكون لنا شخصيتنا الإسلامية في الاعتقاد الصحيح ، والعلم الصحيح ، وأن نقوم على صيانة الحياة من عوامل الفساد ، وهذا يبعث في روح المؤمن بهذا الدين القيم إحساس العزة من غير كبر ، وروح الثقة من غير اغترار ، وشعور الاطمئنان في غير تواكل ، ويبعث الشعور بالتبعية الإنسانية الملقاة على كواهل المؤمنين ، تبعة الوصاية على البشرية في أرجاء الدنيا ، وتبعة القيادة في هذه الحياة لهؤلاء الضالين ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، بما آتانا الله عز وجل من نور الهدى والفرقان !

وما أحتاجنا أن ندرك أن العالم يعيش في جاهلية جهلاء ، وفوضى عمياء ، وظلمات بعضها فوق بعض ، وأنه قد ظهر فضل هذه الأمة ، وسهل فهم رسالتها في هذا العصر أكثر من كل عصر ، حيث افتضحت الجاهلية المعاصرة ، وبدت سواتها للناس ، واشتد التذمر منها ، وتكلم الكثيرون عن ضرورة قيادة الإسلام ، لو نهضت خير أمة أخرجت للناس ، وارتفعت إلى مستوى النهوض بتكاليف تلك القيادة ، وأدركت أن لتلك التكاليف تبعاتها ، وأن القيادة لا تؤخذ قولاً ، ولا تقبل ادعاء . . ولا يسلم لهذه الأمة بالقيادة إلا أن تكون أهلاً لها بالتصور الاعتقادي ، والنظام الاجتماعي ، والتقدم العلمي ، والسبق في كل مجالات الحياة !

وهنا يفيض النور الهادي الوضيء ، الذي يفيض على المشاعر والجوارح ، وينسكب في الحنايا والجوانح ، ويسبح الكون كله في فيض هذا النور الباهر ، الذي تعانقه وتتملاه العيون والبصائر ، والذي يسكب في قلب المؤمن الندوة الحلوة ، والود المؤنس ، والرضى المطمئن ، والثقة واليقين ، ونبصر كل شيء

يتجرد من كثافته وظله ، فإذا هو انطلاق ورفرة ، وإذا هو لقاء ومعرفة ، وإذا الكون كله نور طليق من القيود والحدود والسدود ، تلتقي فيه الشعاب والدروب ، والحواس والقلوب !

وتطالعنا حكمة الله عز وجل في أن يكون البيت الحرام أول بيت وضع في الأرض للعبادة ، وخصص لها ، وأن يكون مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات على أنه مقام إبراهيم عليه السلام ، ومثابة الأمن لكل خائف !

وهنا نذكر «مكة المكرمة» . . وطلائع الأسرار في بناء الكعبة البيت الحرام . . وأسرار اختيار الجزيرة العربية لتكون مكاناً لكثير من الرسائل . . ودعوة إبراهيم . . ومهبط الوحي . . والأرض المباركة التي قدر الله عز وجل أن تكون حرم الإسلام ، ومعلمه الأول ، وداره الأولى ، وأن الشيطان قد أيس أن يعبد المسلمين فيها . . وأنها وقف في الإسلام على أهل الإسلام . . والدين القيم ينحاز إليها !

ونذكر كيف طلعت الشمس التي أفاضت نوراً جديداً ، وحياة جديدة . . في وقت كانت الحياة كلها أقفالا معقدة ، وأبواباً مغلقة !

ومع ذلك انحلت العقدة الكبرى . . وحدث أعظم انقلاب وقع في تاريخ البشرية . . وسرى نور الإيمان . . ورأى العالم كيف ظهرت خير أمة أخرجت للناس . . وكيف انتشر الدين القيم في أرجاء المعمورة !

كما تطالعنا معالم وسطية الأمة الإسلامية . . والإعجاز العلمي في إثبات أن الكعبة مركز العالم . . ومكانة الأمن والسلام . . وإكمال الدين وإتمام النعمة . . وعمارة المسجد الحرام عبر التاريخ الإسلامي . . ونفحات من هذا المكان ، يضيق المقام عن ذكرها !

وأمة تلك وظيفتها ، وذلك دورها ، خليقة بأن تحمل التبعة ، وتبذل التضحية ، وتدرك معالم الطريق في أداء رسالتها المنوطة بها ، ليتأكد خلوصها لله ، واستعدادها للطاعة المطلقة ، والقيادة الراشدة ، لتنقذ البشرية من الشقاء والقلق والشذوذ والجريمة ، وتقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد ، لتبصر الإنسانية ميلادها الجديد ، الذي يكون فاتحة العهد السعيد !

ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب .

وقد اقتضت منهجية البحث أن يشتمل على الفصول التالية :

الفصل الأول : خصائص الجزيرة العربية .

الفصل الثاني : وسطية الأمة الإسلامية .

الفصل الثالث : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ .

الفصل الرابع : الإعجاز العلمي في إثبات أن الكعبة مركز العالم .

الفصل الخامس : عمارة المسجد الحرام عبر التاريخ الإسلامي .

الفصل السادس : نفحات من المكان .

والله أسأل : التوفيق والسداد .

والعون والرشاد .

إنه سميع مجيب !

الكويت في : ٢ جمادى الآخرة ١٤١٨هـ

٣ أكتوبر ١٩٩٧م

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفي)

الفصل الأول

خصائص الجزيرة العربية

- . مقدمة .
- . البيت الحرام .
- . « مكة المكرمة » .
- . [الله لا يُضِيع أهله] .
- . طلائع الأسرار في بناء « الكعبة المشرفة » .
- . دعوة إبراهيم عليه السلام .
- . أنبياء في الجزيرة .
- . الجزيرة مهجر المضطهدين .
- . صفات العرب .
- . وحدة اللغة .
- . حرم الإسلام .

الفصل الأول

خصائص الجزيرة العربية

مقدمة :

اقتضت حكمة الله عز وجل أن تطلع شمس الهداية التي تبدد الظلام ،
وتملأ الدنيا نوراً وهداية ، من أفق جزيرة العرب .

والجزيرة من حيث الاسم - كما نرى - مضافة إلى العرب لا غير ، ويطلق
عليها «جزيرة العرب» ، و «أرض العرب» ، و «بلاد العرب» ، و «ديار العرب» ،
ويقال الآن «الجزيرة العربية» ، و «شبه جزيرة العرب» ، و «شبه الجزيرة
العربية»^(١) .

ونذكر خصائصها فيما يلي :

البيت الحرام :

اقتضت حكمة الله أن يكون البيت الحرام أول بيت وضع في الأرض
للعادة ، وخصص لها ، وأن يكون مباركاً وهدى للعالمين ، يجدون عنده الهدى ،
وفيه آيات بينات على أنه مقام إبراهيم عليه السلام ، وأنه مثابة الأمن لكل خائف ،
وليس هذا المكان آخر في الأرض ، قال تعالى :

(١) انظر حدودها في : خصائص جزيرة العرب : الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد : ١٥ وما بعدها ، دار
ابن الجوزي ، السعودية ، ط . أولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦)
فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ .

(آية ٩٦- ٩٧ سورة آل عمران)

والبيئة الطبيعية للرسالة الخالدة والرسول الحبيب المحبوب ﷺ هي الجزيرة العربية بوجه عام (١) ، سماؤها ، وأرضها ، شمالها وجنوبها ، جبالها ووديانها ، نجودها وتهاائمها ، وبوجه خاص شمال تلك الجزيرة المعروف بأرض الحجاز ، وبوجه أخص «مكة المكرمة» من أرض الحجاز !

والتاريخ الطبيعي عرف للجزيرة العربية في جملتها خصائص شاملة تشترك فيها جميع أجزائها ، وعرف بعد ذلك خصائص فصلت الجنوب عن الشمال ، كما عرف خصائص امتازت بها أرض الحجاز ، وخصائص امتازت بها «مكة المكرمة» في موقعها من أرض الحجاز !

عاصرت تلك الخصائص الجزيرة العربية مفرقة بين شمالها وجنوبها آماداً طويلة ، وأحقاباً متعددة ، تدخل مع التاريخ في أعماقه البعيدة ، حتى تقف معه عند مجاهل العصور التي لم تتبين له معالمها ، ولم تزل تمخضها الحوادث ، وتدافعها الأحداث ، وتمر مع الزمن في أطوار طبيعية ، حتى تبلورت إلى صورة واحدة مشت بالجنوب إلى الشمال ، فمزجته به في خصائصه ، حتى صار كأنه هو ، جذباً وشظف عيش ، وقسوة طبيعة ، وجفوة حياة ، وعبوس جو ، ولفح سموم ، وكثرة تقلبات ، وقلق إقامة ، وتطلعاً إلى السماء ، رجاء غيث ، وتوثباً في أرجاء الأرض ، طلباً لمرعى أو قطرة ماء !

وهي بعد ذلك بيئة تدَّرُّ الليل ، وتأنس بالوحش ، وتستضيء بالنجوم ،

(١) محمد رسول الله ﷺ ١ : ٤٠ وما بعدها بتصرف .

وتطرب لصوت الرعد ، يكتنفها فضاء لانهاية له ، وتظلمها سماء لا تستقر على حال ، تصفو مرة فتلمح بالليل نجومها ، وتضحى بالنهار شمسها ، وتغيم مرة فيسود أديمها ، وتتوارى كواكبها ، وتحتجب شمسها ، ويكفهر أفقها ، ويتجهم منظرها ، أكنافها الجبال ، ومسارحها الوديان ، لاصناعة تشدّب من مظاهرها ، ولازراعة ترفّه من جوها ، وكل الأمل المرجو منها مرعى تجود به الطبيعة ، لتحيا عليه قطعان من إبل وشاء ، عليها قوام تلك البيئة القاسية !

وقد اشتهر ذلك عن الجزيرة العربية ، حتى عرفه جيرانهم من الفرس والرومان ، فزهّدوا فيها مع طغيان روح الاستغلال الاستعماري في الدولتين !

هذه الخصائص الطبيعية كانت خلاصة ما انتهت إليه الأحداث الضخمة ، والحوادث الهائلة ، التي انتابت الجزيرة العربية في مدى الأحقاب المتوغلّة في مجاهل التاريخ ، تجمعت من أرجائها كلها ، وتلاقّت في شمالها من أرض الحجاز ، فكانت - فوق أنها خصائص الجزيرة منذ بدأ انسياح القبائل الجنوبية إلى الشمال طلباً للعيش عقب انهيار سد مأرب وتخريب عمران اليمن - هي في الوقت ذاته خصائص بلاد الحجاز منذ عرفها التاريخ !

«مكة المكرمة» :

أما «مكة المكرمة» بلد الرسول الحبيب ﷺ ، وبيئته اللصيقة به ، فسمها قرية أو مدينة أو ما شئت من أسماء الأمكنة التي كانت موئلاً لاستقرار قبيل من الناس ، يضطربون فيه طلباً لوسائل الحياة والعيش ، فيتسع لهم ويعطيهم ما تسمح به طبيعته ، ويظهر أن أمر هذه التسمية يرجع إلى العرف ومصطلح الناس ، وقد يختلف باختلاف الأزمنة والعصور ، والقرآن الكريم أطلق عليها «بلداً» ، وسمّاها مرة «قرية» ، ومرة أخرى سماها «أم القرى» ، وأصول الاجتماع لا تأبى عليها اسم «المدينة» !

ومهما يكن من أمر ذلك كله ، فإنها منذ كانت عاصمة الحجاز من غير منازعة ولا مزاحمة ، وإطلاق اسم المدينة عليها أقرب إلى تسمية القرآن لها «أم القرى» وأدنى ما عرف لها من مكانة واحترام قبل البعثة المحمدية ، وأشبه بما صارت إليه في الإسلام من منزلة دينية واجتماعية !

يقول ابن القيم (١) عند تفسير قول الله تعالى :

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ .

(آية ٦٨ سورة القصص)

ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها ، وهي البلد الحرام ، فإنه سبحانه وتعالى اختاره لنبيه ﷺ ، وجعله مناسك لعباده ، وأوجب عليهم الإتيان إليه ، من القرب والبعد ، من كل فج عميق ، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين ، كاشفي رؤوسهم ، متجردين عن لباس أهل الدنيا !

وأقسم به في كتابه العزيز في موضعين منه ، فقال تعالى :

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣)﴾ .

(آية ٣ سورة التين)

وقال جل شأنه :

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١)﴾ .

(آية ١ سورة البلد)

وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعي إليها ، والطواف

(١) زاد المعاد : ١ : ٤٦ وما بعدها يتصرف .

بالبيت الذي فيها غيرها ، وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله واستلامه ،
وتحط الخطايا والأوزار فيه ، غير الحجر الأسود ، والركن اليماني !

يروى أحمد وغيره بسند صحيح عن عبد الله بن عدي بن الحمراء أنه سمع
رسول الله ﷺ ، وهو واقف على راحلته بالحَزْوَرَة من مكة يقول :

« والله ! إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنني
أخرجت منك ما خرجت » (١) .

تلك المدينة التي كانت مسقط رأس الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، وموطن
أسرته ، ووطن قبيلته ، وصفها القرآن الكريم على لسان خليل الله إبراهيم عليه
السلام في قوله جل شأنه :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ .

(آية ٣٧ سورة إبراهيم)

وهذا أصدق وصف ، وأجمع كلمة لخصائصها الطبيعية ، فكلمة «وادي»
تصور أتم تصوير وضعها من الأرض ، فهي منخفض تحيط به الجبال ، وكلمة «غير
ذي زرع» تعطيك أن هذا الوادي له طبيعة شحيحة أشد الشح بالماء ، فهي لا تكاد
تجود به نبعاً ، وإذا جادت به غيثاً تفرق في غير كبير فائدة ، وتعطيك نتيجة لذلك
جدوية الأرض وقحولتها ، وتعطيك ببس الطبيعة وقسوتها ، وتعطيك شظف الحياة
وبؤس العيش ، وتعطيك صرامة الجو ، ولفح السموم ، وهو وصف في جملته
يدخل على النفس بأساً ، قلما أن تجد وسيلة من وسائل العيش الرغيد ، أو سبباً
من أسباب الكسب الربيح ، في هذا البلد السجين بين شاهقات الجبال !

(١) أحمد : ٤ : ٣٠٥ ، والترمذي (٣٩٢١) ، وابن ماجه (٣١٠٨) ، والنسائي في الكبرى ، كما في
التحفة : ٥ : ٣١٦ ، والحاكم : ٣ : ٧ ، ٢٨٠ ، ٤٣١ ، وابن حبان : الإحسان (٣٧٠٨) .

بيد أن «مكة المكرمة» بلد الرسول الحبيب ﷺ لم تستسلم للطبيعة تحبسها في واديهما الأجرد ، بين جبالها السود المكفهرة القاسية ، بل تداركتها العناية الإلهية ، فأهدت إليها «الكعبة» بيت الله الحرام ، فصارت بها «مكة المكرمة» بلد الله الحرام ، والذي أقام الكعبة - كما سيأتي - إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وإبراهيم جد العرب الذي تنتهي إليه مفاخرهم ، وإسماعيل أبوهم ، وقد تعرب منذ كان ، فلم يعرف غير العرب شعباً ، ولا غير الجزيرة وطناً ، ولا غير «مكة المكرمة» بلداً ، فحفظ الأبناء تراث الآباء ، ووعى الأحفاد ذخيرة الأجداد !

وعظم العرب «الكعبة البيت الحرام» ، وعظموا تعظيمها «مكة المكرمة» ، واتخذوها حرماً آمناً يقدسونه ، ويتحاملون فيه المآثم ، وينزهونه عن وقوع المظالم ، ويؤمنون فيه الخائف ، ويجبرون الكسير ، وينصرون المظلوم ، ويخافون الظلم فيه . . يحجون إليها - كما سيأتي - ، ويجتمعون في مواسمها ، يتعبدون ويتجرون ، ويجلبون إليها الأرزاق والسلع ، ويتبادلون ذلك فيما بينهم ، فيصدر عنها من وردها بغير ماورد ، ويردها من صدر عنها بغير ما صدر ، ثم اتخذوها مناراً لإذاعة مفاخرهم ، ومحكمة لتحاكمهم ، وملجأ لضعفائهم ، وملاذاً يلوذ به أصحاب التبعات والجرائر منهم ، ومصدراً لمخالفتهم وتعهداتهم ، ووضعوا لذلك سنناً متبعة لا يحدون عنها ، ونظاماً ماثوراً يآثره الخلف عن السلف ، من غيرهِ أو انتهك حرمة فقد جاء بإحدى الكبر !

وهكذا أصبحت «مكة المكرمة» شيئاً آخر ، غير كونها وادياً محصوراً بين الجبال ، فقد أصبحت متعبد العرب قاطبة ، تهفو إليها قلوبهم تحشاً فيها وتعبداً بالطواف حول بيتها المحرم ، يقدسونها تقديساً لا يفوقه تقديس ، ويفدون بيتها المعظم بالمُهْج والأرواح !

قال الشاعر :

محاسنه هيمولى كل حسن ومغناطيس أفئدة الرجال

قال ابن القيم : (١) أخبر سبحانه أنه مثابة للناس ، قال تعالى :

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾ .

(آية ١٢٥ سورة البقرة)

أي يشوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار ، ولا يقضون منه وطراً ، بل كلما ازدادوا له زيارة ، ازدادوا اشتياقاً :

لا يرجع الطرف عنها حين ينظرها حتى يعود إليها الطرف مشتاقاً

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح ، وكم أنفق في حبها من الأموال والأرواح ، ورضي الحب بمفارقة فلذ الأكباد والأهل ، والأحباب والأوطان ، مقدماً بين يديه أنواع المخاوف والمتالف ، والمعاطف والمشاق ، وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه ، ويراه - لو ظهر سلطان المحبة في قلبه - أطيب من نعم المتحلية وترفعهم ولذاتهم !

وليس محباً من يَعُدُّ شقاءه عذاباً إذا ما كان يَرْضَىٰ حبيبهُ

وهذا كله سر إضافته إليه سبحانه وتعالى بقوله :

﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ . (آية ٢٦ سورة الحج)

(١) زاد المعاد : ١ : ٥١ وما بعدها بتصرف .

فاقتضت هذه الإضافة الخاصة من هذا الإجلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته ، كما اقتضت إضافته لعبده ورسوله إلى نفسه ما اقتضته من ذلك ، وكذلك إضافته عباده المؤمنين إليه كستهم من الجلال والمحبة والوقار ما كستهم ، فكل ما أضافه الرب تعالى إلى نفسه ، فله من المزية والاختصاص على غيره ما أوجب له الاصطفاء والاجتباء ، ثم يكسوه بهذه الإضافة تفضيلاً آخر ، وتخصيصاً وجلالة ، زائداً على ما كان له قبل الإضافة !

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (٢)

كذلك ما خص به «الكعبة الحرام» من حين بناه إبراهيم ، وإلى هذا الوقت من تعظيمه وتوقيره وانجذاب القلوب إليه ، ومن المعلوم أن الملوك وغيرهم يبنون الحصون والمدائن والقصور بالآلات العظيمة البناء المحكم ، ثم لا يلبث أن ينهدم ويهان ، والكعبة بيت مبني من حجارة سود بواد غير ذي زرع ، ليس عنده ما تشتهيه النفوس من البساتين والمياه وغيرها ، ولا عنده عسكري يحميه من الأعداء ، ولا في طريقه من الشهوات ما تشتهيه الأنفس ، بل كثيراً ما يكون في طريقه من الخوف والتعب والعطش والجوع ما لا يعلمه إلا الله ، ومع هذا فقد جعل الله من أفئدة الناس التي تهوي إليه ما لا يعلمه إلا الله !

وقد جعل للبيت من العز والشرف والعظمة ما أذل به رقاب أهل الأرض ، حتى تقصده عظماء الملوك ورؤساء الجبابرة ، ومن ثم نجدهم هناك في الذل والمسكنة كآحاد الناس !

وهذا مما يعلم بالاضطرار أنه خارج عن قدرة البشر ، وقوى نفوسهم وأبدانهم ، والذي بناه قد مات من ألوف السنين !

(١) خصائص جزيرة العرب : ٤٧ نقلاً عن الصفدية : ١ : ٢٢٠ - ٢٢١ بتصرف .

وإذا كان العرب لم ينسوا الله في وثنتهم ، وأنهم قد أشركوا ، فإن السبب يرجع إلى أن الأصل عندهم هو التوحيد ، كما تلقوه عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، والذي كان بقية مما وصى به إبراهيم بنيه ويعقوب عليهما السلام !

وإذا كانت الإنسانية قد عاشت حياتها في حمأة الوثنية الهابطة^(١) ، وإذا كان عند كل أمة من أمم الجاهلية الأولى آلهة شتى تعبد من دون الله ، فإن التاريخ قد استيقظ من غمرات غفلاته ، وحزم تراثه وحمله على مناكبه ، وسار به في سرعة خاطفة ، ميمماً مشرق الشمس ، حتى إذا بلغ «الربوة الحمراء» في فيافي الجزيرة العربية ، ألقى عن كاهله أثقاله !

[الله لا يضيع أهله] :

والجزيرة العربية يومئذ في عزلة موحشة ، ونسيان شرود ، ولكن ضربات المخاض القاسية التي كانت أناتها بانفراجها عن الحدث الجليل ذكّرت التاريخ بها ، فذهب إليها وهو يلث مكدوداً ، وألقى بثقله في أحضانها ، على ربوتها في أرض «أم القرى» ، وغطّ في نوم قلق مليء بالرؤى وأضغاث الأحلام ، رجعاً لصدى ماضيه السحيق !

وعلى حفيف أقدام خافت في رمال الصحراء تيقظ من غفوته ، وانتبه من غفلته ، فانبعث من مرقده متكاسلاً يتمطى ويمسح عن عينيه رماص الكرى ، وإذا به مع نفسه وحيداً إلا من طفل في مهده يضغو من شدة العطش ، وإلى جانبه أم رصينة ، لهفانة ، لا تستقر نظرتها على شيء ، حتى على طفلها المتضاغي في مهده ، كأنها تخاف أن تنظر إليه ، بيد أنها كانت تنوء تحت وطأة الآلام تعصر قلبها ، وتحرق كبدها ، كلما حرك الطفل قدميه يفحص بهما رمال الصحراء ،

(١) محمد رسول الله ﷺ : ١ : ٢٢ وما بعدها بتصرف .

كأنه يطلب شيئاً أودعه له فيها حفيظ أمين !

وانفجرت الرمال عن الوديعة ، فإذا هي «زمزم» عين لا تغيض !

وصدق إلهام «هاجر» حين قالت لإبراهيم الذي جاء بابنه مع أمه إلى هذا الوادي الأجرد اليابس ، فيما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما :

[الله أمرك بهذا؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يضيعنا]!

وحين كانت زمزم عيناً معيناً ، شربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك :

[لا تخافوا الضيعة ، فإن ها هنا بيت الله ، يبني هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله] (١) .

وعلينا أن نتصور هاجر ومعها طفلها ، ولا أنيس ولا جليس ، ونتصور الكلمات التي قالتها كما هي ، حين أراد إبراهيم أن يرجع ، ويتركها وطفلها في هذا الوادي ، وقد علمت أن ذلك بأمر الله تعالى ، ومن ثم فإن شدة الموقف التي تعجز الكلمات عن تصويرها لا وجود لها ما دام الأمر من الله ، والله لا يضيع أهله !

أجل ، يا أم إسماعيل : لن يضيعكما الله ، وفي صلب وليدك وديعة الوجود ، وهداية السماء إلى الحياة بمن فيها وما فيها !

أجل ، يا أم إسماعيل : إن الله تعالى سيجدد بوليدك صادق الوعد ديباجة الحياة ، وسيخلع عليها من جلايب الفيض السماوي ما يحول ظلامها نوراً ، وجبالها مآذن ، وهضابها منابر للهداية ، ووديانها مساجد يتعبد في محاربها الموحدون ، وآفاقها مراتع للحرية الإنسانية ، يرتفع في مسارحها المؤمنون بقداسة الحياة ، وتتفلق صخورها عن سر الأسرار في هذا الوجود ، عن النور المخبوء في مشكاة كنز الغيب ، عن كلمة الحق وأمانته ، منذ كان آدم بين الطين والماء !

(١) البخاري : ٦٠ - الأنبياء (٣٣٦٤) .

صبراً أم إسماعيل ، إن إبراهيم عليه السلام خليل الله ، وله مع ربه مناجاة ومصافاة ، وفي المناجاة أسرار وأسرار ، وفي المصافاة أضواء وأنوار ، سوف تتفجر عنها رمال الحياة ، كما انفجرت عن زمزم رمال الصحراء !

أجل ، يا أم إسماعيل ، لقد جيء بك وبوليدك إلى هنا لتؤديا أمانة الله إلى الحياة ، في هذا الوادي «الصّديان» لتكون الآية الإلهية أضخم من تراث التاريخ كله ، في فلسفته وعلومه ومعارفه ، وتجاربه وأنظمته ، منذ وعى التاريخ حقيقة الحياة !

وافترّ ثغر «هاجر» عن ابتسامة الرضى ، وهي ترى هذا الوادي الأجرد المقفر يجذب إليها لثاماً من الناس ، كانوا يمرون به من قبل ، فلا يجدون فيه أثراً للحياة !

طلائع الأسرار في بناء «الكعبة المشرفة» :

وشب إسماعيل وترعرع بين أطفال جرهم وشبابها عربياً خالصاً ، ولما استوت رجوليته أصهر فيهم إلى سيدهم ، وجاء إبراهيم خليل الله زائراً ولده ، ولقي إسماعيل أباه ، وتحدا حديث حنان الأبوة ، وولّه البنوة ، وأفضى خليل الله إلى ابنه إسماعيل بسر الحياة في رمال الصحراء التي كان قد أودعه فيها مع أمه في هذا الوادي الأجرد ، ليؤديا أمانة الله إلى الحياة !

ونبأه بأمر الله في بناء بيته ، وقد بوأه الله مكانة من الربوة الحمراء ، وبنى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام «الكعبة المشرفة» بيتاً لله تعالى ، ليكون رمزاً إلى الحقيقة الكبرى في الوجود ، حقيقة التوحيد في التوجه إلى الله الواحد الأحد ، وتضرع خليل الله ودعاً ، وأمنّ إسماعيل ، أن يجعل الله أفئدة من الناس تهوي إلى ذريته في جوار هذا البيت المحرم :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٣٧) .

(آية ٣٧ سورة إبراهيم)

وهذه ضراعة داعية تنساب من قلب خليل الله إبراهيم ، لجوءاً إلى أرحم الراحمين ، أن يجعل من هذا الوادي الأقيح المقفر اليابس ، بلداً عامراً بذريرة هذا الوليد الذي جاء به إلى هنا وحيداً إلا من أمه الراضية الوالهة ، استجابة لأمر الله تعالى ، ولما يعلم الخليل ما كتبه قلم القدر الحكيم في لوح الكون من أسرار تحجبها رمال الصحراء في هذا الوادي ، ولكن إلهام «الخُلَّة» في وحي النبوة ألقى إليه كلمة الله في رسالة التوحيد ، تلك الرسالة التي حاف عليها تاريخ المجتمع البشري ، فلم تجد له في تراثه إلا سمَّ الخياط منفذاً تنسرب منه ، متسللة في مسارب الحياة !

وكانت هذه الضراعة الداعية دعوة عامة ، تستهدف الاستقرار والأمن ، وجلب الرزق لذرية إسماعيل ، وتبرز ما استسر وراء سُجُف الغيب من تجليات وأحداث ، تجعل من إسماعيل دوحة تُلقي بظلال أفنانها على جنبات الوادي الأجرد ، فتحيله حياة حية خالدة ، تهوي إليه الأفئدة من أطراف الأرض ، هائمة والهة بحب الحقيقة الكبرى في رمزها العظيم «الكعبة المشرفة» :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ .

(آية ٢٦-٢٧ سورة الحج)

واستجاب إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لأمر الله ، وطهرا بيت ربهما الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً :

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾ .

(آية ١٢٥ سورة البقرة)

طهراه من رجس الوثنية التي أثقلت كاهل التاريخ على طول مسيرته في حياة المجتمع البشري ، ونادى إبراهيم في الناس بالحج إلى بيت الله ، وأبلغ الله النداء إلى أهله في عالمي الغيب والشهود ، وأتوا من كل فج عميق ، وأوب سحيق - كما سيأتي - ملبّين دعوة ربهم على لسان خليله إبراهيم ، يتداولون عصراً بعد عصر ، وجيلاً بعد جيل ، تحقيقاً لوعد الله بقبول دعاء إبراهيم وإسماعيل :

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾ .

(آية ١٢٧ سورة البقرة)

ونبصر التعبير هنا يرسم مشهد تنفيذ إبراهيم وإسماعيل للأمر الذي تلقياه من ربهما بإعداد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود ، (١) يرسمه مشهوداً كما لو كانت الأعين تراهما اللحظة وتسمعهما في آن . .
ونبصره يبدأ بصيغة الخبر :

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ .

(١) في ظلال القرآن : ١ : ١١٤ بتصرف .

وبينما نحن في انتظار بقية الخبر ، إذا بالسياق يكشف لنا عنهما ، ويُرينا إياهما ، كما لو كانت رؤية العين . . إنهما أمامنا حاضران ، نكاد نسمع صوتيهما يتهلان :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

وهنا نذكر ما جاء في الحديث السابق الذي رواه البخاري في أمر الله عز وجل ببناء البيت من حديث طويل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إبراهيم عليه السلام (١) قال :

يا إسماعيل ، إن الله أمرني بأمر . قال : فاصنع ما أمرك ربك . قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها - قال : فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني . حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

قال : فجعلا يبنيان ، حتى يدورا حول البيت ، وهما يقولان :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

إننا نبصر الدعاء ، وجو الدعاء . . كأنه يقع الآن حياً شاخصاً متحركاً ناطقاً مبتهلاً . . وذلك في رد المشهد الغائب الذاهب ، إلى الحاضر يُسمع ويرى ، ويتحرك ويشخص ، وتفيض منه الحياة !

(١) البخاري : ٦٠ - أحاديث الأنبياء (٣٣٦٤) .

ونبصر في ثنايا الدعاء أدب النبوة ، وإيمان النبوة ، وشعور النبوة بقيمة العقيدة في هذا الوجود . . وهو الأدب والإيمان والشعور الذي يريد القرآن الكريم أن يعلمه لورثة الأنبياء ، وأن يعمقه في قلوبهم ومشاعرهم وخواطرهم بهذا الإحياء :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

إنه طلب القبول ، وهذه هي الغاية ، فهو عمل خالص لله ، الاتجاه في قنوت وخشوع إلى الله ، والغاية المرجاة من ورائه هي الرضا والقبول ، والرجاء في قبوله متعلق بأن الله سميع للدعاء ، عليم بما وراءه من النية والشعور !

ونبصر تضامن الأجيال في العقيدة :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) ﴾ .

(آية ١٢٨ سورة البقرة)

إنه رجاء العون من ربهما في الهداية إلى الإسلام ، والشعور بأن قلوبهما بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن الهدى هداه ، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، فهما يتجهان ويرغبان ، والله المستعان !

ثم هو طابع الأمة المسلمة . . التضامن . . تضامن الأجيال في العقيدة !

وهي دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن ، فأمر العقيدة هو الشغل الشاغل ، وشعور إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بقيمة النعمة التي أسبغها عليهما ، نعمة الإيمان ، تدفعهما إلى الحرص عليهما في عقبهما ، وإلى دعاء الله ألا يحرم ذريتهما هذا الإنعام الذي لا يكافئه إنعام ، لقد دعوا الله ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات ، ولم ينسيا أن يدعوا ليرزقهم من الإيمان ، وأن

يريهـم جميعاً مناسـكهم ، ويبين لهم عباداتهم ، وأن يتوب عليهم بما أنه هو التواب الرحيم !

وتزاحفت القرون والعصور متواصلة ، وهي تطوي بساط التاريخ ، وتسوق الأجيال ، جيلاً إثر جيل ، وبلغت دعوة إبراهيم العامة مداها في الانتشار ، وتكاثر ولد إسماعيل ، حتى كانوا غمرة العرب وجمهرتهم ، وسادوا وتسيّدوا ، وتشعبوا وتفرعوا ، ملؤوا السهل والجبل ، ونزلوا الوديان ، وتسئموا المكانة الرفيعة !

بيد أنهم إذ كثر عددهم ، نسوا دعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام ، وهم في غمرة الحياة الجاهلة ، وجهلوا منها الحقيقة الكبرى ، حقيقة التوحيد ، وأوغلوا في وثنية بليدة ، وكانت الوثنية الأولى يضاهئون بها وثنية فجور من قبلهم في أمم الفلسفة الضالة !

دعوة إبراهيم عليه السلام :

وتنفّس الغيب ، وبدأت إشراقة الفجر الجديد ، ترسل أشعتها من أفق «الربوة الحمراء» ، وتعالى صوت الحق في ترنيمة الرسالة العظمى ، رسالة التوحيد والعلم والطهر ، علم الكتاب والحكمة ، لا علم الهلوسة والفلسفة الضالة ، ورتّل القدر مرة أخرى ضراعة أخرى للخليل في دعوته الخاصة ، بعد أن حقق الله له دعوته العامة ، وكانت هذه الدعوة الخاصة هي ميراث الحياة في خُلة الخليل ، والعنوان المشرق في ملته الحنيفية ، والكلمة الباقية من نبوته ورسالته ، وجاءت هذه الدعوة متوافقة تمام التوافق مع نفّس الغيب في إشراقة الفجر ، وكان الإلهام سر الوجود في ضراعة خاصة ، يطلب بها إظهار مكنون الغيب حين يحين الحين :

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٩) .

(آية ١٢٩ سورة البقرة)

وكانت الاستجابة هي بعثة خاتم النبيين الحبيب المحبوب ﷺ بعد قرون وقرون^(١) ، بعثة رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويطهرهم من الأرجاس والأدناس ، ولهذا الدعاء دلالاته ووزنه فيما كان شجريين أهل الكتاب والجماعة المسلمة من نزاع عنيف متعدد الأطراف ، فإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قالا وهما يرفعان قواعد البيت باللسان الصريح :

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ .

وهما بهذا يقرران وراثة الأمة المسلمة لإمامة إبراهيم ، ووراثة البيت الحرام سواء !

يروى الحاكم وغيره بسند صحيح عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا :

يا رسول الله ! أخبرنا عن نفسك؟ فقال :

«دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له بصرى ، وبصرى من أرض الشام» (٢) .

(١) انظر : في ظلال القرآن : ١ : ١١٥ .

(٢) الحاكم : ٢ : ٦٠٠ وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، والطبري : ١ : ٥٥٦ ط . ثالثة ، =

أنبياء في الجزيرة :

وكانت الجزيرة مكاناً لكثير من الرسالات ، ومن ثم فبعثة خاتم النبيين في الجزيرة لم تكن وحيدة ، فهذا هود عليه السلام أقدم من إبراهيم عليه السلام ، كان من قوم عاد ، وكان موطنها الأحقاف ، والحقف : ما استطال واعوج من الرمل^(١) ، وكانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة في جنوب الجزيرة :

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢١) .

(آية ٢١ سورة الأحقاف)

وقد قالوا إنه كان أول نبي بعد نوح عليه السلام :

= الحلبي ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨ ، وابن كثير : البداية : ٢ : ٢٧٥ قال : قال ابن إسحاق : ثنا ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ ، أنهم قالوا له : أخبرنا عن نفسك؟ قال : «نعم ، أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى عليهما السلام ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر . . .» الحديث . ثم قال : وهذا إسناد جيد قوي ، وابن إسحاق قال : وحدثني ثور بن يزيد ، عن بعض أهل العلم ، ولا أحسب إلا خالد بن معدان الكلاعي ، أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له : يا رسول الله ! أخبرنا عن نفسك؟ قال : «نعم . . .» الحديث . السيرة النبوية : ابن هشام : ١ : ٢١٩ - ٢٢٠ مكتبة المنار ، الأردن ، ط . أولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م ، وأحمد عن أبي أمامة قال : قلت : يا نبي الله ! ما كان أول بدء أمرك؟ قال : «دعوة أبي إبراهيم . . .» الحديث : ٥ : ٢٦٢ ، وابن سعد : ١ : ١٠٢ ، وإسناده حسن كما قال الهيثمي ، وله شواهد تقويه : مجمع الزوائد : ٨ : ٢٢٢ ، وانظر : الطيالسي : منحة المعبود : ٢ : ٨٦ ، وفي سننه فرج بن فضالة ، والطبراني في الكبير : ٨ : ١٧٥ (٧٧٢٩) ، والأصبهاني في دلائل النبوة : ١ : ٢٣٩ .

(١) المعجم الوسيط (حقف) .

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴿

(آية ٦٩ - ٧٠ سورة الأعراف)

وهذا النص يومئ كما يقول المرحوم الشيخ أبو زهرة (١) : إلى أن هوداً جاء من بعد نوح ، وأن قومه كانوا خلفاء من بعد نوح ، ويُشير من جهة أخرى إلى أن قوم نوح كانوا في أرض العرب ، كما كان خلفاؤهم .

وإن عاداً كانوا من أقوى قبائل العرب منعة ، وأقواها شكيمة ، ولكن كانوا أشد غروراً ، كما قال الله تعالى عنهم :

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّْا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴿

(آية ١٥ - ١٦ سورة فصلت)

وكذلك صالح نبي ثمود ، وكانوا عرباً يسكنون الحجر ، الذي بين الحجاز وتبوك .

كان يدعوهم نبيهم إلى التوحيد ، وكانت بيته ناقية لا يمسوها بسوء ، وإلا كانوا خاسرين :

(١) خاتم النبيين ١ : ٤٧ .

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ (٧٣)﴾ .

(آية ٧٣ سورة الأعراف)

ولقد كان قوم صالح من بعد عاد وقوم هود ، إذ كانوا خلفاء هم ، وكانوا
أقوى قوة ، وأكثر عدداً :

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ
مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْشَوْا فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)﴾ .

(آية ٧٤ سورة الأعراف)

ولكن ثمود بعدت عن أمر ربها ، واعتدوا على صالح ، فنزل عليهم عذاب
واصب أبادهم .

وقد كانت ديارهم أطلالاً هامدة ، وآثاراً باقية ، تذكر بغضب الله على من
كذبوا رسله ، وتعجلوا عقابه ، وقد روى الشيخان عن ابن عمر رضي
الله عنهما :

[أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ،
ولا يستقوا منها ، فقالوا : قد عجبنا منها واستقينا ، فأمرهم أن يطرحوا ذلك
العجين ، ويهريقوا ذلك الماء] .

وفي رواية :

أن النبي ﷺ لما مر بالحجر ، قال : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، إلا أن تكونوا باكين ، أن يصيبكم ما أصابهم » ثم تقنع بردائه وهو على الرحل (١) .

ووجه هذه الخشية أن البكاء يبعث على التفكير والاعتبار ، عند المرور بقبور الظالمين ، وبما أصابهم ، وإظهار الافتقار إلى الله تعالى ، والتحذير من الغفلة عن ذلك ، حتى المياه التي كانت في آبار هؤلاء نهى الرسول الحبيب المحبوب ﷺ عن استعمالها ، وحتى لا يغفل المسلمون عن مواطن العظة ، وألا يستهينوا بما خلا قبلهم من مثلات !

وجاء شعيب بعد إبراهيم وبعد لوط ، وقيل إنه بعد يوسف عليهم السلام ، ومن المؤكد أنه جاء بعد لوط ، لأنه جعل من إنذاره لقومه أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم لوط :

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ (٨٩) .

(آية ٨٩ سورة هود)

وهذا يدل على أمرين :

الأول : أن مبعث شعيب عليه السلام كان بعد مبعث هود وصالح ولوط ، فقد جعل في بيانه ما حدث لأقوام هؤلاء من عذاب دنيوي ماحق ، كان موضع إنذار لهم .

الثاني : أنه يدل على أن قوم لوط كانوا في العرب ، ولذلك قال :

﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ .

(١) البخاري : ٦٠ - الأنبياء (٣٣٧٨ - ٣٣٨١) ، ومسلم (٢٩٨٠ - ٢٩٨١) .

فهم كانوا على مقربة منهم ، وكانوا مثلهم في أطراف أرض العرب من ناحية الشام .

وهنا نذكر أمرين :

الأول : أنه بعث لمدين ، وهم أهل الأيكة ، فقد كانوا يعبدون شجرة عظيمة هي الأيكة ، وهم أصحاب يوم الظلة ، أي سحابة ظللتهم ، فلما اجتمعوا تحتها التهب عليهم ناراً وأحرقتهم (١) .

كما أصابتهم الرجفة والصيحة .

وهي عقوبات متتالية ، أرهقتهم الذلة ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، حتى فروا من أماكنهم ، فجاءتهم الغمامة فرجوا أن يستظلوا ، أو أن يجدوا فيها الرحمة ، فكانت الصيحة العنيفة ، وكانت الرجفة التي أصابتهم .

وقد استحقوا هذه الأنواع من العقوبات ، والأصناف من المثالات ، والأشكال من البليات ، لما اتصفوا به من قبيح الصفات ، حيث سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عنيفة أخدمت الأصوات ، وظلة أرسل منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات .

الثاني : أن أهل مدين جمعوا مع عبادة الشجرة فساد الأخلاق وسوء المعاملات ، حيث كانوا يطففون في الكيل والميزان ، وقطّاع طريق .

الجزيرة مهجر المضطهدين :

هذا ، وقد اختصت الجزيرة العربية بالرسالات الأولى ، رسالة إدريس ،

(١) انظر : تفسير الطبري : ١٩ : ١٠٩ وما بعدها ، وابن كثير : ٣ : ٣٤٦-٣٤٧ .

ونوح ، وهود ، وصالح ، وكان لإبراهيم رفع القواعد من البيت وإسماعيل - كما أسلفنا - ، وكان شعيب قد بعث في مدين ، وانبعث منها نور رسالة موسى .

كما كانت مهجر اليهود عندما نزل بهم الأذى ، ولجأت النصرانية إلى أرض نجران ، فراراً من حكم القياصرة !

وقد يسأل سائل : لماذا كانت الجزيرة مهجر المضطهدين عندما نزل بهم الأذى ، وحل سوء العذاب ؟

والجواب عن ذلك بأمور ثلاثة (١) :

أولها : أن البلاد العربية ليست بلاداً متوحشة ، كما يتوهم الذين يحكمون بغير بينات ، أو الذين يرمون الكلام على عواهنه ، أو الذين يتجنون على الحقائق مغرضين غير منصفين ، إنما هي بلاد فيها ذكاء ونفوس صافية كصفاء سمائها ، وقوة الاستجابة فيها متكافئة مع قوة المقاومة .

الأمر الثاني : أن الجزيرة مع ذكاء أهلها لهم في عقولهم معتصم ، حتى وهم يعبدون الأوثان التي أغرموا بها إغراماً شديداً ، وصارت جزءاً من مداركهم وعقولهم ، وأصبحوا يستنصرون بالأحجار ، ويظنون أنها تحيب عن سؤالهم ، حتى وهم على هذه الحال لم ينسوا الله في وثنياتهم ، وكانوا كما قال الله :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ .

(آية ٢٥ سورة لقمان ، وآية ٣٨ سورة الزمر)

(١) خاتم النبيين ١ : ٦١ وما بعدها بتصرف .

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ .

(آية ٩ سورة الزخرف)

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ .

(آية ٦١ سورة العنكبوت)

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾

(آية ٣ سورة الزمر)

وهنا تفترق الوثنية الرومانية واليونانية عن وثنية العرب ، لأن العرب كانوا يشركون مع الله غيره ، أما الآخرون فقد كانت نظرية الحلول تسري فيهم ، ولا يجيء في وثنيتهم ذكر الله تعالى قط .

وبيداء الجزيرة وقراها وبرها ، فيها حصون ليست في غيرها لمنع الاعتداء الوحشي من الأمم التي اشتدت إغارتها في الماضي ، وإن كان النبيون قد قُوموا في إقناعهم ابتداء ، فلأنهم في حصنين منيعين :

حصن من الأرض المانعة لكل وافد من أن يقتطعها .

وحصن من النفوس التي إذا آمنت قاومت واعتزت بإيمانها .

وإن قوة النفوس هي التي تتميز بها أخلاق الأمم ، فإن العقول إذا انحرفت قد تقوم وتستقيم ، والقلوب إذا غشيتها غاشيات الضلال في نفوس ملتوية غير مستقيمة ، فإن الحق لا يصل إليها إلا من رحم الله !

واعتبر بحال العرب بين دولتين قويتين من الدول التي صاقتها ، فإنهما لم يتجاوزا في سلطانهما أطرافها ، ولم تتمكن إحداهما أن تنتقل من الأطراف إلى داخلها ، فإنهما عندئذ تجدان قلوبا صلدة قواها ضوء الشمس الساطع ، وقوة الحياة فيها ، والتعرض لأوبد الحيوان ليلاً ونهاراً .

الأمر الثالث : قوة الشكيمة ، وقوة الخلق العربي ، وما امتاز به العربي من جود وسماحة ، وحسن تأت ، إذا وُجدت القيادة الحكيمة ، فإن العربي أنف إلا إذا رأى القائد الحكيم الذي يقوده ، ولعل أحسن تصوير للنفس العربية ما قاله أمير المؤمنين عمر الفاروق عندما تولى الإمارة ، فقد قال رضي الله عنه :

مثل العرب كمثل جمل أنف ، فليعلم قائده أين يقوده !

وبذلك يلتقي في العرب عناصر ثلاثة تجعلهم في أهلية الاختيار لموطن الرسالة في المكان اللائق ، وفي المقدمة :

العنصر الأول : قوة في النفس تقاوم ، ولا تستسلم ، واعتبر ذلك في أتباع المسيح الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ، ولما حاول تبّع أن يغيرهم ووضعهم في الأخدود ، ما نال مأرباً ، ولا وصل إلى متبغى .

العنصر الثاني : صفاء نفسي ، وقوة مدارك ، احتفظوا بها حتى في جاهليتهم ، وصدق النفس ، والصدق في القول ، والعمل الذي يوجهون إليه .

العنصر الثالث : الأنفة ، وألا يطيعوا في ذلة ، بل يتبعون في هداية ورشد مختارين ، غير مجبرين ، ولقد جاءت بعثة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فيهم ، فبدت هذه السجايا ، وشقت طريق النور في وسط الظلمات !

صفات العرب :

ويأتي الحديث عن صفات العرب ، الذين اختارهم الله عز وجل ، ليتلقوا هذه الدعوة أولاً^(١) ، ثم يبلغوها إلى الناس ، لأن ألواح قلوبهم كانت صافية ، لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة ، يصعب محوها وإزالتها ، شأن الروم ، والفرس ، وأهل الهند ، الذين كانوا يتيهون ويزهون بعلومهم وفلسفاتهم ، فكانت عندهم عقد نفسية وفكرية ، لم يكن من السهل حلها ، أما العرب فلم تكن على ألواح قلوبهم إلا كتابات بسيطة خطتها يد الجهل والبداءة ، ومن السهل المسور محوها وغسلها ، ورسم غيرها مكانها !

وبالتعبير العلمي المعاصر كانوا أصحاب «الجهل البسيط» الذي تسهل مداواته ، بينما كانت الأمم الأخرى تمثل «الجهل المركب» الذي تصعب مداواته وإزالته !

وكانوا على الفطرة ، وأصحاب إرادة قوية ، إذا التوى عليهم فهم الحق حاربوه ، وإذا انكشف الغطاء عن عيونهم أحبوه واحتضنوه ، واستماتوا في سبيله !

يعبر عن هذه النفسية العربية خير تعبير ، ما قاله سهيل بن عمرو فيما رواه البخاري ، حين سمع ما جاء في كتاب الصلح في الحديبية من حديث المسور ومروان :

هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله :

[والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك] (٢) .

(١) السيرة النبوية : الندوي : ٤٤ وما بعدها بتصرف .

(١) البخاري : ٥٤ - الشروط (٢٧٣١ - ٢٧٣٢) .

ومارواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

[بعث النبي ﷺ سريةً عينا ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت - وهو جد عاصم ابن عمر بن الخطاب - فانطلقوا ، حتى إذا كان بين عسفان ومكة ، ذكروا لحي من هذيل ، يقال لهم : بنو لحيان ، فتبعوهم بقريب من مائة رام ، فاقتصوا آثارهم ، حتى أتوا منزلاً نزلوه ، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة ، فقالوا : هذا تمر يشرب ، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم ، فلما انتهى عاصم وأصحابه ، لجأوا إلى قُدْقَد ، وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً ، فقال عاصم : أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر ، اللهم ! أخبر عنا نبيك ، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل ، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر ، فأعطوهم العهد والميثاق ، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم ، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها ، فقال الرجل الثالث الذي معهما : هذا أول الغدر ، فأبى أن يصحبهم ، فجروه وعالجوه على أن يصحبهم ، فلم يفعل ، فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب وزيد ، حتى باعوهما بمكة ، فاشترى خُبَيْباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل ، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر ، فمكث عندهم أسيراً ، حتى إذا أجمعوا قتله ، استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها ، فأعارته ، قالت : فغفلت عن صبي لي ، فدرج إليه ، حتى أتاه ، فوضعه على فخذه ، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني ، وفي يده الموسى ، فقال : أنتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذاك إن شاء الله . وكانت تقول : ما رأيته أسيراً قط خيراً من خبيب . لقد رأيته يأكل من قطف عنب ، وما بمكة يومئذ ثمرة ، وإنه لموثق في الحديد ، وما كان إلا رزق رزقه الله ، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه ، فقال : دعوني أصل ركعتين . ثم انصرف إليهم فقال : لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت ، فكان أول من سنّ الركعتين عند القتل هو ، ثم قال :

اللهم ! أحصهم عدداً ، ثم قال :

ما أن أبالي حين أقتل مسلماً على أي شق كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزوع

ثم قام إليه عقبة الحارث فقتله ، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه ، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر ، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدَّبَر ، فحمته من رسلهم ، فلم يقدروا منه على شيء (١) .

وقد قال عكرمة بن أبي جهل حين حمي الوطيس في معركة اليرموك ، واشتد عليه الضغط :

[قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن ، وأفر منكم اليوم؟ ثم نادى من يبايع على الموت؟ فبايعه من بايعه ، ثم لم يزل يقاتل حتى أثبت جراحاً ، وقتل شهيداً] (٢) .

وكانوا واقعيين جادين ، أصحاب صراحة وصرامة ، لا يخدعون غيرهم ولا أنفسهم ، اعتادوا القول السديد ، والعزم الأكيد ، يدل على ذلك دلالة واضحة ما رواه أحمد وغيره بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال :

مكث رسول الله ﷺ عشر سنين ، يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة في المواسم بمنى يقول :

« من يؤويني ، من ينصرني ، حتى أبلغ رسالة ربي ، وله الجنة » .

(١) البخاري : ٦٤ - المغازي (٤٠٨٦) .

(٢) السيرة النبوية : الندوي : ٤٥ - ٤٦ ، وانظر : تاريخ الطبري : ٤ : ٣٦ .

حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر ، فيأتيه قومه ، فيقولون : احذر غلام قريش لا يفتنك ، ويمشي بين رجالهم ، وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتى بعثنا الله إليه من يثرب ، فأويناه وصدقناه ، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله ، فيسلمون بإسلامه ، حتى لم يبق دور من الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين ، يظهرون الإسلام ، ثم ائتمروا جميعاً ، فقلنا : حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف ، فرحل إليه منا سبعون رجلاً ، حتى قدموا عليه في الموسم ، فواعدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين ، حتى توافينا ، فقلنا : يا رسول الله ! نبايعك ، قال :

«تبايعوني على السمع والطاعة ، في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله ، لاتخافون في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة» .

قال : فقمنا إليه فبايعناه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة ، وهو من أصغرهم ، فقال :

رويداً يا أهل يثرب ، فإننا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ ، وأن إخراجهم اليوم مفارقة (١) العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فإما أنكم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله ، وإما أنكم تخافون من أنفسكم جنة (٢) ، فبينوا ذلك ، فهو عذر لكم عند الله . قالوا : أمط عنا يا أسعد (٣) ، فوالله ! لا ندع هذه البيعة أبداً ، ولا نسلبها أبداً (٤) ، قال : فقمنا

(١) أي معاداتهم جميعاً ، وربما قامت بينكم وبينهم حرب فيقتلون خياركم ، وتعمل فيكم سيوفهم .

(٢) أي جنباً .

(٣) معناه : أمط عنا يدك ، أي : نحها وأبعدنا .

(٤) أي لا نرفضها ولا نتركها .

إليه فبايعناه ، فأخذ علينا وشرط يعطينا على ذلك الجنة (١) .

رضي الله عنهم أجمعين .

وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وبايعوا الرسول الحبيب المحبوب ﷺ على ذلك ، وقد تجلّى هذا الصدق في العزم ، والجد في العمل ، وروح الامثال للحق !

أما اليونان والرومان (٢) ، وأهل إيران ، فقد اعتادوا مجارة الأوضاع ، ومسايرة الزمان ، ولا يهيجهم ظلم ، ولا يستهويهم حق ، ولا تملكهم فكرة ودعوة ، ولا تستحوذ عليهم استحواداً يتناسون فيه أنفسهم ، ويجازفون فيه بحياتهم ولذاتهم .

وكان العرب بمعزل عن أدواء المدنية والترف ، التي يصعب علاجها ، والتي تحول دون التحمس للعقيدة والتفاني في سبيلها .

وكانوا أصحاب صدق وأمانة وشجاعة ، ليس النفاق والمؤامرة من طبيعتهم ، وكانوا مغاوير حرب ، وأحلاس خيل ، وأصحاب جلادة وتقشف في الحياة ، وكانت الفروسية هي الخلق البارز الذي لا بد أن تتصف به أمة تضطلع بعمل جليل ، لأن العصر كان عصر الحروب والمغامرات ، والفتوة والبطولة .

وكانت قواهم العملية والفكرية ، ومواهبهم الفطرية ، مذخورة فيهم ، لم تستهلك في فلسفات خيالية ، وجدال عقيم «بيزنطي» ، ومذاهب كلامية

(١) الفتح الرباني ٢٠: ٢٦٩- ٢٧٠ ، والحاكم ٢: ٦٢٥- ٦٢٦ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد جامع لبيعة العقبة ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وقال ابن كثير في تاريخه : هذا إسناد جيد على شرط مسلم .

(٢) السيرة النبوية : الندوي ٤٧ وما بعدها بتصرف .

دقيقة ، وحروب إقليمية سياسية ، فكانت أمة بكرة ، دافقة بالحياة والنشاط ،
والعزم والحماس .

وكانوا أمة نشأت على الهيام بالحرية والمساواة ، وحب الطبيعة والسذاجة ،
لم تخضع لحكومة أجنبية ، ولم تألف الرق والعبودية ، واستعباد الإنسان
للإنسان ، ولم تتمرس الغطرسة الملوكية الإيرانية أو الرومانية ، واحتقارها
للإنسان والإنسانية ، فكان الملوك في إيران - المملكة المجاورة للجزيرة - فوق
مستوى الإنسان والإنسانية ، فكان الملك إذا احتجم ، أو فصد له ، أو تناول
دواء ، كان ينادى في الناس ألا يمارس إنسان من رجال البلاط ، أو سكان العاصمة
عملاً ، ويكفوا عن كل صناعة أو ممارسة لنشاط (١) ، وإذا عطس فلا يسوغ لأحد
من رعاياه أن يدعو له ، وإذا دعا أن يؤمن عليه ، لأنه فوق مستوى البشر ، وإذا زار
أحدًا من وزرائه أو أمرائه في بيته كان يوماً مشهوداً خالداً ، يؤرخ به في رسائله ،
ويصبح تقويماً جديداً ، ويعفى من الضريبة إلى مدة معينة ، ويتمتع باستثناءات أو
مسامحات وتكريمات ، لأن الملك شرفه بالزيارة (٢) .

هذا فضلاً عن الآداب الكثيرة التي يتقيد بها رجال البلاط ، وأركان الدولة ،
وأفراد الشعب ، ويحافظون عليها محافظة دقيقة من الوقوف بحضرته ، والتكفير
له (٣) ، وقيام كقيام العباد أمام الرب في الصلوات ، وهو تصوير حال كانت عليه

(١) إيران في عهد الساسانيين : ٥٣٥-٥٣٦ .

(٢) المرجع السابق : ٥٤٣ .

(٣) كفر له : خضع ، بأن يضع يده على صدره ، ويطأ رأسه ويتطامن تعظيماً ، وكانت عادة متبعة في
إيران ، ومن هنا شاع هذا التعبير ، ودخل في لغة العرب ، جاء في لسان العرب (كفر) : والكفر : تعظيم
الفارسي للملكه : والتكفير لأهل الكتاب : أن يطأ رأسه لصاحبه ، كالتسليم عندنا ، وقال
في شرح قول جرير :

وإذا سمعت بحرب قيس بعدها فضعوا السلاح وكفروا تكفيرا =

إيران الساسانية في عهد أفضل ملوكها بالإطلاق ، وهو كسرى الأول المعروف بأنوشروان العادل (٥٣١ - ٥٧٩) فكيف في عهد الملوك الذين اشتهروا في التاريخ بالظلم والعسف والجبروت ؟ !

وقد كانت حرية إبداء الرأي والملاحظة فضلاً عن النقد مفقودة تقريباً في المملكة الإيرانية الواسعة ، وقد حكى الطبري حكاية طريفة عن عهد أفضل ملوكها وأعدلهم « كسرى أنوشروان العادل » تدل كل الدلالة على مدى ما وصل إليه الحكم الإيراني من الاستبداد والحظر على إبداء الرأي الحر ، والتعليق الجريء ، في البلاط الإيراني ، يقول :

أمر الملك قباد بن فيروز في آخر ملكه بمسح الأرض سهلها وجبلها ، ليضع الخراج عليها ، فمسحت ، غير أن قباد هلك قبل أن يستحكم له أمر تلك المساحة ، حتى إذا ملك ابنه كسرى أمر باستتمامها وإحصاء النخل والزيتون والجماجم ، ثم أمر كتابه فاستخرجوا جعل ذلك ، وأذن للناس إذناً عاماً ، وأمر كاتب خواجه أن يقرأ عليه الجعل التي استخرجت من أصناف غلات الأرض وعدد النخيل والزيتون والجماجم ، فقرأ ذلك عليهم ، ثم قال لهم كسرى : إنا قد رأينا أن نضع على ما أحصي من جريان هذه المساحة من النخل والزيتون والجماجم وصنائع ، ونأمر بإنجامها في السنة في ثلاثة أنجم ، ونجمع في بيوت أموالنا من الأموال ، ما لو أتانا من ثغر من ثغورنا أو طرف من أطرافنا فتق أو شيء نكرهه ، واحتجنا إلى تداركه أو حسمه ، ببذلنا فيه ما لا كانت الأموال عندنا معدة موجودة ، ولم نرد استئناف اجتباؤها على تلك الحال ، فما ترون فيما رأينا من ذلك ، وأجمعنا عليه ؟ فلم يشر عليه أحد منهم بمشورة ، ولم ينبس بكلمة ، فكرر كسرى هذا القول

= يقول : ضعوا سلاحكم فلستم قادرين علي حرب قيس ، لعجزكم عن قتالهم ، فكفروا لهم كما يكفر العبد لمولاه ، وكما يكفر العليج للدهقان ، يضع يده على صدره ، ويتطامن له ، واخضعوا وانقادوا .

عليهم ثلاث مرات ، فقام رجل من عرضهم وقال لكسرى : أتضع أيها الملك -
عمرك الله - الخالد من هذا الخراج على الفاني من كرم يموت ، وزرع يهيج ، ونهر
يفور ، وعين أوقنا ينقطع ماؤها؟

فقال له كسرى : يا ذا الكلفة المشئوم ! من أي طبقات الناس أنت؟ قال : أنا
رجل من الكتاب ، فقال كسرى : اضربوه بالدوي حتى يموت ، فضربه بها
الكتاب خاصة ، تبرؤاً منهم إلى كسرى من رأيه وما جاء منه ، حتى قتلوه ، وقال
الناس : نحن راضون (١) .

ولم يكن الرومان يختلفون عن الإيرانيين كثيراً ، وإن لم يبلغوا شأوهم في
الرقاحة وامتهان الإنسانية وإهدار كرامتها ، فقد روى المؤرخ الأوروبي :
Victor Chopard في كتابه «العالم الروماني» ما ترجمته :

كانت القياصرة آلهة ، ولم يكن ذلك عن طريق الوراثة ، بل كان كل من
تملك زمام البلاد كان إلهاً ، وإن لم تكن هناك أمانة تدل على وصوله إلى هذه
الدرجة ، ولم يكن لقب «أغسطس» الملوكي المفخم ينتقل من إمبراطور إلى
إمبراطور بموجب دستور أو قانون ، ولكن لم يكن من شغل مجلس الشيوخ
الروماني إلا أن يؤكد صحة كل حكم يصدر بحكم السيف ، ولم تكن هذه
الإمبراطورية إلا صورة لدكتاتورية عسكرية (٢) .

ولم يكن السجود للملوك نادراً ، فقد حكى أبو سفيان بن حرب في القصة
التي رواها هرقل قيصر الروم حين بلغه كتاب رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام ،
وفي آخره :

(١) تاريخ الطبري : ٢ : ١٢١-١٢٢ ، وانظر : إيران في عهد الساسانيين .

(٢) The Roman world, (London. 1928) P.418 .

[فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الإيمان قال : ردوهم عليّ ، وقال : إني قلت مقالتي أنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل] (١) .

أما الهند فقد بلغ فيها إهدار كرامة الإنسان وازدراء الطبقات التي اعتبرها الشعب الآري المحتل للبلاد ، والقانون المدني الذي وضعه مشرعوه مخلوقاً خسيساً ، لا يتميز عن الحيوان الداجن إلا بأنه يمشي على اثنتين ، ويحمل صورة الآدمي ، وإن كانوا سكان البلاد الأضليين ، مبلغاً يصعب تصوره ، فقد نص هذا القانون على أنه :

إذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصا ، ليطش به ، قطعت يده ، وإذا رفسه في غضب فدعت رجله (٢) ، وإذا ادعى أنه يعلمه سقي زيتاً فائراً (٣) ، وكفارة قتل الكلب ، والقطة ، والضفدع ، والوزغ ، والغراب ، والبومة ، ورجل من الطبقة المنبوذة سواء (٤) .

إذا قورن هذا بما اعتاده العرب من الحرية ، وعزة النفس ، والاقتصاد في التعظيم والأدب قبل ظهور الإسلام ، ظهر فرق هائل بين طبيعة الأمتين ، ووضع المجتمعين : العجمي ، والعربي ، فكانوا يخاطبون ملوكهم بقولهم : «أبيت اللعن» و «عم صباحا» ، وقد بلغت هذه الحرية وبلغ ذلك الاحتفاظ بالكرامة بالعرب إلى أنهم كانوا يمتنعون في بعض الأحيان عن الخضوع لمطالب بعض الملوك والأمراء (٥) .

(١) انظر : البخاري : ١ - بدء الوحي (٧) .

(٢) «منوشاستر» الباب العاشر .

(٣) المرجع السابق .

(٤) D.C.DUTT ANCIENTINDIA,P.324 343 ,

(٥) انظر : كتاب «الشعر والشعراء» لابن قتيبة : ٣٦ .

ولما دخل المغيرة بن شعبة رسول المسلمين على رستم ، وهو في أبيهته
وسلطانه ، جلس معه - على عادة العرب - على سريريه ووسادته ، فوثبوا عليه ،
وأنزلوه ، فقال :

كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفه منكم ، إنا معشر العرب
سواء ، لا يستعبد بعضنا بعضاً ، إلا أن يكون محارباً لصاحبه ، فظننت أنكم
تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن
بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ،
ولكن دعوتكموني (١) .

ومن ثم كانت الجزيرة العربية مهد النبوات - كما أسلفنا - ، وكانت مهجر
المضطهدين الذين حل بهم الأذى ، ونزل سوء العذاب !

ومعلوم أن الرسالة أمرها هائل خطير ، أمر كوني تتصل فيه الإرادة
الأزلية الأبدية بحركة عبد مصطفى ، ويتصل فيه الملائ الأعلى بعالم الإنسان
المحدود ، وتتصل فيه السماء بالأرض ، والدنيا بالآخرة ، ويتمثل فيه الحق الكلي ،
في قلب البشر ، وفي واقع الحياة .

والله عز وجل هو وحده الذي يختار مكان الرسالة ، والذين يحملون
الرسالة ، والذين ينزل عليهم الوحي :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ .

(آية ١٢٤ سورة الأنعام)

وقد اختار أرض العرب ، لأن فيها العرب ، والمثلات ، والآثار التي تدعو
إلى الاعتبار .

(١) الطبري : ٤ : ١٠٨ .

وإن كانت في العرب عيوب ، فإن الجزيرة لم يجر فيها الذل الذي يفرضه الملوك الذين يفسدون النفوس ، ويجعلون أعزة أهلها أذلة ، كما قال القرآن حكاية عن بلقيس :

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٤) .

(آية ٣٤ سورة النمل)

ومن ثم كانت نفوس أولئك الذين لم يعيشوا تحت حكم الملوك في جاهليتهم ، هي التي حملت رسالة العزة والكرامة إلى بقاع الأرض ، وإذا كانوا هكذا فإنهم قد قوّضوا عروش هؤلاء الملوك ، لأنهم أعداء التحكم الفردي ، ومن ثم قوّضوا قصورهم ، بعد أن أشربوا حب الدين القيم ، وحملوا لواءه شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً .

ولو كان لنا اختيار في قوم آخرين ، وأرض أخرى ، لأعيانا الاختيار ، لأن هؤلاء العرب أهل عزة وكرامة ، ولأن أرض العرب لا ذلة فيها ، وهي أرض الحرية ، وأرض الشجاعة ، ولا يحمل دين العزة والإقدام ، والعمل الصالح إلا الأحرار الذين يتأبّون الدنية ، ويتسابقون في البذل ، ويتحملون الشدائد ، وليس ذلك إلا في العرب ، وأرض العرب ، ولذلك ما إن انطلقوا بالإسلام رأيناهم يهدون إليه في غير مواناة ، ولا فرار ، ولا يأس !

تري ، لو تصورنا أرضاً للنبوّة في غير أرض العرب ، أتكون أرض القياصرة ، حيث تطامن العامة لحكم قيصر ، وديّثوا له بالصغار نفوسهم ، حتى حسبه من طينة غير طينتهم ، وحيث يختلفون في كل شيء ، وحيث لا يحكم بينهم إلا الهوى ، وحيث العنصرية الجاثمة على الرؤوس ، وحيث رق النفوس لهوى الحكام ، والخروج على كل منطق للمساواة الإنسانية !

وإذا لم يكن الرومان ، أفتكون أرض الفرس أرض النبوة ، وكسرى قد فرض عليهم المذلة والهوان ، وتوزعتهم سيادة الأشراف ، حتى إذا بعدوا عن ذل كسرى ، وجدوا ذل الحاشية ، ووجدوا أنفسهم يتنقلون في الذل والهوان ، وقد لانت نفوسهم ، وخنعوا وهانوا أمام الملوك ، وهل هؤلاء في ذلتهم هم الذين يحملون دعوة الإسلام إلى العزة؟ !

وهل هؤلاء في رفقهم النفسي هم الذين يدعون إلى الكرامة الإنسانية التي سجلها القرآن في قوله تعالت حكمته؟ :

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٠) .

(آية ٧٠ سورة الإسراء)

لا يمكن أن تكون دعوة الحق ممن تمرسوا بالظلم ، حتى أمات نخوتهم ، أو ممن ألفوا الذلة والخضوع ، والهوان والخنوع ، حتى لا يستطيعوا الابتعاد عنه ، والخروج منه ، ولا ممن قنعوا بالحياة الدون ، ورضوا بالهوان !

ولو تركنا الشرق الأدنى إلى الهند لوجدنا الطبقات قد قتلت النخوة ، ودفعت شعبها إلى الاستسلام للذل !

وهكذا . . شأن الناس ، وشأن الأرض في كل القارات !

وعليه فليس لدعوة الحق والعزة والحرية إلا العرب !

ومع هذا فالوثنية العربية تزين باطلها بطلاء من الحق^(١) ، ليسهل على النفوس ازدراد ما فيها من مرارة ، حيث تزعم الإيمان بإله خلق السموات

(١) فقه السيرة : الغزالي : ٨١ بتصرف .

والأرض ، وفي الوقت نفسه تشرك معه آلهة أخرى ، هي مزدلف إليه ووسيلة ، ولما كان خلق السموات والأرض بعيداً عن مرأى الأعين ، فقد أنس العباد المشركون بالآلهة المزعومة القريبة من أيديهم ، والتي يترددون عليها صباحاً ومساءً ، حتى صارت صلتهم بها هي الصلة الوثيقة ، وأصبح ذكر هذا الإله المتوسل إليه بغيره لا يرد إلا في معرض الجدال والاعتذار :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٦١) .

(آية ٦١ سورة العنكبوت)

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ .

(آية ٣ سورة الزمر)

غير أن هذا التعصب لهذا السخف جاوز الحدود ، فأما العامة فهم بهم ، أحلاس ما توارثوا ، ما داموا قد فقدوا نعمة العقل المدرك ، وعاشوا يهرفون بما لا يعرفون .

وأما الذين أوتوا حظاً من التفكير ، فإن تفكيرهم يرتطم بحدود شهواتهم ، وربما كتموا ما عرفوا ، بل ربما حاربوا ما عرفوا .

وقليل من الناس من يتجرأ على التقاليد المستحكمة ، ويجهر بالحق ! وقد وجد قبل البعثة من نظر إلى وثنية العرب نظرة استهزاء ، وعرف أن قومه يلتقون على أباطيل مفتراة ، ولكنه لم يجد الطريق أو الطاقة على كفهم .

يروى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

[أن النبي ﷺ لقيَ زيدَ بن عمرو بن نُفَيلَ بأسفل بلدح ، قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي ، فقدُمتُ إلى النبي ﷺ سُفرةً ، فأبى أن يأكل منها .

ثم قال زيد : إني لست أكل مما تذبحون على أصنامكم ، ولا أكل إلا بما ذكر اسمُ الله عليه ، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ، ويقول :

الشاة خلقها الله ، وأنزل لها من السماء الماء ، وأنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله ؟ إنكاراً لذلك وإعظاماً له !

قال موسى : حدثني سالم بن عبد الله - ولا أعلمه إلا تحدث به عن ابن عمر - أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام ، يسأل عن الدين ويتبعه ، فلقيَ عالماً من اليهود ، فسأله عن دينهم ، فقال :

إنني لعلِّي أن أدين دينكم ، فأخبرني . فقال :

لا تكونُ على ديننا ، حتى تأخذَ بنصيبك من غضب الله !

قال زيد : ما أفرُّ إلا من غضب الله ، ولا أحملُ من غضب الله شيئاً أبداً ، وأنى أستطيعه ؟ فهل تدلني على غيره ؟ قال :

ما أعلمه إلا حنيفاً .

قال زيد : وما الحنيف ؟

قال : دينُ إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولا يعبد إلا الله !

فخرج زيدٌ ، فلقيَ عالماً من النصاري ، فذكر مثله ، فقال : لن تكون على ديننا ، حتى تأخذَ بنصيبك من لعنة الله !

قال : ما أفرُّ إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنه ولا من غضبه شيئاً أبداً ،

وأنى أستطيع؟ فهل تدلّني على غيره؟ قال :
ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً .

قال : وما الحنيف ؟

قال : دين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولا يعبد إلا الله !
فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج ، فلما برز رفع
يديه فقال :

اللهم ! إني أشهد أني على دين إبراهيم .

وقال الليث : كتب إلى هشام عن أبيه ، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله
عنهما قالت :

رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول :

يا معشر قريش ، والله ! ما منكم على دين إبراهيم غيري ، وكان يُحيي
الموءودة ، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها ، أنا أكفيك مؤنتها ،
فياخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتك
مؤنتها [(١)] .

وزيد بن عمرو بن نفيل هو ابن عم عمر بن الخطاب بن نفيل ، ووالد
سعيد بن زيد ، أحد العشرة ، وكان ممن طلب التوحيد ، وخلع الأوثان ، وجانب
الشرك ، لكنه مات قبل المبعث (٢) .

(١) البخاري : ٦٣ - مناقب الأنصار (٣٨٢٦ - ٣٨٢٨) .

(٢) انظر : فتح الباري : ٧ : ١٤٣ .

وهذا يبين مقدار الحيرة التي سادت الدنيا (١) ، وغطت بضبابها الكثيف على الرسالات الظاهرة !

اليهود يشعرون بأنهم مطاردون في الأرض ، منبوذون من أقطارها ، فعلى الداخل في دينهم أن يحمل وزراً من المقت المكتوب عليهم !

والنصارى وقع بينهم شقاق رهيب رعب في طبيعة المسيح ووضعه ، ووضع أمه ، مع الإله الكبير - كما يزعمون - وقد أثار هذا الخلاف بينهم الحروب المهلكة ، وقسمهم فرقاً يلعن بعضهم بعضاً !

وكان نصارى الشام الذين سألهم زيد «يعاقبة» يخالفون المذهب الرسمي لكنيسة الرومان ، فلا غرابة إذا أشعروا زيدا بما يقع عليه من عذاب لو دخل في عقيدتهم ، أو لعل هذه اللعنة المرهوبة هي تبعات الخطيئة التي اقترفها آدم واستحقها من بعده بنوه كما يدعي ذلك النصارى ، وهم يبررون صلب المسيح !

ومن حق زيد أن يدع هؤلاء وأولئك ، ويرجع إلى دين إبراهيم عليه السلام ، يبحث عن أصوله وفروعه !

وإن زيدا أحد المفكرين القلائل ، الذين سخطوا ما عليه الجاهلية من نكر ، وإنه ليشكر على تحريره الحق ، ولا يغطط هو ولا غيره المكان اللائق بين قومهم . .

ومن شعره في التوحيد ، ما حكاه محمد بن إسحاق والزبير بن بكار وغيرهما (٢) :

(١) فقه السيرة : الغزالي : ٨٣ بتصرف .

(٢) السيرة النبوية : ابن كثير : ١ : ١٦٢ وما بعدها .

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ
دَحَاهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّهَا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ
إِذَا هِيَ سَيَقَتْ إِلَى بَلَدَةٍ
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ

وروى ابن إسحاق أيضاً :

أَرَبَاءً وَاحِدًا أَمِ الْفَرَبُ
عَزَلْتُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى جَمِيعًا
فَلَا الْعُزَّى أَدِينُ وَلَا ابْنَتَيْهَا
وَلَا هُبْلَا (١) أَدِينُ وَكَانَ رَبًّا
عَجَبْتُ وَفِي اللَّيَالِي مَعْجَبَاتٍ
بَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْنَى رَجَالًا
وَأَبْقَى آخِرِينَ بَبَرِ قَوْمٍ
وَبَيْنَا الْمَرْءُ يَعْثُرُ ثَابَ يَوْمًا
وَلَكِنْ أَعْبَدُ الرَّحْمَنَ رَبِّي
فَتَقَوَّى اللَّهُ رِبْكَمَ أَحْفَظُوهَا
تَرَى الْأَبْرَارَ دَارَهُمْ جَنَّاتٍ
وَخَزِي فِي الْحَيَاةِ وَإِنْ يَمُوتُوا

لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثَقِيلًا
سَوَاءً وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَا
لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زَلَالَا
أَطَاعَتْ فَصَبَّتْ عَلَيْهَا سَجَالَا
لَهُ الرِّيحُ تَصْرِفُ حَالًا فَحَالَا

أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمْتَ الْأُمُورَ
كَذَلِكَ يَفْعَلُ الْجَلْدُ الصُّبُورَ
وَلَا صَنَّمِي بَنِي عَمْرٍو أَزُورَ
لَنَا فِي الدَّهْرِ إِذْ حُلْمِي يَسِيرُ
وَفِي الْأَيَّامِ يَعْرِفُهَا الْبَصِيرُ
كَثِيرًا كَانَ شَأْنُهُمُ الْفُجُورُ
فَيُرْبِلُ مِنْهُمْ الطِّفْلُ الصَّغِيرُ
كَمَا يَتَرَوَّحُ الْغُصْنُ النَّضِيرُ
لِيَغْفِرَ ذَنْبِي الرَّبُّ الْغَفُورُ
مَتَى مَا تَحْفَظُوهَا لَا تَبُورُوا
وَلِلْكَفَّارِ حَامِيَةٌ سَعِيرُ
يَلْقَاوَمَا تَضِيقُ بِهِ الصُّدُورُ

(١) الروض الأثف : ١ : ٢٥٧ وفي المرجع السابق : (ولا غنما) .

وقالت أسماء بنت أبي بكر : قال ورقة بن نوفل لزيد بن عمرو :

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما	تجنببت تنوراً من النار حاميا
بدينك رباً ليس رب كمثله	وتركك جئان الخبال كما هيا
تقول إذا جاورت أرضاً مخوفة	حنانيك لا تظهر عليّ الأعاديا
حنانيك إن الجن كانت رجاء هم	وأنت إلهي ربنا ورجائيا
أدين لرب يستجيب لخلقه	وليس لمن لا يسمع الدهر داعيا
أقول إذا صليت في كل بيعة	تباركت قد أكثرتُ باسمك داعيا ^(١)

والقدر كان يتخير رجلاً يبصر الحق ، ويملك من الطاقة ما يدفع إلى آفاق
العالمين ، في وجه مقاومة تسترخص النفس والنفيس للإبقاء على الضلال ،
والإمساك ببليله البارد الثقيل !

وإذا كان هذا الإلحاد المغرق الطامس - كما أسلفنا - قد غزا النفوس بالقلق
البالغ ، فإلى أين تصير القلة الحائرة؟

وإلى أين يمكن أن يصير عدد هؤلاء الذين سخطوا ما عليه الجاهلية من نكر؟
وإلى أي مدى يكون تأثيرهم؟

أما من بصيص نور خلال هذا الظلام المخيم؟

لقد كان القدر يعد لهذه الرسالة الضخمة خير خلق الله ، وخاتم رسله ﷺ
ليواجه الإلحاد الذي شاع وذاع !

(١) انظر : دلائل النبوة للأصبهاني : ٢ : ٦٩٣-٦٩٧ تحقيق مساعد بن سليمان الراشد الحميد ، دار
العاصمة ، السعودية ، ط . أولى ١٤١٢ هـ ، وهو حسن ، وانظر : الطبراني في المعجم الكبير : ٢٤ :
٨٢ (٢١٦) ، والمجمع : ٩ : ٤١٨ ، وتغليق التعليق : ٤ : ٨٣-٨٤ .

وحدة اللغة :

ويأتي الحديث عن وحدة اللغة ، حيث كانت هذه الجزيرة ، التي تكاد تكون شبه قارة ، خليقة أن تتعدد فيها اللغات^(١) ، وتتنوع ، لبعد المسافة بين مواطن القبائل وبين جنوبي الجزيرة وشمالها ، وقلة اتصال أهل الجنوب بأهل الشمال ، وأهل الشرق بأهل الغرب ، وبحكم العصبية القبلية والسلالية السائدة عليهم ، وتأثر القبائل المتاخمة للروم والفرس بلغاتهم ، وقد كثر عدد اللغات في أوروبا الوسطى ، وفي شبه القارة الهندية ، كثرة هائلة ، ولا يزال عدد اللغات المعترف بها في دستور الهند يبلغ « ١٥ » لغة إقليمية ، تختلف فيما بينها اختلاف لغات مستقلة ، قائمة بذاتها ، حتى يحتاج أبنائها للتفاهم إلى ترجمات ، أو لغة أجنبية كالإنجليزية .

بيد أن الجزيرة العربية قد امتازت على سعتها ، وترامي أطرافها ، وتشنت قبائلها ، بوحدة اللغة ، التي كانت ولا تزال أداة تفاهم والتقاء لجميع أبناء هذه الجزيرة ، حضرهم ويدوهم ، والقحطاني منهم والعدناني ، وهي اللغة العربية على اختلاف لهجاتها وفروقاتها الإقليمية التي تقتضيها طبيعة اللغات وفلسفتها ، وطبيعة الأقاليم والأجواء ، وطبيعة الانعزال والانطواء ، فاللغات تختلف في لهجاتها بمسافات ، قد تطول وقد تقصر ، وكانت هذه الوحدة اللغوية التي امتازت بها هذه الجزيرة من أهم أسباب تيسير مهمة الدعوة الإسلامية ، وسرعة انتشار الإسلام فيها ، ومخاطبة الوحدات العربية المنتشرة ، في لغة واحدة هي اللغة العربية الفصحى ، وبكتاب واحد هو القرآن العربي المبين !

(١) السيرة النبوية : الندوي : ٧٣ بتصرف .

حرم الإسلام :

وأخيراً وليس آخراً : نبصر الأرض المباركة التي قَدَّرَ الله عز وجل أن تكون حرم الإسلام ، ومعلمه الأول ، وداره الأولى - كما أسلفنا - ، ونبصر أن الشيطان قد أيس أن يعبدَه المسلمون في الجزيرة العربية ، ونحن نقرأ ما رواه مسلم وغيره عن جابر قال : سمعتُ النبي ﷺ يقول :

« إن الشيطان قد أيس أن يعبدَه المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم » (١) .

وهي وقف في الإسلام على أهل الإسلام ، يروي مسلم وغيره عن عمر ابن الخطاب ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، حتى لا أدع إلا مسلماً » (٢) .

والدين القيم حين يضطهد خارج الجزيرة ينحاز إليها ، يروي مسلم عن عبد الله بن عمر ، عن النبي ﷺ قال :

« إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، وهو يارز بين المسجدين ، كما تارز الحية في جحرها » (٣) .



(١) مسلم : ٥٠ - صفات المنافقين (٢٨١٢) ، والترمذي (١٩٣٧) ، وأحمد : ٣ : ٣١٣ ، ٣٥٤ ، وأبو يعلى (٢٢٩٤) ، والبغوي في شرح السنة : ١٣ : ١٠٣ (٣٥٢٥) .

(٢) مسلم : ٣٢ - الجهاد (١٧٦٧) ، وأبو داود (٣٠٣٠) ، والترمذي (١٦٠٦) .

(٣) مسلم : ١ - الإيمان (١٤٦) .

الفصل الثاني

وسطية الأمة الإسلامية

- مفهوم الوسطية.
- مزايا الوسطية وفوائدها.
- الوسطية تعني العدل.
- الوسطية تعني الاستقامة.
- الوسطية دليل الخيرية.
- الوسطية تمثل الأمان.
- الوسطية دليل القوة.
- الوسطية مركز الوحدة.
- مظاهر الوسطية في الإسلام.
- وسطية الإسلام في الاعتقاد.
- وسطية الإسلام في العبادات والشعائر.
- وسطية الإسلام في الأخلاق.
- الأمة الوسط في التفكير والشعور.
- الأمة الوسط في الزمان.
- الأمة الوسط في المكان.
- حكمة اختيار القبلة التي كانوا عليها.
- الكعبة قبلة المسلمين.

الفصل الثاني

وسطية الأمة الإسلامية

مفهوم الوسطية :

من خصائص الدين القيم أنه دين الوسطية ، سواء من الوساطة ، بمعنى الحسن والفضل ، أو من الوسط بكل معانيه - كما سيأتي - ، قال جل شأنه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبِهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤٣) .

(آية ١٤٣ سورة البقرة)

والوسط في الأصل : اسم للمكان الذي يستوي إليه المساحة من الجوانب في المدور ، ومن الطرفين في المطول ، كمركز الدائرة ، ولسان الميزان من العمود ، ثم استعير للخصال الحمودة ، لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط .

وإذا فرضنا خطوطاً كثيرة واصله بين نقطتين متقابلتين ، فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع في وسط تلك الخطوط المنحنية ، ومن ضرورة كونه وسطاً بين الطرق الجائرة أن تكون المهدية إليه وسطاً بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائفة (١) !

(١) الكليات : ٩٣٨ ، وتفسير أبي السعود : ١ : ١٣٣ .

ومعلوم أن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط^(١) ، والنقص عنه تفريط وتقصير ، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة ، فهو شر ومذموم ، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر ، أي المتوسط بينهما .

بيد أنه يقال : لم اختير لفظ الوسط على لفظ الخيار ، مع أن هذا هو المقصود ، والأول إنما يدل عليه بالالتزام؟

والجواب من وجهين :

أحدهما : أن وجه الاختيار هو التمهيد للتعليل الآتي ، فإن الشاهد على الشيء لا بد أن يكون عارفاً به ، ومن ثم كان متوسطاً بين شيئين ، فإنه يرى أحدهما من جانب ، وثانيهما من الجانب الآخر ، وأما من كان في أحد الطرفين فلا يعرف حقيقة الطرف الآخر ، ولا حال الوسط أيضاً .

وثانيهما : أن في لفظ الوسط إشعاراً بالسببية ، فكأنه دليل على نفسه ، أي أن المسلمين خيار وعدول ، لأنهم وسط ، وليسوا من أرباب الغلو في الدين المفرطين ، ولا من أرباب التعطيل المفرطين ، فهم كذلك في العقائد والأخلاق والأعمال .

ووسطية الأمة الإسلامية مستمدة من وسطية منهجها ونظامها^(٢) ، فهو منهج وسط ، لأمة وسط ، منهج الاعتدال والتوازن الذي سلم من الإفراط والتفريط ، أو من الغلو والتقصير

(١) تفسير المنار ٢ : ٤ بتصرف .

(٢) الخصائص العامة للإسلام : دكتور يوسف القرضاوي ١٢٢ وما بعدها بتصرف ، وفي ظلال القرآن : ١٥٣ وما بعدها ، وتفسير الطبري ٢ : ٦ ، والقرطبي ٢ : ١٥٣ ، وابن كثير ١ : ١٩٠ ، والشوكاني ١ : ٢١٥ ، وابن الجوزي ١ : ١٥٤ ، والماوردي ١ : ١٦٤ ، والاكوسي ١ : ٤٠٣ ، والفخر الرازي ٢ : ٩٦ ، وابن عطية ٢ : ٣ ، والزمخشري ١ : ٩٩ ، والمنار ٢ : ٥ وما بعدها .

مزايا الوسطية وفوائدها:

ولقد كان من حكمة الله تعالى أن اختار الوسطية أو التوازن شعاراً مميزاً لهذه الأمة التي هي آخر الأمم ، ولهذه الرسالة التي ختم بها الرسالات الإلهية ، وبعث بها خاتم أنبيائه رسولاً للناس جميعاً ، ورحمة للعالمين .

الوسطية تعني العدل :

ومن معاني الوسطية التي وصفت بها الأمة في الآية الكريمة التي معنا ، ورتبت عليها شهادتها على البشرية كلها : العدل ، الذي هو ضرورة لقبول شهادة للشاهد ، فما لم يكن عدلاً ، فإن شهادته مردودة مرفوضة ، أما الشاهد العدل ، والحاكم العدل ، فهو المرضي بين كافة الناس !

وقد روى البخاري وغيره عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ :

«يجيء نوح وأمه ، فيقول الله تعالى : هل بلغت؟ فيقول : نعم ، أي رب ، فيقول لأمه : هل بلغتكم؟ فيقولون : لا ، ما جاءنا من نبي ، فيقول لنوح : مَنْ يشهد لك؟ فيقول : محمد ﷺ وأمه ، فتشهد أنه قد بلغ ، وهو قوله جل ذكره :

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾

والوسط : العدل .

زاد أحمد في رواية قال : «ثم أشهد عليكم» (١) .

(١) البخاري : ٦٠ - الأنبياء (٣٣٣٩) ، وأيضاً (٤٤٨٧ ، ٧٣٤٩) ، وأحمد : ٣ : ٩ ، ٣٢ ، ٥٨ ، والترمذي (٢٩٦١) ، والنسائي في الكبرى كما في التحفة : ٣ : ٣٤٦ ، وابن ماجه (٨٢٨٤) ، وأبو يعلى (١١٧٣) ، والطبري (٢١٦٥ - ٢١٦٧ ، ٢١٧٩ - ٢١٨٠) ، والبيهقي في الأسماء والصفات : ٢١٦ ، وابن حبان : الإحسان (٦٤٧٧ ، ٧٢١٧) .

ومن ثم فالأمة الإسلامية هي الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً ،
فتقيم بينهم العدل والقسط ، وتضع لهم الموازين والقيم ، وتبدي فيهم رأيها ،
فيكون هو الرأي المعتمد ، وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم ،
فتفصل في أمرها ، وتقول :

هذا حق ، وهذا باطل ، لا التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها
وموازينها ، وهي شهيدة على عمل الناس ، وفي مقام الحكم العدل بينهم !

وبينما هي تشهد على الناس هكذا ، فإن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ هو
الذي يشهد عليها ، فيقرر لها موازينها وقيمها ، ويحكم على أعمالها وتقاليدها ،
ويزن ما يصدر عنها ، ويقول فيه الكلمة الأخيرة !

ومن ثم تكون هذه الأمة وسطاً باتباعها للرسول الحبيب المحبوب ﷺ في
سيرته ومنهجه ، وهو القاضي بين الناس فيمن اتبع سنته ، ومن ابتدع لنفسه تقاليد
أخرى ، أو حذا حذو المبتدعين !

فكما تشهد هذه الأمة على الناس بسيرتها وارتقائها الجسدي والروحي
بأنهم قد ضلوا عن القصد يشهد لها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بما وافقت فيه
سنته ، وما كان لها من الأسوة الحسنة فيه ، بأنها استقامت على صراط الهداية
المستقيم ، فكأنه قال : إنما يتحقق لكم وصف الوسط إذا حافظتم على العمل
بهدي الرسول ، واستقمتم على سنته !

الوسطية تعني الاستقامة :

والوسطية تعني : استقامة المنهج ، والبعد عن الميل والانحراف ، فالمنهج
المستقيم ، وبتعبير القرآن الكريم : الصراط المستقيم ، هو الطريق السوي الواقع
وسط الطرق الجائرة عن القصد إلى الجوانب .

ومن هنا علّم هذا الدين القيم المسلم أن يسأل الله الهداية للصراط المستقيم كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة ، هي عدد ركعات الصلوات الخمس المفروضة في اليوم والليلة ، وذلك حين يقرأ فاتحة الكتاب في صلاته فيقول داعياً ربه :

﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧ ﴾ .

(آية ٦- ٧ سورة الفاتحة)

قال ابن كثير : ومعنى ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ممن تقدم وصفهم ونعتهم ، وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسوله ، وامتنال أوامره ، واجتناب نواهيه وزواجره ، غير صراط المغضوب عليهم ، وهم الذين فسدت إرادتهم ، فعلموا الحق وعدلوا عنه ، ولا صراط الضالين ، وهم الذين فقدوا العلم ، فهم هائمون في الضلالة ، لا يهتدون إلى الحق ، وأكد الكلام بـ (لا) ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين ، وهما طريقة اليهود والنصارى (١) .

وروى ابن حبان وغيره (٢) عن عدي بن حاتم : أن النبي ﷺ قال :

«المغضوب عليهم : اليهود ، والضالون : النصارى» .

(١) تفسير ابن كثير ١ : ٢٩ .

(٢) الإحسان (٦٢٤٦ ، ٧٢٠٦) ، وأحمد : ٤ : ٣٧٨-٣٧٩ ، والترمذي (٢٩٥٤) ، والطبري (١٩٤) ، والطبراني في الكبير : ١٧ : ٩٨-٩٩ (٢٣٦) ، والبيهقي في الدلائل : ٥ : ٣٣٩-٣٤١ ، وذكره الهيثمي في المجمع : ٥ : ٣٣٥ ، وقال : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ، غير عباد بن حبيش ، وهو ثقة ، وانظر : فتح الباري : ٨ : ١٥٨ .

وأخرجه ابن مردويه عن أبي ذر ، وأحمد من طريق عبدالله بن شقيق أنه أخبره من سمع النبي ﷺ نحوه ، وقال ابن أبي حاتم : لا أعلم بين المفسرين في ذلك اختلافاً .

وشاهد ذلك قوله تعالى في اليهود :

﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾ .

(آية ٩٠ سورة البقرة)

وفي النصارى :

﴿ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ .

(آية ٧٧ سورة المائدة)

ولاشك أن كلا من اليهود والنصارى يمثلون الإفراط والتفريط في كثير من القضايا . . يطول الحديث في ذكرها !

والإسلام يعلم المسلم أن يحذر من تطرف كلا الفريقين ، وأن يلتزم المنهج الوسط ، أو الصراط المستقيم ، الذي سار عليه كل من رضي الله عنهم ، وأنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين !

الوسطية دليل الخيرية؛

والوسطية دليل الخيرية ، ومظهر الفضل والتميز في الماديات والمعنويات ، ففي الأمور المادية نرى أفضل حبات العقد واسطته ، ونرى رئيس القوم في الوسط والأتباع من حوله . . وفي الأمور المعنوية نجد الوسط دائماً خيراً من التطرف !

ولهذا قال العرب في حكمهم : خير الأمور الوسط !

وقال ابن كثير في الآية التي معنا : الوسط ها هنا : الخيار والأجود . (١)

الوسطية تمثل الأمان :

والوسطية تمثل منطقة الأمان ، والبعد عن الخطر ، فالأطراف عادة تتعرض للخطر والفساد ، بخلاف الوسط ، فهو محمي ومحروس بما حوله ، قال الشاعر :

كانت هي الوسط المحمي فاكتفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفاً
وكذلك شأن النظام الوسط ، والأمة الوسط .

الوسطية دليل القوة :

والوسطية دليل القوة ، فالوسط هو مركز القوة . . ألا ترى الشباب يمثل مرحلة القوة وسطاً بين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة ؟ ! والشمس في وسط النهار أقوى منها في أول النهار وآخره ؟ !

الوسطية مركز الوحدة :

والوسطية تمثل مركز الوحدة ونقطة التلاقي . . فعلى حين تتعدد الأطراف تعدداً قد لا يتناهى ، يبقى الوسط واحداً ، يمكن لكل الأطراف أن تلتقي عنده ، فهو المنتصف ، وهو المركز ، وهذا واضح في الجانب المادي والجانب الفكري والمعنوي على سواء !

(١) تفسير ابن كثير : ١ : ١٩٠ .

ومركز الدائرة في وسطها يمكن لكل الخطوط الآتية من المحيط أن تلتقي عنده !

والفكرة الوسطى يمكن أن تلتقي بها الأفكار المتطرفة في نقطة ما ، هي نقطة التوازن والاعتدال !

كما أن التعدد والاختلاف الفكري يكون حتمياً كلما وجد التطرف ، وتكون حدته وشدته بقدر هذا التطرف في البعد عن التوسط والاعتدال ، فهو طريق الوحدة الفكرية ومركزها ومنبعها ، ولهذا تثير المذاهب والأفكار المتطرفة من الفرقة والخلاف بين أبناء الأمة الواحدة ما لا تثيره المذاهب المعتدلة في العادة !

مظاهر الوسطية في الإسلام:

وإذا كان للوسطية كل هذه المزايا ، فلا عجب أن تتجلى واضحة في كل جوانب الإسلام ، نظرية وعملية ، تربوية وتشريعية !

فالإسلام وسط في الاعتقاد والتصور . . وسط في التعبد والتنسك . . وسط في الأخلاق والآداب . . وسط في التشريع والنظام !

وسطية الإسلام في الاعتقاد :

فهو وسط في الاعتقاد بين الخرافيين الذين يسرفون في الاعتقاد ، فيصدقون بكل شيء ، ويؤمنون بغير برهان ، وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس ، ولا يستمعون لصوت الفطرة ، ولا نداء العقل ، ولا صراخ المعجزة .

فالإسلام يدعو إلى الاعتقاد والإيمان ، ولكن بما قام عليه الدليل القطعي ، والبرهان اليقيني ، وما عدا ذلك يرفضه ويعدّه من الأوهام ، وشعاره دائماً :

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١١١) .

(آية ١١١ سورة البقرة)

وهو وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط ، خائفين صوت الفطرة في صدورهم ، متحدين منطق العقل في رؤوسهم ، وبين الذين يعددون الآلهة ، حتى عبدوا الأبقار ، وألّوها الأوثان والأحجار !

فالإسلام يدعو إلى الإيمان بإله واحد لا شريك له ، لم يلد ولم يُولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وكل من عداه وما عداه مخلوقات لا تملك ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فتأليهها شرك وظلم ، وضلال مبين :

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ (٥) .

(آية ٥ سورة الأحقاف)

وهو وسط بين الذين يعتبرون الكون هو الوجود الحق وحده ، وما عداه - مما لا تراه العين ولا تلمسه اليد - خرافة ووهماً ، وبين الذين يعتبرون الكون وهماً لا حقيقة له ، وسراباً بقية يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

فالإسلام يعتبر وجود الكون حقيقة لا ريب فيها ، ولكنه يعبر من هذه الحقيقة إلى حقيقة أكبر منها ، وهي : مَنْ كَوْنُهُ ونظمه ودبر أمره؟ هو الله تعالى :

﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ .

(آية ١٩٠ - ١٩١ سورة آل عمران)

وهو وسط بين الذين يؤلهون الإنسان ، ويضفون عليه خصائص الربوبية ، ويعتبرونه إله نفسه ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية ، فهو كريشة في مهب الريح ، أو دمية يحرك خيوطها المجتمع ، أو الاقتصاد أو القدر .

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكلف مسؤول ، سيد في الكون ، عبد لله ، قادر على تغيير ما حوله بقدر ما يغير ما بنفسه :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ .

(آية ١١ سورة الرعد)

وهو وسط بين الذين يقدسون الأنبياء حتى رفعوهم إلى مرتبة الألوهية أو البنية للإله ، وبين الذين كذبوهم واتهموهم ، وصبوا عليهم كؤوس العذاب .

فالأنبياء بشر مثلنا ، يأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، وكثير منهم أزواج وذرية ، وكل ما بينهم وبين غيرهم من فرق أن الله منّ عليهم بالوحي ، وأيدهم بالمعجزات :

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾ .

(آية ١١ سورة إبراهيم)

وهو وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده مصدراً لمعرفة حقائق الوجود ، وبين الذين لا يؤمنون إلا بالوحي والإلهام ، ولا يعترفون للعقل بدور في نفي أو إثبات .

فالإسلام يؤمن بالعقل ، ويدعوه للنظر والتفكير ، وينكر عليه الجمود والتقليد ، ويخاطبه بالأوامر والنواهي . . ولكنه يجعل الوحي معيناً فيما تفضل فيه العقول وتختلف ، وما تغلب عليه الأهواء ، وهادياً إلى ما ليس من اختصاصه ولا هو في مقدوره من الغيبات والسمعيات وطرائق التعبد لله تعالى !

وسطية الإسلام في العبادات والشعائر:

والإسلام وسط في عباداته وشعائره بين الأديان والنحل التي ألغت الجانب «الرباني» - جانب العبادة والتنسك والتأله - من فلسفتها وواجباتها ، وبين الأديان والنحل التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والإنتاج .

فالإسلام يكلف المسلم أداء شعائر محددة في اليوم ، كالصلاة ، أو في السنة كالصوم ، أو في العمر مرة كالحج ، ليظل دائماً موصولاً بالله ، غير مقطوع عن رضاه ، ثم يطلقه بعد ذلك ساعياً منتجاً ، يمشي في مناكب الأرض ، ويأكل من رزق الله !

ولعل أوضح دليل نذكره هنا : الآيات الأمرة بصلاة الجمعة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ .

(آية ٩ - ١٠ سورة الجمعة)

فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة ، حتى في يوم الجمعة : بيع وعمل

للدنيا قبل الصلاة ، ثم سعي إلى ذكر الله ، وإلى الصلاة ، وترك البيع والشراء وما أشبهه من مشاغل الحياة ، ثم انتشار في الأرض ، وابتغاء الرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة ، مع عدم الغفلة عن ذكر الله كثيراً في كل حال ، فهو أساس الفلاح والنجاح .

وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي (١) ، التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض ، من عمل وكد ونشاط وكسب ، وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو ، وانقطاع القلب وتجرده للذكر ، وهي ضرورة لحياة القلب ، لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى .

وسطية الإسلام في الأخلاق :

والإسلام وسط في الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكاً أو شبه ملاك (٢) ، فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له ، وبين غلاة الواقعيين الذين حسبوه حيواناً أو كالحيوان ، فأرادوا له من السلوك ما لا يليق به ، فأولئك أحسنوا الظن بالفطرة الإنسانية فاعتبروها خيراً محضاً ، وهؤلاء أساءوا بها الظن فعدوها شراً خالصاً ، وكانت نظرة الإسلام وسطاً بين أولئك وهؤلاء .

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مركب : فيه العقل ، وفيه الشهوة ، فيه غريزة الحيوان ، وروحانية الملاك ، قد هدي النجدين ، وتهياً بفطرته لسلوك السبيلين ، إما شاكراً وإما كفوراً ، فيه استعداد للفجور استعداداً للتقوى ، ومهمته جهاد نفسه ورياضتها حتى تتزكى :

(١) في ظلال القرآن : ٦ : ٣٥٧٠ .

(٢) الخصائص العامة للإسلام : ١٣٠ وما بعدها بتصرف .

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾ .

(آية ٧ - ١٠ سورة الشمس)

وهو كذلك وسط في نظرته إلى حقيقة الإنسان بين النحل والمذاهب التي تقوم على اعتباره روحاً علوياً سجن في جسد أرضي ، ولا يصفو هذا الروح ولا يسمو إلا بتعذيب هذا الجسد وحرمانه ، كالبرهمية وغيرها ، وبين المذاهب المادية التي تعتبر الإنسان جسداً محضاً ، وكياناً مادياً صرفاً ، لا يسكنه روح علوي ، ولا يختص بأي نعمة سماوية .

أما الإنسان في الإسلام فهو كيان روحي ومادي . . ومن ثم فالأمة الإسلامية هي الأمة الوسط في التصور والاعتقاد . . لا تغلو في التجرد الروحي ، ولا في الارتكاس المادي . . إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد ، أو جسد متلبس بروح ، وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد ، وتعمل لترقية الحياة ورفعها ، في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها ، وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع ، بلا تفريط ولا إفراط ، في قصد وتناسق واعتدال !

والإسلام وسط في النظرة إلى الحياة بين الذين أنكروا الآخرة ، واعتبروا هذه الحياة الدنيا هي كل شيء ، هي البداية والنهاية :

﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩)﴾ .

(آية ٢٩ سورة الأنعام)

وبهذا غرقوا في الشهوات ، وعبدوا أنفسهم للماديات ، ولم يعرفوا لهم هدفاً يركضون وراءه غير المنافع الفردية الدنيوية العاجلة ، وهذا شأن الماديين في

كل زمان ومكان ، وعصر ومصر ، وجيل وقبيل ، وبين الذين رفضوا هذا الحياة ،
وألغوا اعتبارها من وجودهم ، واعتبروها شراً يجب مقاومته ، والفرار منه ،
فحرموا على أنفسهم طبياتها وزيتها ، وفرضوا عليها العزلة عن أهلها ، والانقطاع
عن عمارتها والإنتاج لها .

فالإسلام يعتبر الحياتين ، ويجمع بين الحسنين ، ويجعل الدنيا مزرعة
للآخرة ، ويرى العمل في عمارتها عبادة لله ، وأداءً لرسالة الإنسان ، وينكر على
غلاة المتدينين تحريم الزينة والطيبات ، كما ينكر على الآخرين انهماكهم في
الترف والشهوات ، قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ .

(آية ١٢ سورة محمد)

وقال تعالى :

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا
إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ
مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾ .

(آية ٣١-٣٢ سورة الأعراف)

وهنا نبصر أن هذا الدين القيم لا يريد من المؤمنين أن يدعوا أمر الدنيا ،
فهم خلّقوا للخلافة فيها ، ولكنه يريد منهم أن يتجهوا إلى الله في أمرها ،
وأن يضيقوا من آفاقهم ، فيجعلوا من الدنيا سوراً يحصرهم فيها . .

إنه يريد أن يطلق الإنسان من أسوار هذه الأرض الصغيرة ، فيعمل فيها

وهو أكبر منها ، ويزاول الخلافة وهو متصل بالأفق الأعلى . .

ومن ثم تبدو الاهتمامات القاصرة على هذه الأرض ضئيلة هزيلة وحدها ،
حين ينظر إليها الإنسان من قمة التصور الإسلامي .

ويطل الإنسان من تلك القمة العالية فيأخذه العجب من انشغال البشرية
بهذا العبث وذلك العنت ، وتلك الشقوة والضلالة ، وهذا الاضطراب في الفهم
والإدراك . . نبصر كل هذا في جحود هؤلاء وكنودهم ، وهم يطلبون الدنيا
وحدها ، وهم صنف مكرر في الأزمنة والأمكنة !

وهنا نبصر الدعاء الذي تضمن خير الدارين في اعتدال !

ومن ثم لم نجد الصنف الثالث بحسب القسمة العقلية ، وهو الذي يطلب
الآخرة وحدها ، فهذا غير مقبول بحال !

ونبصر الدين القيم يريد أن يطلق الإنسان من أسوار هذه الأرض الصغيرة ،
فيعمل فيها ، وهو أكبر منها ، ويزاول الخلافة ، وهو متصل بالملا الأعلى !

ومن ثم تبدو الاهتمامات القاصرة على ظهر هذه الأرض ضئيلة هزيلة ،
حين ينظر إليها الإنسان من قمته وفق التصور الإسلامي !

نبصر هذا الدعاء في قول الرسول الحبيب ﷺ فيما رواه الشيخان
عن أنس رضي الله عنه قال :

كان أكثر دعاء النبي ﷺ : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا
عذاب النار » (١) .

وما أشد حاجتنا أن نبصر سر التوازن بين المادية والروح في هذا الدين

(١) البخاري : ٨٠ - الدعوات (٦٣٨٩) ، ومسلم : ٤٨ - الذكر (٢٦٩٠) .

القيم ، حتى نتقدم ركب الحياة ، كما كان سلفنا الصالح . . علماً وعملاً . .
فقهاً وسلوكاً . . فكراً وحركة . . تقدماً وريادة . . إمامة وقيادة .

ويطول بنا الحديث لو حاولنا الحديث عن وسطية الإسلام في التشريع (١) .

الأمة الوسط في التفكير والشعور :

والأمة الإسلامية هي الأمة الوسط في التفكير والشعور (٢) . . لا تجمد على ما علمت ، وتغلق منافذ التجربة والمعرفة ، ولا تتبع كل ناعق ، وتقلد تقليد القردة المضحك . . إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول ، ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب ، وشعارها الدائم : الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها ، في تثبت ويقين !

وهي الأمة الوسط في الارتباطات والعلاقات . . لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته ، ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة ، ولا تطلقه كذلك فرداً جشعاً ، لا هم له إلا ذاته . . إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء ، وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه ، ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو ، ومن المنشطات ما يثير رغبة الفرد في خدمة الجماعة ، وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادماً للجماعة ، والجماعة كافلة للفرد في تناسق واتساق !

الأمة الوسط في الزمان :

وهي الأمة الوسط في الزمان . . تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها ،

(١) انظر : الخصائص العامة للإسلام : ١٣٧ وما بعدها .

(٢) في ظلال القرآن : ١ : ١٣١ بتصرف .

وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها . . وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علقَ بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها ، وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى ، وتزواج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات ، ورصيدها العقلي المستمر في النماء ، وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك !

الأمة الوسط في المكان :

وهي الأمة الوسط في المكان^(١) . . في سرة الأرض ، وفي أوسط بقاعها ! وما تزال هذه الأمة التي غمر أرضها الدين القيم إلى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب ، وجنوب وشمال ! وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعاً ، وتشهد على الناس جميعاً ، وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة ، وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك ، وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء !

وهنا نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ .

(آية ٧ سورة الشورى)

وأُم القرى «مكة المكرمة» . . المكرمة بأول بيت وضع في الأرض للعبادة وخصص لها ، وقد اختار الله عز وجل أن تكون «مكة المكرمة» وما حولها موضع هذه الرسالة الخالدة ، وأنزل القرآن الكريم بلغتها العربية لأمر يعلمه جل شأنه ويريده !

(١) انظر : تفسير القرطبي : ٢ : ١٥٣ ، والفخر الرازي : ٤ : ٩٥ .

حكمة اختيار القبلة التي كانوا عليها :

وفي الآية التي معنا نبصر حكمة اختيار القبلة التي كانوا عليها ، بمناسبة تحويلهم عنها (١) ، ونحن نقرأ :

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ .

وهنا تتضح خطة التربية الربانية التي يأخذ الله بها هذه الجماعة الناشئة ، التي يريد لها أن تكون الوارثة للعقيدة ، المستخلفة في الأرض تحت راية العقيدة !

ويريد لها أن تخلص له ، وأن تخلص من كل رواسب الجاهلية ووشائجها ، وأن تتجرد من كل سماتها القديمة ، ومن كل رغابها الدفينة ، وأن تتعري من كل رداء لبسته في الجاهلية ، ومن كل شعار اتخذته ، وأن ينفرد في حسها شعار الإسلام وحده ، لا يتلبس به شعار آخر ، وأن يتوحد المصدر الذي تتلقى منه ، لا يشاركه مصدر آخر !

ولما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به في نفوس العرب فكرة أخرى غير فكرة العقيدة ، وشابت عقيدة جدهم إبراهيم شوائب من الشرك ، ومن عصبية الجنس ، إذ كان البيت يعتبر في ذلك الحين بيت العرب المقدس . . والله عز وجل يريد أن يكون بيت الله المقدس لا يضاف إليه شعار آخر غير شعاره ، ولا يتلبس بسمة أخرى غير سمته !

لما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به هذه السمة الأخرى ، فقد صرف الله المسلمين عنه فترة ، ووجههم إلى بيت المقدس ، ليخلص مشاعرهم من ذلك التلبس القديم أولاً ، ثم ليختبر طاعتهم وتسليمهم للرسول الحبيب

(١) في ظلال القرآن ١ : ١٣٢ وما بعدها بتصرف .

المحبوب ﷺ ثانياً ، ويفرز الذين يتبعونه لأنه رسول الله ، والذين يتبعونه لأنه أبقى على البيت الحرام قبلة ، فاستراحت نفوسهم إلى هذا الإبقاء تحت تأثير شعورهم بجنسهم وقومهم ومقدساتهم القديمة !

إنها لفئة دقيقة شديدة الدقة !

إن العقيدة الإسلامية لا تطبق لها في القلب شريكاً ، ولا تقبل شعاراً غير شعارها المفرد الصريح ، إنها لا تقبل راسباً من روااسب الجاهلية في أية صورة من الصور ، جل أم صغر ، وهذا هو إحياء ذلك النص القرآني :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۖ ﴾ .

والله سبحانه يعلم كل ما يكون قبل أن يكون ، ولكنه يريد أن يظهر المكنون من الناس ، حتى يحاسبهم عليه ، ويأخذهم به ، فهو - لرحمته بهم - لا يحاسبهم على ما يعلمه من أمرهم ، بل على ما يصدر عنهم ، ويقع بالفعل منهم !

ولقد علم الله عز وجل أن الانسلاخ من الرواسب الشعورية ، والتجرد من كل سمة ، وكل شعار له بالنفس علقه . . أمر شاق ، ومحاولة عسيرة . . إلا أن يبلغ الإيمان من القلب مبلغ الاستيطان المطلق ، وإلا أن يعين الله هذا القلب في محاولته فيصله به ، ويهديه إليه :

﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ ﴾ .

فإذا كان الهدى فلا مشقة ولا عسر في أن تخلع النفس عنها تلك الشعارات ، وأن تنفض عنها تلك الرواسب ، وأن تتجرد لله تسمع منه وتطيع ، حيثما وجهها الله تتجه ، وحيثما قادها تقاد !

ثم يطمئن المسلمين على إيمانهم وعلى صلاتهم !

إنهم ليسوا على ضلال ، وإن صلاتهم لم تضع ، فالله سبحانه لا يعنت العباد ، ولا يضيع عليهم عبادتهم التي توجهوا بها إليه ، ولا يشق عليهم في تكليف يجاوز طاقتهم التي يضاعفها الإيمان ويقويها :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

الكعبة قبله المسلمين :

يروى الشيخان وغيرهما عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال :

[كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر - أو سبعة عشر - شهراً ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة ، فأنزل الله :

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ .

فتوجه نحو الكعبة ، وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - :

﴿ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

فصلى مع النبي ﷺ رجل ، ثم خرج بعدما صلى ، فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس ، فقال : هو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ ، وأنه توجه نحو الكعبة ، فتحرف القوم ، حتى توجهوا نحو الكعبة [.

وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

[بينما الناس بقاء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله ﷺ

قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة ، فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام ، فاستداروا إلى الكعبة [(١)] .

وفي رواية للبخاري عن البراء :

[أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده - أو قال أخواله - من الأنصار ، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر ، وصلى معه قومه ، فخرج رجل ممن صلى معه ، فمر على أهل مسجد وهم راكعون ، فقال : أشهد بالله ! لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة ، فداروا - كما هم - قبل البيت ، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس ، وأهل الكتاب ، فلما ولّى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك] .

قال زهير : حدثنا إسحاق عن البراء في حديثه هذا أنه مات على القبلة قبل أن تحوّل رجال وقتلوا ، فلم ندر ما نقول فيهم ، فأنزل الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [(٢)] .

بهذا يسكب في قلوب المسلمين الطمأنينة ، ويذهب عنها القلق ، ويفيض عليها الرضى والثقة واليقين !

بعد ذلك يعلن استجابة الله عز وجل للرسول الحبيب المحبوب ﷺ في أمر القبلة ، ويعلن عن هذه القبلة ، مع تحذير المسلمين من فتنة يهود ، وكشف العوامل

(١) البخاري : ٨ - الصلاة (٣٩٩ ، ٤٠٣ ، ٤٤٨٨ ، ٤٤٩٠ ، ٤٤٩١ ، ٤٤٩٣ ، ٤٤٩٤ ، ٧٢٥١) ،

ومسلم (٥٢٥ ، ٥٢٦) ، وانظر : مجمع الزوائد ٢ : ١٢ ، والرسالة ١٢٥ .

(٢) البخاري : ٢ - الإيمان (٤٠ ، ٣٩٩ ، ٤٤٨٦ ، ٤٤٩٢ ، ٧٢٥٢) ، وانظر : فتح الباري : ١ : ٩٥ - ٩٨ .

الحقيقية الكامنة وراء حملاتهم ودسائسهم . . في صورة تكشف عن مدى الجهد الذي كان يُبذل لإعداد تلك الجماعة المسلمة ، ووقايتها من البلبلة والفتنة :

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٤٤) وَلَيَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيَنَّ الَّذِينَ اتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (١٤٧) وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيُهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٤٨) وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٤٩) وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٥٠) .

(آية ١٤٤ - ١٥٠ سورة البقرة)

وفي مطلع هذه الآيات نجد تعبيراً مصوراً لحالة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ :

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ .

نجد تعبيراً مصوراً لتلك الرغبة القوية في أن يوجهه ربه إلى قبة غير القبلة التي كان عليها ، بعدما كثر لجاح اليهود وحجاجهم ، ووجدوا في اتجاه الجماعة المسلمة لقبلتهم وسيلة للتمويه والتضليل والبلبله والتلبيس . . فكان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ يقلب وجهه في السماء ، ولا يصرح بدعاء ، تأدباً مع ربه ، وتحرّجاً أن يقترح عليه شيئاً ، أو أن يقدم بين يديه شيئاً !

ولقد أجاب ربه إلى ما يرضيه ، والتعبير عن هذه الاستجابة يصور تلك الصلة الرحيمة الحانية الودود :

﴿ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۖ ﴾ .

ثم يُعَيِّنُ له هذه القبلة التي علم الله عز وجل أنه يرضاها :

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ ﴾ .

قبلة له ولأمته . . من معه منها ، ومن يأتي من بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها :

﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۖ ﴾ .

من كل اتجاه ، في أنحاء الأرض جميعاً !

قبلة واحدة تجمع هذه الأمة ، وتوحد بينها على اختلاف مواطنها ، واختلاف مواقعها من هذه القبلة ، واختلاف أجناسها وألستها وألوانها .

قبلة واحدة تتجه إليها الأمة الواحدة في مشارق الأرض ومغاربها ، فتحس أنها جسم واحد ، وكيان واحد ، تتجه إلى هدف واحد ، وتسعى لتحقيق منهج واحد !

منهج ينبثق من كونها تعبد إلهاً واحداً ، وتؤمن بمنهج واحد ، وتتجه إلى
قبلة واحدة !

وهكذا وحد الله هذه الأمة . . على اختلاف المواطن والأجناس والألوان
واللغات ، ولم يجعل وحدتها تقوم على قاعدة من هذه القواعد كلها ، ولكن
تقوم على عقيدتها وقبلتها ، ولو تفرقت في مواطنها وأجناسها وألوانها ولغاتها !
إنها الوحدة التي تليق ببني الإنسان ، الذي يجتمع على عقيدة القلب ،
وقبله العبادة ، إذا تجمع الحيوان على المرعى والكلاً والسياح والحظيرة !
ثم . . ما شأن أهل الكتاب وهذه القبلة الجديدة ؟ :

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ .

إنهم ليعلمون أن المسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس ، وقد رفع قواعده
إبراهيم عليه السلام ، جد هذه الأمة الوارثة ، وإنهم ليعلمون أن الأمر بالتوجه إليه
حق من عند الله لا مرية فيه !

ولكنهم مع هذا يفعلون غير ما يوحيه هذا العلم الذي يعلمونه ، فلا على
المسلمين منهم ، فالله هو الوكيل الكفيل برد مكرهم وكيدهم :

﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

إنهم لن يقتنعوا بدليل ، لأن الذي ينقصهم ليس هو الدليل ، إنما هو
الإخلاص والتجرد من الهوى ، والاستعداد للتسليم بالحق حين يعلمونه :

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ .

فهم في عناد يقوده الهوى ، ويحدوه الغرض . .

وإن كثيرين ليظنون أن الذي يصد أهل الكتاب عن الإسلام أنهم لا يعرفونه ، أو لأنه لم يقدم إليهم في صورة مقنعة ، وهذا وهم !

إنهم لا يريدون الإسلام لأنهم يعرفونه . . ومن ثم يكيدون له ذلك الكيد الناصب الذي لا يفتر ، بشتى الطرق وشتى الوسائل ، عن طريق مباشر وعن طرق أخرى غير مباشرة . . يحاربونه وجهاً لوجه ، ويحاربونه من وراء ستار ، ويحاربونه بأنفسهم ، ويستهوون من أهله من يحاربه لهم تحت أي ستار . . وهم دائماً عند قول الله تعالى للرسول الحبيب المحبوب ﷺ :

﴿ وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ .

وفي مواجهة هذا الإصرار من أهل الكتاب على الإعراض عن قبله الإسلام ومنهجه الذي ترمز هذه القبلة له ، يقرر حقيقة شأن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، وموقفه الثابت الدائم :

﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ ﴾ .

ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلاً ، والجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ في بيان الشأن الثابت الدائم للرسول الحبيب المحبوب ﷺ تجاه هذا الأمر ، وفيه إيحاء قوي للجماعة المسلمة من ورائه ، فلن تختار قبلة غير قبلة رسولها التي اختارها له ربه ورضيها له ليرضيه ، ولن ترفع راية غير رايتها التي تنسبها إلى ربها ، ولن تتبع منهجاً إلا المنهج الإلهي الذي ترمز له هذه القبلة المختارة !

هذا شأنها ما دامت مسلمة !

ويكشف عن حقيقة الموقف بين أهل الكتاب بعضهم وبعض ، فهم ليسوا على وفاق لأن الأهواء تفرقهم :

﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعِ قِبَلَةِ بَعْضٍ﴾ .

والعداء بين اليهود والنصارى ، والعداء بين الفرق اليهودية المختلفة ، والعداء بين الفرق النصرانية المختلفة أشد !

وما كان للرسول الحبيب ﷺ وهذا شأنه وشأن أهل الكتاب ، وقد علم الحق في الأمر ، أن يتبع أهواءهم بعدما جاءه من العلم :

﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

ونقف لحظة أمام هذا الجد الصارم ، في هذا الخطاب الإلهي من الله عز وجل إلى الرسول الحبيب ﷺ الذي حدثه منذ لحظة ذلك الحديث الرقيق الودود !

إن الأمر هنا يتعلق بالاستقامة على هدي الله وتوجيهه ، ويتعلق بقاعدة التميز والتجرد إلا من طاعة الله ونهجه ، ومن ثم يجيء الخطاب فيه بهذا الحزم والجزم ، وبهذه المواجهة وذلك التحذير :

﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

إن الطريق واضح ، والصراط مستقيم . . فإما العلم الذي جاء من عند الله ، وإما الهوى في كل ما عده ، وليس للمسلم أن يتلقى إلا من الله ، وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب ، وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد !

وبعد هذه الوقفة العابرة نعود إلى السياق ، فنجد أنه لا يزال يقرر معرفة أهل الكتاب الجازمة بأن الحق في هذا الشأن وفي غيره هو ما جاء به القرآن الكريم ،

وما أمر به الرسول الحبيب ﷺ ، ولكنهم يكتُمون الحق الذي يعلمونه ،
للهم الذي يضمرونه :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

ومعرفة الناس بأبنائهم هي قمة المعرفة ، وهي مثل يضرب في لغة العرب على اليقين الذي لا شبهة فيه . . فإذا كان أهل الكتاب على يقين من الحق الذي جاء به الرسول الحبيب ﷺ ، ومنه هذا الذي جاء به في شأن القبلة ، وكان فريق منهم يكتُمون الحق الذي يعلمونه علم اليقين . . فليس سبيل المؤمنين إذن أن يتأثروا بما يلقىه أهل الكتاب هؤلاء من أباطيل وأكاذيب ، وليس سبيل المؤمنين أن يأخذوا من هؤلاء الذين يستيقنون الحق ثم يكتُمونه شيئاً في أمر دينهم ، الذي يأتيهم به رسولهم الصادق الأمين !

وهنا يوجه الخطاب إلى الرسول الحبيب ﷺ بعد هذا البيان بشأن
أهل الكتاب :

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ .

ورسول الله ﷺ ما امترى يوماً ولا شك . . ولكن توجيه الخطاب هكذا يحمل إيحاءً قوياً إلى من وراءه من المسلمين . . وما أجدرنا نحن اليوم أن نستمع إلى هذا التحذير ، وكثيرون منا - في بلاهة منقطعة النظير - يأخذون عن المستشرقين من اليهود والنصارى والشيوعيين وغيرهم تاريخنا ، ويسمعون لما يدسونه من شكوك في دراساتهم لقرآننا وسنة نبينا ، وسيرة أوائلنا ، ومن ثم نرى بعثات من طلابنا يتلقون عنهم علوم الإسلام ، ويتخرجون في جامعاتهم ، ثم يعودون إلينا مدخولي العقل والضمير !

إن هذا القرآن كتاب الأمة الخالد الذي يخاطبها فيه ربها بما تعمله وما تحذره ،
وأهل الكتاب هم أهل الكتاب ، والكفار هم الكفار ، والدين القيم هو الدين !

ونبصر السياق يصرف المسلمين عن الاستماع لأهل الكتاب ، والانشغال
بتوجيهاتهم ، ويوحى إليهم بالاستقامة على طريقهم الخاص ، ووجهتهم
الخاصة ، فلكل فريق وجهته ، وليستبق المسلمون إلى الخير ، لا يشغلهم عنه
شاغل ، ومصيرهم جميعاً إلى الله القادر على جمعهم وعلى مجازاتهم في
نهاية المطاف :

﴿ وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيُّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ
اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ .

وبهذا يصرف الله المسلمين عن الانشغال بما يبثه أهل الكتاب من دسائس
وفتن وتأويلات وأقاويل . . يصرفهم إلى العمل والاستباق إلى الخيرات ،
مع تذكر أن مرجعهم إلى الله ، وأن الله على كل شيء قدير ، لا يعجزه أمر ،
ولا يفوته شيء !

إنه الجدل الذي تصغر إلى جواره الأقاويل والأباطيل !

ثم يعود فيؤكد الأمر بالاتجاه إلى القبلة الجديدة المختارة ، مع تنويع التعقيب :

﴿ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ
رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ .

والأمر في هذه المرة يخلو من الحديث عن أهل الكتاب وموقفهم ، ويتضمن
الاتجاه إلى المسجد الحرام ، حيثما خرج الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وحيثما كان ،
مع تأكيد أنه الحق من ربه . . وتوكيد بمناسبة غرض آخر ، وهو إبطال حجة أهل

الكتاب ، وحجة غيرهم ممن كانوا يرون المسلمين يتوجهون إلى قبلة اليهود ، فيميلون إلى الاقتناع بما يذيعه اليهود من أصالة قبلتهم ، ومن ثم منهجهم ، أو من مشركي العرب الذين كانوا يجدون في هذا التوجيه وسيلة لصد العرب الذين يقدسون مسجدهم ، وتنفيرهم من الإسلام الذي يتجه أهله شطر قبلة بني إسرائيل :

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ .

وهو أمر للرسول الحبيب ﷺ أن يولي وجهه شطر المسجد من حيث خرج ، وإلى المسلمين أن يولوا وجوههم شطره حيثما كانوا ، وبيان لعلة هذا التوجيه :

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ .

وتهوين لما بعد ذلك من أقاويل الظالمين الذين لا يقفون عند الحجة والمنطق ، إنما ينساقون مع العناد واللجاج ، فهؤلاء لا سبيل إلى إسكاتهم ، فسيظلون في لجاجهم ، فلا سبيل على المسلمين منهم :

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ .

فلا سلطان لهم عليكم ، ولا يملكون شيئاً من أمركم ، ولا ينبغي أن تحفلوهم فتميلوا عما جاءكم من الله ، فهو وحده الذي يستحق الخشية ! ومع التهوين من شأن الذين ظلموا ، والتحذير من بأس الله ، يجيء التذكير بنعمة الله ، والإطماع في إتمامها على الأمة المسلمة ، حين تستجيب وتستقيم :

﴿وَلَا تَمْنَعْنِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ .

وهو تذكير موح ، وإطماع دافع ، وتلويح بفضل عظيم بعد فضل عظيم !
ولقد كانت النعمة التي يذكرهم بها حاضرة بين أيديهم ، يدركونها في
أنفسهم ، ويدركونها في حياتهم ، ويدركونها في مجتمعهم ، وموقفهم في
الأرض ، ومكانهم في الوجود !

كانوا هم أنفسهم الذين عاشوا في الجاهلية بظلامها ورجسها وجهالتها ، ثم
انتقلوا هم أنفسهم إلى نور الإيمان وطهارته ومعرفته ، فهم يجدون في أنفسهم أثر
النعمة جديداً واضحاً عميقاً !

وكانوا هم أنفسهم الذين عاشوا في الجاهلية قبائل متناحرة ، ذات أهداف
صغيرة ، واهتمامات محدودة ، ثم انتقلوا هم أنفسهم إلى الوحدة تحت راية
العقيدة ، وإلى القوة والمنعة ، وإلى الغايات الرفيعة ، والاهتمامات الكبيرة ، التي
تتعلق بشأن البشرية كلها ، لا بشأن ثأر في قبيلة !

فهم يجدون أثر النعمة من حولهم ، كما وجدوه في أنفسهم !

وكانوا هم أنفسهم الذين عاشوا في الجاهلية في مجتمع هابط دنس ،
مشوش التصورات ، مضطرب القيم . . ثم انتقلوا هم أنفسهم إلى مجتمع
الإسلام النظيف الشريف الرفيع ، الواضح التصور والاعتقاد ، المستقيم القيم
والموازن !

فهم يجدون أثر النعمة في حياتهم العامة ، كما وجدوه في قلوبهم ، وفي
مكانهم من الأمم حولهم !

فإذا قال الله لهم :

﴿وَلَا تُمْنِعْ عَلَيَّكُمْ﴾ .

كان في هذا القول تذكير موح ، وإطماع دافع ، وتلويح بفضل عظيم
بعد فضل عظيم !

ونجد في تكرار الأمر بشأن القبلة الجديدة معنى جديداً في كل مرة . .

في المرة الأولى كان الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام استجابة لرغبة الرسول
الحبيب المحبوب ﷺ بعد تقلب وجهه في السماء ، وضراسته الصامتة إلى ربه !

وفي الثانية كان لإثبات أنه الحق من ربه ، يوافق الرغبة والضراعة !

وفي الثالثة كان لقطع حجة الناس ، والتهوين من شأن من لا يقف عند
الحق والحجة !





الفصل الثالث

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾

- موقع الجزيرة الجغرافي .
- وسطية الإسلام في المكان والشكل والأداء .
- شكر .
- الترجمة .
- خلاصة .
- الخلفية .
- وجهة نظر غير غربية .
- وحدة الإسلام .
- منطقة الحج .
- النمو الحالي والمستقبلي .
- أنماط الارتحال إلى الحج .
- بُعد آخر لتفاعل الحج مع الإسلام .
- ملخص البحث والخاتمة .
- عدد المسلمين عام ١٩٩٦ م .
- تعقيب .
- مركز الدعوة العالمية .

الفصل الثالث

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾

موقع الجزيرة الجغرافي :

وموقع الجزيرة الجغرافي ^(١) يجعلها - كما سيأتي - جديرة بأن تكون مركزاً لدعوة تعم العالم ، وتخاطب الأمم ، فهي مع كونها جزءاً من قارة آسيا تقع بمقربة من قارة إفريقيا ، ثم قارة أوروبا ، وكل منها مركز الحضارات ، والثقافات ، والعقائد ، وتمربها القوافل التجارية التي تصل بين بلاد مختلفة ، وقد تصل بين قارات تحمل من كل بلد ما يستطرف ويتج إلى بلد يفتقر إليه !

وتقع الجزيرة بين قوتين متنافستين : قوة المسيحية وقوة المجوسية ، وقوة الغرب وقوة الشرق ، وقد ظلت رغم ذلك محتفظة بحريتها وشخصيتها ، ولم تخضع لإحدى الدولتين ، إلا في بعض أطرافها ، وفي قليل من قبائلها ، وكانت في خير موقع لتكون مركزاً لدعوة إنسانية عالمية ، تقوم على الصعيد العالمي ، وتحدث من مستوى عال ، بعيدة عن كل نفوذ سياسي ، وتأثير أجنبي !

وسطية الإسلام في المكان والشكل والأداء :

تحت هذا العنوان كتب الدكتور جوين راولي ، قسم الجغرافيا ، جامعة شيفلد ، إنجلترا ، مقالاً طويلاً منشوراً في مجلة «جيورجورنال» عام ١٩٨٩م ص (٣٥١ - ٣٥٩) ، نقبس منه فيما يلي ما يتصل بوسطية الإسلام :

(١) السيرة النبوية : الندوي : ٥٩ - ٦٠ بتصرف .

The Centrality of Islam: Space, Form and Process

**Rowley, Gwyn, Dr., University of Sheffield, Department of Geography,
Sheffield, S10 2 TN England, EC**

ABSTRACT:

This paper considers the centralizing and unifying tendencies of Islamic space paying particular and direct attention to the nature and reality of the pilgrimage to Mecca the Hajj. For the human geographer truth the Hajj and the other pillars-foundations of Islamic belief provide a constancy and spatially reinforcing dynamic to facilitate at least a partial comprehension of the properties of a specific and large cultural region the community of Islam. It is to be stressed that any singular concern with the Hajj that fails to see it as a part or rite within a wider functioning Islam will do a disservice both to the pilgrimage itself and present an unacceptable view of Islam. The recent growth of the Hajj is considered as part of the continuity and indeed mounting ebullience and vitality of Islam. Continuing population growths and developments in transport technologies that present increasing opportunities to a widening number of Muslims are outlined and the various transport modes utilized by Hajjees are considered.

Most Westerners view pilgrimages as cultural artefacts of a bygone day. For Islam, however, the pilgrimage to Mecca, the Hajj, is of a vital and precise importance (Burton 1893). Indeed to comprehend its essentiality and purpose, the Hajj must be considered not simply as pilgrimage but as the fifth pillar of Islam that inexorably inter-relates with the four other pillars, foundations of the faith, to view the essential and overall unity of Islam in its spatial embrace.

Unlike other pilgrimages, however, the Hajj is in no way devoted to nor concerned with glorification or sanctification of either a person nor any of the places and shrines being visited (Pfaffenberger 1983). Rather the rituals represent a re-enactment of the Prophet Ibrahim's (Abraham's) obedience and submission to the injunctions and the will of God-the essence of Islam.

This essay will demonstrate the pivotal and centralizing nature of Islamic space, its dimensions, extents and vitality, and consider the importance of Hajj in reinforcing the overall and singular unity of Islam as a vibrant and interacting cultural realm wherein "religion is sincerity and

fidelity, nasiha" (Ibrahim and Johnson-Davies 1977, p. 44). Various backgrounds will be developed to include briefly a note on the so-called Islamic resurgence. The particular elements of both Islam and the Hajj will be outlined, its tributary regions considered and recent and future growth of the Hajj evaluated. To consider this dynamic further some attention will also be directed to the continuing ebullience, numerical growth and advancement of Muslim populations.

Backgrounds:

One contribution of the human geographer is to present orderly descriptions and understandings of the human world. Pilgrimages to places, or points, involve intricate spatial structures comprised of linkages and patterns, that present complex inter-relationships whereas regionalization is, in part, a classificatory procedure to delimit a certain degree of homogeneity within identifiable areas. The view here is that it is the overall integration of points and linkages that should be of a particular concern; that is the structure of the subset.

In our present context we must realize that the human geographer usually views religion within an institutional framework, not only and simply as behaviour, that comprehends personal and shared beliefs concerning the supernatural but also as a complex of culture traits, a kind of group behaviour and as a basis for both social intergration and social conflict and a reflection of differing life styles. However for the geographer a major problem still remains in discovering "composition and meaning of the geographic aggregate that we as yet recognize somewhat vaguely as the culture area" (Sauer 1962, p. 34).

Levi-Strauss (1958) has emphasized that primitive religious systems are, like all symbolic systems, carriers of information in the technical Shannon-Weaver sense. Within Islam this transfer of information and rededication to the pilgrimage plays a central regulative role, both to the person and to the people-community as a whole, according to the overall purpose of religion of attuning human actions to a view of cosmic order and design.

Islam may thus be conceived of as a plurality of individuals who, through shared expectations and experiences, are in contact with one another, who take one another into account and who are aware of the significant commonality (Shils 1957). Throughout Islam such a commonality underlies developments on The Macrocosmic political and social levels and

serves further to differentiate Islam. Islam overall, as a vibrant community, is a fine example of this complexity. Thus, reflecting Barrington Moore's (1958) approach, the moral order appropriate to any particular society has a necessary connection with the institutional forms within which thought and practice are expressed.

A non-Western Perspective:

A prime focus of this paper will be upon the recent quite astounding growth in the numbers undertaking the Hajj and the continuity of the Hajj. Prior to this, however, certain essential matters require some attention to comprehend this continuity and ebullience of both the Hajj and Islam itself (Watt 1961).

There is, what may be termed an ostensibly dominant and pervasive Imperialist world view which has seen "superior" Western values and "modernization", indeed "civilization", as coming into contact with an essentially "peripheral" native or lower form of exotic culture and overcoming or modifying these "localisms" (Wallerstein 1983). Such a type of "development" and supposed modernization is, in reality, a lumpen-Europeanization which destroys peripheral societies by over-riding their culture and reduces "underdeveloped" areas to a type of dependent development through domination from and by the centre; to incorporate the periphery into the hegemonic capitalist relationship (Blaut 1987). Rather than pointing to a possibility for approaching a Rostowlike take-off the incorporation of the periphery into the hierarchical world trade system, composed of imperialisms and neo-colonial reserves, proffers a possibility for a type of dependent development (Chatelus 1974, p. 258).

The economic primacy of the West was likewise translated to the socio-cultural realm stressing the superiority of Christendom and Western values. Confrontations with Islam, however, were always something quite different. Muslims recognized Islam itself as a core possessing specific values and as having an ascendancy and dynamic that over-rode those viewpoints of the newcomers. That centrality and sense of equality, and indeed superiority is now becoming increasingly manifest within the Islamic resurgence.

Indeed this so-termed Islamic resurgence and a mounting disdain for Western values may be considered appropriately as a constancy of the base values and objectives of Islam as opposed to what may be considered as a decline of Western systems with mounting uncertainties and doubts on

primacy and resolution from within the West itself, the decline of religiosity, the breakup and erosion of traditional family structures, the disillusionment of youth and the direct questioning of Western industrial-capitalist structures and the capitalist work-ethic in the face of mounting longer-term unemployments and widening despair (Amin et al. 1982).

Samir Amin (1976J, admittedly referring to the Arab world as opposed to the Islamic, considers a range of modalities of a new dependency on foreign alliances. He sees, for example, despite the simple religiosity of Islam, a transition to revolutionary socialism accompanied by a disengagement from the world capitalist system. Somewhat surprising the one scenario not considered by Amin is a transformation deriving from a deepening Islamic unity and increasing ascendancy of "the Middle Nation" (Qur'an; 2: 143), with the reassertion of fundamentalist Islamic values that possess a timeless truth with its stress on family and oneness that concurs neither with a radical socialism nor a Westernizing secularism.

Islam and its Unity:

The pilgrimage to Mecca, the Hajj is one of the five pillars upon which Islam is built, the others are the declaration of faith, Salat (prayer), Zakart (poor-tax) and Siyam (fasting). Together these practices constitute the solid central core of the Islamic way of life. Their social as well as religious and spiritual significance is self-evident and they define the minimum requirements which go to make a practicing Muslim and the fundamental belief of the unity and oneness of God (Tawheed). Deriving from this is the Islamic concept of quite considerable beauty which holds that the roots of heaven are entwined in our hearts. Upon this single idea of Tawheed rests the entire religion and from it stems its moral teaching, its socio-economic and political concepts and the whole of its cultural and civilizational outlook and is easily identifiable throughout Islamic life, its laws (Sharia), its sciences, its arts and the mundane customs and daily behaviours of its peoples. The Islamic commitment in testifying that 'there is no God but God', 'La Ilaha illa Allah', of itself defines a cultural region that is held up and together by the five pillars, constitutionally by its declaration, daily through its prayers while facing Mecca, spiritually through its rendering of charity and fasting and realistically through the circumstance and outward manifestations of the Hajj. That centrality is the prime specific of the pilgrimage to Mecca!

The Region of the Hajj:

The pilgrimage region includes the cities of Mecca (380,000) and Medina (210,000). Also included are Jiddah (600,000), Taif (205,000), Yanbu (36,000) as well as the four smaller incorporated municipalities of Rabigh, Khlais, Badr and Lith each with populations of about 10,000, together with a large number of villages and hamlets in their surrounding hinterlands.

The effect of the pilgrimage is clearly demonstrated in private sector employment which accounts for more than 16% of the total employment within the five cities, with the pilgrims also providing a basis for hotel, transport, retailing and financial services. Indeed the last three decades have witnessed quite massive investments within the regional infrastructure to accommodate and serve the pilgrims, together with improvements to local and international transport services, such as new super highways and greatly enlarged air and sea port terminals at Jiddah (Rowley and Hamdan 1977B).

Recent and Continuing Growth:

Since 1950 there has been an overall and quite constant increase in the number of pilgrims undertaking the Hajj (Fig 2). In 1932 90,662 foreign pilgrims entered Saudi Arabia, rising to 100,471 in 1951 with a six-fold increase to 645,182 being achieved by 1973. The 1986 figure for foreign pilgrims was 1.64 million and, including those from Saudi Arabia, the overall total amounted to in excess of 2.25 millions. The present rate of increase is likely to continue and in 2 - 3 years to expand again quite markedly with the seasonal shift of the Hajj to spring. This point requires some explanation.

The Muslim lunar year is eleven days shorter than the Gregorian year. Hence the Hajj, from a Western perspective, comes around eleven days earlier from one year to the next. In general, growth in the number of Hajjees falls off when the Hajj occurs in the summer while expansion takes off again when the Hajj is in the cooler seasons.

In addition, the continuing expansion of many Muslim economies, with more financial opportunities afforded to a wider range of people, suggests that the potential number of pilgrims will continue to grow markedly over the next several years. Likewise easier, faster and relatively cheaper methods of transportation, meaning shorter periods away from

employment and home responsibilities, also point to an ever-increasing proportion of potential pilgrims. Indeed for many the pilgrimage can now be accommodated within the period of an annual vacation!

The overall population of Islam as of 1987 is conservatively estimated at c. 850 million, some 19 - 20% of the human population. The particular concentration is in the N hemisphere of the Old World, extending in a broad belt from Senegal in the W to the S Philippines and Indonesia in the east (Fig 3 and 4). Islamic populations are increasing internally by some 3% or more per annum while external conversions, especially from animistic sects in Africa and amongst Blacks in North America, point to even further growth. The overall figure of 850 million is obtained by updating Weekes' early 1970s data (Tab 1) and making some allowance for external expansions (Weekes 1978; Institute of Muslim Affairs 1987).

Travel Modes to the Hajj:

From 1963 major changes have occurred in the methods of transport utilized by the pilgrims (Fig 5). Data on the origin and mode of arrival of pilgrims assembled by the Saudi authorities (Central Department of Statistics 1971 - 1986) reveal that air and-land travel have increased dramatically in popularity at the expense of sea travel. Maritime travel accounted for 77.70% of foreign pilgrims arriving in Saudi Arabia in 1950 but only 19% in 1986. In 1950 12.74% travelled by air but 52.11% did so in 1986. Likewise in overland travel; the figures of 9.56% in 1950 rose to 28.67% in 1986. Both air and land routes are continuing to make quite significant inroads into traditional sea transport.

In every country from which pilgrims travel there are two or three methods of transport available. The modes of travel of pilgrims from those countries that contribute in excess of 2,000 pilgrims per year are depicted in Fig 6. Air travel is available throughout, land travel is available to the countries adjacent to Saudi Arabia or those that can be reached by continuous overland routes and sea travel is available only to maritime countries. Countries from which more than 75% of the pilgrims travel to the pilgrimage overland, by private automobile, truck or bus are adjacent to Saudi Arabia but also include Yugoslavia and Turkey (Fig 6). Pilgrims from Oman and particularly the eastern regions of South Yemen, the Hadramaut, have to contend with the difficult physical barrier of the Empty Quarter, Rub'al-Khali, and have a choice between air and sea for Oman, and

air, sea and land for South Yemen (Shair 19X3). By contrast in Iran the dominance of air travel to the Hajj results from the Iraqi-Iranian conflict.

Countries where pilgrims favour air travel include the N and E African countries and, as mentioned, Iran. Only two countries show slight divergencies. Egypt retains a small percentage, 0.20%, where travel is by sea but land at 8.46% is now the second favourite. Nigeria still has a sizable but diminishing percentage of Hajjees, 8.72, who travel by sea as opposed to the remainder who fly. Travel by air is generally increasing in importance in Malaysia, the Philippines, Thailand and India, while overland transport accounts for 21.07% of pilgrim movement from Pakistan. However these data refer to the mode of arrival in Saudi Arabia. Pilgrims from Chad and Niger travel overland eastwards to Port Sudan, then via ship to Jiddah so their mode of arrival in Saudi Arabia is recorded as having been by sea. The dominant modes of travel of those countries that contribute in excess of 2,000 pilgrims a year are depicted in Fig 6.

A further Dimension of Hajj-Islam Interaction:

Throughout this essay the stress has been upon the unity of Islam and its continuity. One largely unconsidered aspect of Hajj will now be touched upon, if only lightly, to provide a comprehension of the overall unity of Islam and its powers or reinforcement through Hajj.

At the time of the pilgrimage Hadith or discussion circles are held by Hajjees and sheiks, teachers, in and about Mecca. Such groups range from formal seminars and conferences to informal discussion groups and are concerned with Islamic interpretations and views on problems of modern life as in family, education and personal relationships. At its simplest level the group consideration of ideas and values consists of a process of pooling whereby new learning takes place and from inchoate searchings clarifications emerge. Such views are derived from specific Islamic principles (nabawiyyat), part of the sunna of Rasulla, sallallahu alayhi wa salim.

Whereas Hadith-group composition is primarily dependent upon nationality and language, facility in, for example, spoken Arabic by the Hajjees does result in considerable cross-fertilizations and break-downs and recompositions of the primary discussion groups. Considerable interactions thus arise between groups. Of particular concern is the great deal of feedback that occurs throughout Islam. This process of information-dispersal from Mecca, as the centre of diffusion and dissemination via the contact fields of returning hajjees, in pointing to a

research area of exciting and quite considerable dimensions. Such continuing processes of contagious diffusion through Islamic space furthers the base cultural continuity while non-Islamic spaces are generally beyond Yuill-type barriers (Brown 1982).

Summary and Concluding Remarks:

This essay has sought to demonstrate the overall unity of Islam that is perpetuated and indeed reinforced through the Hajj. The Muslim vision of the return of everything to its source in God underlies the conception of God and fellowship in that quest. Thus any study of Hajj that does not consider its functional, interactive perspective will fail to appreciate that constancy which is achieved through submission to the will of Allah, the quintessence of Islam. The sheer dimensions of Islam in both the spatial and numerical senses, embracing as it does about a fifth of the entire human population, demands our continuing attention. It is emphasized that the viewpoints of the human geographer have particular pertinence and relevance in developing understandings of such structures, in seeking to explore the cultural-communal frameworks, moral paradigms, underlying the external world and the dynamics and agents of and in the process of "community maintenance and reinforcement" (Bernstein 1979, p. 224).

Finally, it is stressed, that in this essay an attempt has been made, however problematic, to overcome at least certain of the problems of a Western perspective and to consider Islam not simply as a religion or a culture but as "a complete way of life" that in Hajj provides a continuing unity and harmony between God and mankind through the message as delivered by Muhammed. The community of Islam is thus centralized and reinforced through the pivotal nature of the Hajj to Mecca.

References:

- Amin, S.: *L'Imperialisme et le Developpement Egal*. Minuit, Paris 1976.
Amin, S., Arrighi, G., Frank, A. G., Wallerstein, I.: *Dynamics of Global Crisis*. Monthly Review Press, New York 1982.
Bernstein, R. J.: *The Restructuring of Social and Political Theory*. Methuen, London 1979.
Blaut, J. M.: *Diffusionism: a uniformitarian critique*. *Annals of the Association of American Geographers* 77, 30 - 47 (1978)
Brown, L. A.: *Innovation Diffusion*. Methuen, London 1982.

- Burton, R. F.: Personal Narrative of a Pilgrimage to Al-Madinah and Meccah, 2 vols. Memorial edition, Tylston and Edwards, London 1893.
- Central Department of Statistics Statistical Yearbooks 1391 AH - 1404 AH. Ministry of Finance, Royal Government of Saudi, Arabia, Riyadh 1971 - 1986.
- Chatelus, M.: Strategie pour Le Moyen-Orient Canaan-Levy, Paris 1974.
- Durkheim, E.: The Elementary Forms of Religious Life (trans. from French by J. W. Swain), The Free Press, New York 1965.
- Gibbs, H. A. R.; Kramer, J. H.: Shorter Encyclopaedia of Islam, Brill, Leiden 1961.
- Hamdan, El S. A. S.; Rowley, G.: The Hajj, 1404. Interim Report on Reception and Direction Criteria. Ministry of the Hajj and Waqifs and Ministry of Municipal and Rural Affairs, Royal Government of Saudi Arabia, Riyadh 1986.
- Hicks, D.: Tetum Ghosts and Kin: Fieldwork in an Indonesian Community Mayfield, Palo Alto 1976.
- Ibrahim, E., Johnson-Davies, D.: Al-Nawawis' Forty Hadith. Holy Koran Publishing, Damascus 1977.
- Institute for Muslim Affairs: Muslim Populations of the World. Institute for Muslim Affairs, Riyadh 1986.
- Isaac, E.: The Pilgrimage to Mecca. Geographical Review 63, 405-9 (1973)
- King, R.: The pilgrimage to Mecca: some geographical and historical aspects. Erdkunde 26, 61 - 72 (1972)
- Levi-Strauss, C.: Structural Anthropology Basic Books, New York 1958.
- Ministry of the Hajj and Waqifs: Essential Information for Pilgrims and General Guide to the Addresses of Mutawifs in Mecca Mina and Arafat. Government of Saudi Arabia, Riyadh 1984.
- Ministry of the Hajj and Waqifs: Pilgrim Statistics 1404. Government of Saudi Arabia, Riyadh 1986.
- Moore, B.: Political Power and Social Theory Harvard, Cambridge, Mass 1958.
- Pfaffenberger, B.: Serious pilgrims and frivolous tounsts: The chimera of tourism in the pilgrimage of Sri Lanka. Annals of Tourism Research 10, 57-74 (1983)
- Rowley, G.; El-Hamdan, S. A. S.: Once a year in Mecca. The Geographical Magazine 49, 753-759 (1977a)
- Rowley, G.; El-Hamdan, S. A. S.: The Hajj - Pilgrims, Sites, Accommodations and Related Services: Assessments and Projections.

- Ministry of the Hajj and Waqifs and Ministry of Municipal and Rural Affairs, Royal Government of Saudi Arabia, Riyadh 1977b.
- Rowley, G.; El-Hamdan, S. A. S.: The Pilgrimage to Mecca: An Explanatory and Predictive Model. Environment and Planning A10, 1053 - 71 (1978)
- Sauer, C. O.: Cultural Geography. In: Wagner, P L.; Mikesell, M. W. (eds.), Readings in Cultural Geography. University of Chicago Press, Chicago 1962.
- Shair, I. M.: Geography Pattern of Southwest Asian Hajjis: A regression model. GeoJournal 7, 3, 291 - 298 (1983)
- Shils, E.: Primordial, personal, sacred and civil ties: Some particular observations on the relations of sociological research and theory. British of Sociology 8, 130-145 (1957)
- Wallerstein, I.: Historical Capitalism. Verso, London 1983.
- Watt, W. M.: Islam and the Integration of Society. Northwestern University Press, Evanston, Illinois 1961.
- Weekes, R. V.: Muslim Peoples: A World Ethnographic Survey. Greenwood Press, Westport, Connecticut 1978.

شكر:

وقد تفضل - مشكوراً - الدكتور صلاح جاد فودة ، كلية الهندسة ، جامعة الكويت ، بتقديم النص الإنجليزي ، الذي قبسنا منه ما اتصل بالعنوان السابق : «وسطية الإسلام في المكان والشكل والأداء» ، وترجمته التالية .

وقدم - أيضاً - ما كتبه الأستاذ الدكتور مسلم شلتوت في مركزية «مكة المكرمة» للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية ، ودائرة دلائل القبلة عند الكعبة الشريفة ، وصورة البلاد الإسلامية بالنسبة لـ «مكة المكرمة» كما سيأتي في الفصل الرابع .

وأرشدنا إلى إعادة رسم الأشكال باستخدام الكمبيوتر بأحدث البرامج المتاحة التي قمنا بها للرسم الهندسي (AUTOCAD RI 4) في الفصل الخامس .

جزاه الله خيراً .

الترجمة :

وإليك ترجمة ما سبق فيما يلي :

خلاصة :

هذه الورقات تبحث في وسطية ^(١) ووحدة الفراغ أو المكان في الإسلام ، مع توجيه عناية مباشرة إلى طبيعة وحقيقة الحج إلى مكة ، فالحج وبقيّة أركان الإسلام تمثّل بالنسبة إلى دارسي الجغرافيا البشرية مرتكزاً ، وحركة توكيدية لتيسير فهم ولو جزئي لمنطقة ثقافية شاسعة ، ألا وهي أمة الإسلام .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن أي محاولة للإلمام بالحج دون اعتباره ركناً من أركان الإسلام ، مثل هذه المحاولة لن تفلح ، بل وستعطي صورة مشوهة للإسلام .

إن النمو المطرد للحج يعتبر جزءاً من استمرارية وحيوية الإسلام المتجددة ، كما أن الدراسة تشمل النمو السكاني والبشري والاقتصادي للمسلمين ، وتطور سبل مواصلات الحجاج وأنماطها ، وأثر كل ذلك على الحج .

والحج في نظر عامة الغربيين نسك تراثي عفا عليه الدهر ، ولكن الحج إلى مكة أمر حيوي ، وفي غاية الأهمية بالنسبة للإسلام والمسلمين ^(٢) .

(١) وسط الشيء : قلبه ومركزه .

(٢) بيرتون ر . ف (١٩٨٣) : رحلة الحج لمكة والمدينة ، طبعة تذكارية في جزئين Tylston and Edwards لندن .

ولكي ندرك غاية الحج ومقاصده يجب أن ننظر إليه ، لا باعتباره حجاً فقط ، بل باعتباره ركناً خامساً لا يتجزأ ولا ينفصل عن أركان الإسلام الأربعة الأخرى ، هذا كي تنجلي لنا وحدة رؤية الإسلام وشمول مقاصده .

والحج في الإسلام على العكس من صور الحج في العقائد والديانات الأخرى ، لا علاقة له ألبة ، ولا يتصل بصورة أو بأخرى بشبهة تقديس ، أو تعظيم فرد ، أو مزار في الأماكن المقصودة في شعائر الحج (١) .

فالغرض من شعائر الحج في الإسلام هو إحياء وتجسيد طاعة أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وامتناله لأوامر الله وإرادته ، والذي هو لب الإسلام وجوهره .

وهذا المقال سيوضح بجلاء محورية وطبيعة مركزية عالم الإسلام وأبعادها ، ومجالها الحيوي .

والمقال - أيضاً - يتعرض لأهمية الحج في تعزيز وحدانية الإسلام الفريدة الشاملة ، كوجود ثقافي متفاعل وحي في وجدان المسلم ، حيث الدين هو الإخلاص والنصيحة (٢) .

وسيشمل البحث بصورة مقتضبة خلفيات عدة ، لما يطلق عليه البعث الإسلامي ، وسيتعرض - أيضاً - للعناصر الخاصة لكل من الإسلام ، والحج ومناطقه ونفوذه ، وسيُقَوِّم الازدهار الحالي والمستقبلي للحج ، ولكي تكتمل

(١) فافنبرجر ، ب (١٩٨٣) : الحاج الجاد والسائح المهزال : سياحة الكمير في الحج بسريلانكا - حوليات الأبحاث السياحية ، المجلد ١٠ ، ص ٥٧ - ٧٤ .

(٢) إبراهيم ، إ. وجونسون - دافيز ، د (١٩٧٧) : الأربعين النووية ، دار القرآن ، دمشق .

الصورة يجب أن يشمل بحثنا النمو السكاني المطرد للمسلمين ، من حيث التعداد وأنماط النمو وفورته المستمرة .

الخلفية :

أحد عطاءات الجغرافيا البشرية هو إعطاء وصف وفهم دقيق ومنتظم لعالم الإنسان ، فالحج إلى أماكن أو نقاط بعينها يستلزم تركيبة مكانية دقيقة لها تداعلاتها ، ونماذج تأثيرها .

هذا غير دراسة جغرافيا المناطق التي تبرز الفروق وعوامل التباين بين مساحات بينها قدر من الامتزاج في الخصائص .

ورؤيتنا هنا هي الدمج الشامل لمكان الحج ونقاطه ، وأفعال الحجيج فيها بما يسمح بفهم أشمل وأوسع لتركيبية الحج .

في سياق دراستنا هنا علينا أن ندرك أن دارس الجغرافيا البشرية عادة ما يرى الأديان ويعيها من خلال نمط عقائدي شامل ، لا يحكم تصرفات الفرد ، وينظم طبيعة إيمانه بربه فقط ، بل يراها - أيضاً - كتركيب ثقافي ، وكنوع من السلوك الجماعي للأمم والأفراد ، وكأساس لكل من انصهار المجتمعات في بوتقة واحدة ، وتفرقها وصراعها ، وكمראה لنماذج وأساليب حياتية مختلفة .

وعلى الرغم من ذلك ، فماتزال القضية الأساسية للجغرافي هي الكشف عن «طبيعة تكوين ومعنى الكتلة الجغرافية التي سنسميها مؤقتاً المساحة الثقافية»^(١) .

(١) ساوير ، ك. و. (١٩٦٢) : الجغرافيا الثقافية ، مقال في قراءات في الجغرافيا الثقافية (تحرير واجنر ، ب. ل. ومايكسل ، م. و.) مطبعة جامعة شيكاغو ، شيكاغو .

وقد أكد ليفي شتراوس (١٩٥٨م)^(١) على أن كل الديانات البدائية تنقل المعلومة كقنوات الاتصال عند شانون - ويفر ، شأنها في ذلك شأن النظم الرمزية لتبادل المعلومات ، وفي الإسلام تكون تلبية الفرد لنداء الحج وسيلة اتصال تعيد تنظيم وتأكيد الصلة بين الفرد والمجتمع ككل ، وبين الله تعالى خالق الكون وصانعه .

يمكن أن ينظر للإسلام كتجمع أفراد متراص مدرك من خلال الهموم والتجارب المشتركة لأهمية الجماعة ، ولأهمية الفرد كلبنة أساسية في تكوين الجماعة^(٢) .

وفكرة الجماعة هذه هي أساس وأرضية التطور السياسي والاجتماعي في كل فئات المجتمع ، وتميز الإسلام عن غيره من الأديان ، ولذا فالمجتمع المسلم بحيويته ونبضه الدائم يضرب مثلاً فذاً لهذا التشابك بين الدين والمجتمع .

وبناء على رأي بارينجتون مور (١٩٥٨) فإن القيم والأخلاق التي تناسب مجتمعاً ما لصيقة بصورة أساسية بأشكال تعبير هذا المجتمع عن فكره وتجاربه .

وجهة نظر غير غربية :

والازدياد المذهل في عدد الحجاج عاماً بعد عام ، واستمرارية الحج من النقاط الأساسية التي سيركز عليها هذا البحث ، ولكن قبل هذا علينا أن نلقي الضوء على بعض الأمور الأساسية لفهم هذه الاستمرارية ، والإقبال المتزايد على

(١) ليفي - شتراوس ، ك (١٩٥٨) : الأنثروبولوجية التركيبية ، Basic Books نيويورك .

(٢) شيلز ، إ (١٩٥٧) : الروابط الأساسية ، والشخصية ، والمقدسة ، والمدنية : بعض الملاحظات الخاصة في روابط بحوث ونظريات العلوم الاجتماعية British Sociology المجلد ٨ ، ص ١٣٠ - ١٤٥ .

الحج ، والإسلام نفسه (١) .

هنالك ما يمكن أن نسميه النظرة الاستعمارية (الإمبريالية) الغالبة للعالم ، حيث قيم الغرب والتحديث ، أو الحضارة الغربية تصطدم بثقافات غربية متدنية ، ومجتمعات بدائية وهامشية فتقهرها وتطورها وتخرجها من ثوبها المحلي (٢) .

وهذا التطوير الغربي ، وما يسمى تحديثاً ، ليس إلتغريباً بالجملة يدمر المجتمعات الهامشية بإهمال ثقافتها ومورثها الحضاري ، ويستغل ضعف تطورها ليحوّله إلى تطور تابع للغرب جملة وتفصيلاً ، وبالتالي يدمجها في سلطان الرأسمالية (٣) .

ويربطها بنظام التجارة العالمي المكوّن من الرأسمالية ، واحتياجات الاستعمار الجديد ، مما يعطي هذه المجتمعات الهامشية فرصة لتطور تابع ومنقاد للغرب (٤) .

وترجم الغرب هيمنته الاقتصادية إلى واقع اجتماعي ثقافي يرسخ هيمنة المسيحية ، وتفوق القيم الغربية ، ولكن مواجهات الغرب مع الإسلام كانت دائماً مختلفة .

فالمسلمون رأوا في دينهم معيناً لا ينضب من القيم ، والمثل العليا ، وأسباب الرفع والحيوية ، مما تتضاءل أمامه قيم ومثل الغرب الوافدة ، وهذه المركزية «الوسطية» والندية ، بل والإحساس بالتفوق على الغرب يبدو جلياً في البعث الإسلامي .

(١) وات ، و . م (١٩٦١) : الإسلام وتكامل المجتمع ، مطبعة جامعة نورثوسترن ، إيفانستون ، إلينوى .

(٢) والرشتاين ، إ (١٩٨٣) : الرأسمالية التاريخية ، Verso لندن .

(٣) بلوت ، ج . م (١٩٧٨) : الانتشارية : نقد انظمائي ، حوليات جمعية الجغرافيين الأمريكيين ، المجلد ٧٧ ، ص ٣٠-٤٧ .

(٤) تشاتيلوس ، م (١٩٧٤) : استراتيجية للشرق الأوسط ، Canaan-Levy باريس .

بل إن هذا البعث الإسلامي ، والرفض المتنامي لقيم الغرب يمثل ثبات قيم الإسلام الأساسية وأهدافه في مواجهة انحلال مؤسسات الغرب التي يسري فيها الشك وعدم الثقة بالغرب ذاته ، والانحلال الديني ، وتفكك الروابط الأسرية ، وضياع الشباب ، والتشكيك الدائم في هياكل ومؤسسات الرأسمالية الصناعية ، وأخلاقيات العمل في ظل بطالة مطردة ويأس عام (١) .

ويقرر سمير أمين (٢) باعتماد العالم العربي وليس الإسلامي عدة أشكال للاعتماد على التحالفات الأجنبية ، فعلى الرغم من بساطة الإسلام يرى سمير أمين على سبيل المثال تحولاً نحو الاشتراكية الثورية ، مصحوباً بتملص من النظام الرأسمالي العالمي .

وهذا يدعو للدهشة ، لأنه لم ير تحولاً ناشئاً من اعتماد العالم العربي مبدأ الوحدة الإسلامي المترسخ يوماً بعد يوم ، ومبدأ الأمة الوسط :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤٣) .

(آية ١٤٣ سورة البقرة)

(١) أمين ، س وأرنغي ، ج وفرانك ، ا. ج. والرشتاين ، ي (١٩٨٢) : ديناميكية الأزمات العالمية Monthly Press Review نيويورك .

(٢) أمين ، س (١٩٧٦) : الإمبريالية والتنمية العادلة ، Minuit ، باريس .

مع إعادة تأكيد قيم الإسلام وتشريعه حيث لا تبلى حقائقه ، مع العناية بالفرد والعائلة ، دون الارتباط باشتراكية ثورية أو علمانية غريبة .

وحدة الإسلام :

والحج إلي مكة ركن من أركان الإسلام الخمسة ، وهي : الشهادة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وهذه الأركان مجتمعة تمثل صدر وأساس أسلوب حياة المسلم .

وأثر هذه الأركان في حياة المجتمع غني عن الذكر ، فضلاً عن أثرها الديني والروحي ، فهي تمثل الحد الأدنى لتعريف المسلم المؤمن بوحدانية الله سبحانه وتعالى .

وهناك مبدأ ذو جمال خاص ينبثق من فكرة التوحيد ، ألا وهو أن أسباب السماء معلقة بقلوبنا .

والتوحيد هو أساس الدين الإسلامي ومنه تنبع تعاليمه الأخلاقية ، ومبادئه الاجتماعية ، ونظمه الاقتصادية ، ونظراته الثقافية والحضارية للكون بأسره .

ويشع التوحيد بجلاء في الحياة الإسلامية في الشريعة ، والقانون ، والعلوم ، والآداب ، وفي الأعراف ، والعادات ، والسلوك اليومي للأفراد .

ويعتبر التزام المسلم بشهادة أن لا إله إلا الله في حد ذاتها المنطقة الثقافية التي يربطها ويجمعها أركان الإسلام الخمسة دستورياً ، بإعلان الشهادة يومياً بالصلاة مولياً وجهه إلى مكة ، حيث الكعبة البيت الحرام ، وروحياً بإيتاء الزكاة ، والصوم ، وواقعياً من خلال مناسك الحج وشعائره الجليلة .

وهذه المركزية هي أولى الخصائص ارتباطاً بالحج إلى مكة ! .

منطقة الحج :

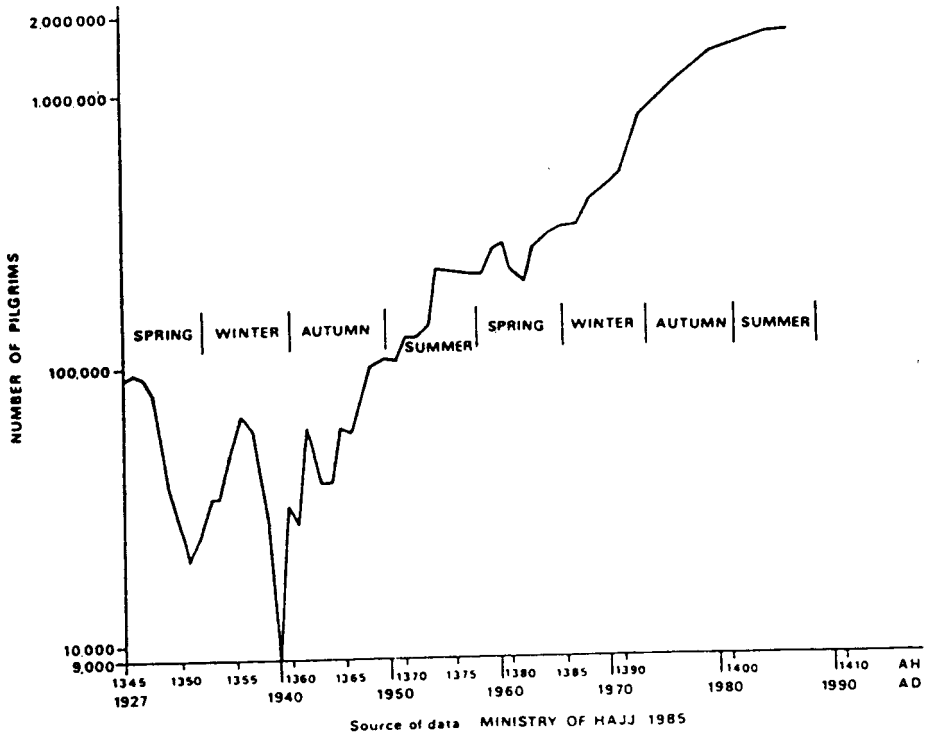
وتشمل منطقة الحج مكة (٣٨٠,٠٠٠) ، كما تشمل المدينة (٢١٠,٠٠٠) - أي من ناحية الزيارة- وتشمل - أيضاً- جدة (٦٠٠,٠٠٠) ، والطائف (٢٠٥,٠٠٠) ، وينبع (٣٦,٠٠٠) - باعتبارها مداخل - بالإضافة إلى أربع مواضع صغيرة وهي : رابغ ، وخليص ، وبدر ، ولث ، وتعداد كل منها حوالي ١٠,٠٠٠ مع عدد كبير من القرى حول هذه المدن والمواضع .

وللحج أثر واضح على عمالة القطاع الخاص ، ويمثل ١٦٪ من عمالة هذه المدن ، وتقوم الخدمات الفندقية ، والمواصلات ، والتجارة ، والخدمات المالية - أساساً - على الحجاج ، ولقد شهدت العقود الثلاثة الماضية استثمارات واسعة في البنية التحتية لخدمة الحجاج وإقامتهم ، هذا فضلاً عن تحسينات كبيرة لخدمات المواصلات كشبكات الطرق الحديثة والسريعة ، والموانئ الجوية والبحرية الضخمة بجدة^(١) .

النمو الحالي والمستقبلي :

ومنذ عام ١٩٥٠م وعدد الحجاج الذين يفدون لزيارة بيت الله الحرام في ازدياد مستمر ، انظر (شكل رقم ١) .

(١) راولي ، ج والحمدان ، س . ا . س (١٩٧٧ ب) : الحج - الحجاج والأماكن والمباني والخدمات : تقويم وتوقعات وزارة الحج والأوقاف ووزارة الشؤون المحلية والريفية ، حكومة المملكة العربية السعودية ، الرياض .



شكل رقم (١) يوضح عدد الحجاج من خارج المملكة ١٩٢٧-١٩٨٦ م
(وزارة الحج ١٩٨٦ م)

ففي عام ١٩٣٢ دخل السعودية ٦٦٢, ٩٠ حاجاً ، وارتفع هذا العدد إلى ٤٧١, ١٠٠ حاجاً في عام ١٩٥١ ، وستة أمثال هذا العدد حج عام ١٩٧٣ م ، وبلغ الرقم ٦٤, ١ مليون حاج من خارج السعودية عام ١٩٨٦ ، وباحتساب الحجاج من داخل المملكة يزيد عدد الحجاج الكلي لهذا العام إلى ما يربو على المليونين وربع المليون ، وهذا الازدياد متوقع له أن يستمر ، خاصة عند دخول موسم الحج في فصل الربيع في غضون العامين القادمين ، أو الثلاثة ، وهذه النقطة تحتاج للشرح والتوضيح .

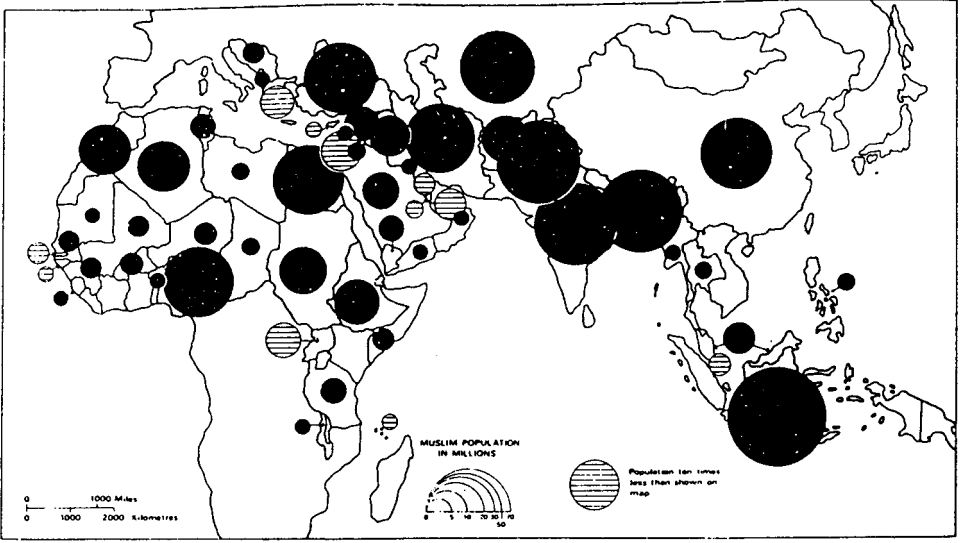
والسنة القمرية (التقويم الهجري) عند المسلمين تنقص أحد عشر يوماً عن السنة الميلادية (التقويم الجريجوري) .

ولذا فالحج في نظر الغربي يأتي مبكراً أحد عشر يوماً عاماً بعد عام ، وغالباً ماتقل زيادة عدد الحجاج عندما يأتي الحج في فصل الصيف ، وتزيد مرة ثانية عندما يأتي في الفصول المعتدلة .

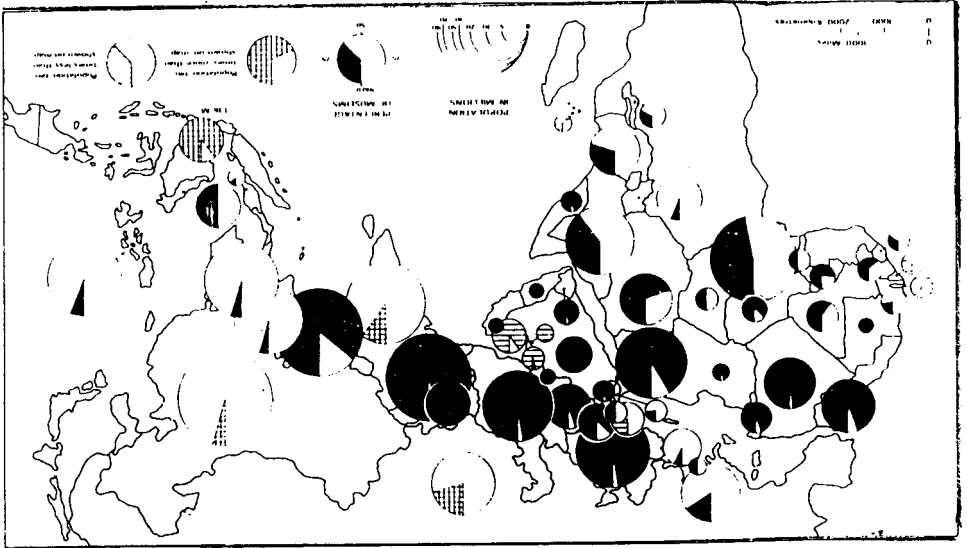
ومع نمو اقتصاد كثير من الدول الإسلامية ، وازدياد دخول كثير من الأفراد بها ، يتوقع أن يزداد عدد المسلمين القادرين والراغبين في الحج بصورة كبيرة في غضون السنوات المقبلة ، هذا أيضاً مع توافر وسائل المواصلات السريعة والرخيصة نسبياً ، مما يعني قضاء فترات أقل بعيداً عن العمل والمسؤوليات الأسرية ، ويمكن أن يؤدي في العطلة السنوية لكثير من المسلمين .

وإجمالي تعداد المسلمين في عام ١٩٨٧م يقدر بثمانمائة وخمسين مليوناً ، أي ١٩ - ٢٠٪ من تعداد البشرية .

ويتركز معظم المسلمين في الجزء الشمالي من العالم القديم في حزام يمتد من السنغال غرباً إلى جنوب الفلبين ، وإندونيسيا شرقاً (انظر شكلي ٢ ، ٣) :



شكل رقم (٢) يوضح تعداد المسلمين في العالم
(وييكس ١٩٧٨، معهد الشؤون الإسلامية ١٩٨٦ م)



شكل رقم (٣) يوضح تركيبة المسلمين السكانية في العالم
(وييكس ١٩٧٨، معهد الشؤون الإسلامية ١٩٨٦ م)

ويزداد عدد المسلمين سنوياً بمعدل ٣٪ أو أكثر .

ودخول غير المسلمين في الإسلام خاصة الوثنيين بإفريقيا ، والسود بأمريكا الشمالية يشير إلى معدلات أكبر للنمو السكاني ، والرقم ٨٥٠ مليوناً حسب بتعديل أرقام ويكس (انظر الجدول رقم ١) واحتساب معدلات الزيادة^(١) .

(١) ويكس ، (١٩٧٨) : الشعوب المسلمة : مسح عالمي إثنوغرافي ، مطبعة جرينوود ، وستيبورت ، كنتيكت .

الدولة	تعداد ١٩٧٧ بالآلاف	تعداد المسلمين بالآلاف	نسبة المسلمين المئوية
أفغانستان	١٤,٥٠٠	١٤,٣٥٥	%٩٩
البحرين	٢٥٠	٢٤٥	%٩٨
الجزائر	١٧,٨٠٠	١٧,٢٦٦	%٩٧
الكويت	٣٠٠	٢٧٣	%٩١
بنجلادش	٨٣,٣٠٠	٧٠,٨٠٥	%٨٥
بوركينا فاسو	٢,٢٠٠	٥٢٨	%٢٤
بلغاريا	٨,٨٠٠	٩٢٤	%١٠
بوركينا فاسو	٣١٠,٨٠٠	١٠,٢٧٢	%٣
بوروندي	٣,٩٠٠	٣٩	%١
الكاميرون	٦,٧٠٠	١٠,٠٠٥	%١٥
أفريقيا الوسطى	١,٩٠٠	٩٥	%٥
الكاميرون	٤,٢٠٠	٢,١٠٠	%٥٠
الصين الشعبية	٨٥٠,٠٠٠	١٧,٨٥٠	%٢
الكاميرون	٣١٤	٢٥١	%٨٠
الكونجو	١,٤٠٠	١٤	%١
الكاميرون	٦٠٠	١٠٨	%١٨
جيبوتي	١١٤	١٠٧	%٩٤
مصر	٣٨,٩٠٠	٣٥,٤٠٠	%٩١
إثيوبيا	٢٩,٤٠٠	١١,٧٦٠	%٤٠
فرنسا	٥٣,٤٠٠	٥٢٤	%١
الجابون	٥٠٠	٥	%١
غامبيا	٩٧٠	٥٥٠	%٥٧
غزة	٤٠٠	٣٦٠	%٩٠

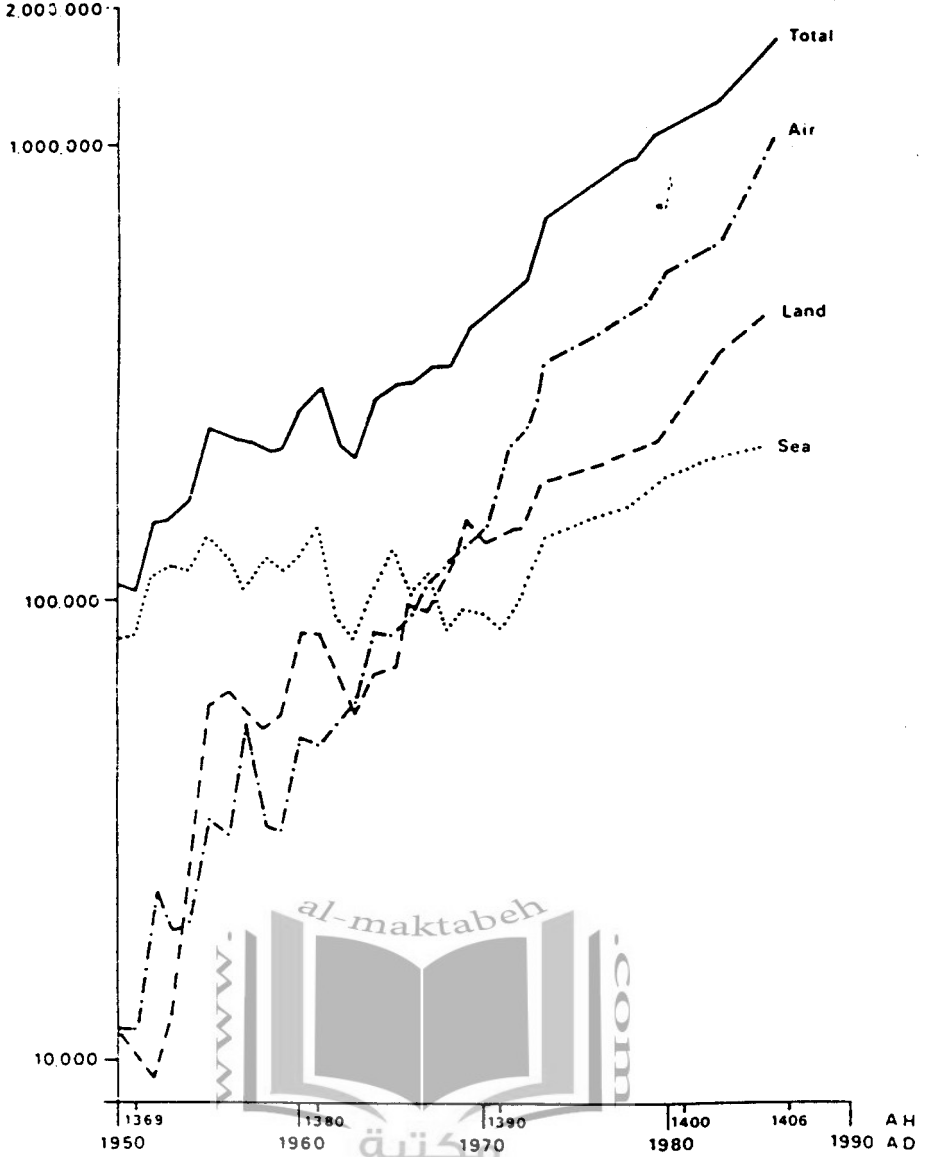
الدولة	تعداد ١٩٧٧ بالآلاف	تعداد المسلمين بالآلاف	نسبة المسلمين المئوية
اليونان	٩.١٠٠	١٨٢	%٢
الهند	٦٢٢.٧٠٠	٨٠.٨٠٥	%١٣
إيران	٣٤.٨٠٠	٣٤.١٠٢	%٩٨
إسرائيل (فلسطين)	٣.٦٠٠	٢٨٨	%٨
اليابان	١١٤.٢٠٠	١	%-
كمبوديا	٨.٠٠٠	٩٦	%١
الكويت	١.١٠٠	١.٠٢٣	%٩٣
ليبيريا	١.٧٠٠	٢٢٥	%١٥
مدغشقر	٧.٩٠٠	٥٥٣	%٧
ماليزيا	١٢.٦٠٠	٥.٥٤٤	%٤٤
مالي	٥.٩٠٠	٣.٥٤٠	%٦٠
موريشيوس	١٥٥	١٥٣	%١٨

الدولة	تعداد ١٩٧٧ بالآلاف	تعداد المسلمين بالآلاف	نسبة المسلمين المئوية
موزمبيق	٩,٥٠٠	٩٥٠	%١٠
نيجيريا	٦٦,٦٠٠	٣١,٣٠٢	%٤٧
باكستان	٧٤,٥٠٠	٧٢,٢٦٥	%٩٧
قطر	١٠٠	١٠٠	%١٠٠
رومانيا	٢١,٧٠٠	١٧٣	%١
السعودية	٧,٦٠٠	٧,٢٢٠	%٩٥
سيراليون	٣,٢٠٠	٩٦٠	%٣٠
الصومال	٣,٤٠٠	٣,٣٦٦	%٩٩
سريلانكا	١٤,١٠٠	١,١٢٨	%٨
سورينام	٤٠٠	٨٠	%٢٠
تايبوان	١٦,٦٠٠	٢٠	%-
تايلاند	٤٤,٤٠٠	١,٧٧٦	%٤

الدولة	تعداد ١٩٧٧ بالآلاف	تعداد المسلمين بالآلاف	نسبة المسلمين المتوية
ترينيداد وتوباغو	١٠,١٠٠	٦٦	٠.٦%
تركيا	٤١,٩٠٠	٤١,٠٦٢	٩٨%
الإمارات	٢٠٠	١٨٤	٩٢%
روسيا	٢٥٩,٠٠٠	٥٠,٣١١	١٩%
فيتنام	٤٧,٣٠٠	٥٢	٠.١%
اليمن	٥,٦٠٠	٥,٥٤٤	٩٩%
يوغوسلافيا	٢١,٨٠٠	٤,١٤٢	١٩%
زامبيا	٥,٢٠٠	٥٢	١%
إجمالي المسلمين	٧٤٠,٧٠٠		

أنماط الارتحال إلى الحج :

منذ عام ١٩٦٣م تطورت وسائل المواصلات التي يستخدمها حجاج بيت الله الحرام تطوراً هائلاً (انظر شكل ٤) .



شكل رقم (٤) يوضح التغيير في أنماط انتقال الحجاج إلى بيت الله الحرام، ١٩٥٠-١٩٨٦م
(وزارة الحج ١٩٨٦م)

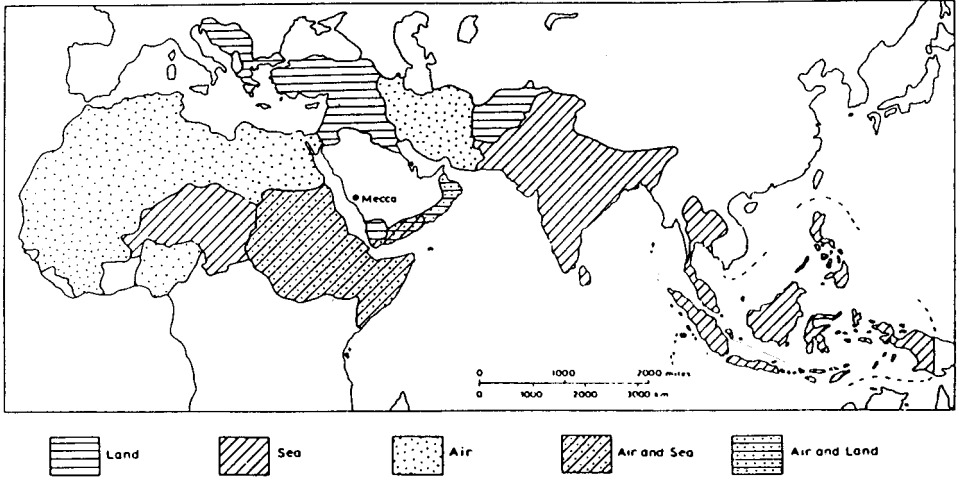
ولقد جمعت السلطات السعودية المعلومات والإحصائيات الخاصة بمنشأ وسبيل الوصول إلى الحج^(١) .

والتي تبين أن الطائرات ووسائل النقل البري هما الأكثر شعبية ، على عكس النقل البحري ، ففي عام ١٩٥٠م مثل عدد الحجاج القادمين عن طريق البحر ٧, ٧٧٪ من إجمالي عدد الحجاج ، وانخفضت هذه النسبة في عام ١٩٨٦ إلى ١٩٪ ، بينما زادت نسبة الحجاج القادمين بالطائرات من ٧٤, ١٢٪ عام ١٩٥٠ إلى ١١, ٥٢٪ في عام ١٩٨٦ ، وبالمثل زادت نسبة الحجاج القادمين بالبر من ٥٦, ٩٪ في عام ١٩٥٠ إلى ٦٧, ٢٨٪ في عام ١٩٨٦ م .

وما زالت هذه النسب في ازدياد على حساب الانتقال بالسفن ، وفي كل بلد تيسر للحجاج طريقتان للمواصلات ، أو ثلاث .

وبيين (الشكل رقم ٥) وسائل الانتقال المتوافرة في الأقطار التي يفد منها الحجاج بأعداد تزيد على الألفين سنوياً .

(١) قسم الإحصائيات المركزية (١٣٩١-١٤٠٤هـ) : كتاب الإحصاء السنوي ، وزارة المالية ، حكومة المملكة العربية السعودية ١٩٧١-١٩٨٦ م .



شكل رقم (٥) يوضح وسائل الانتقال المتوفرة في الأقطار التي يفد منها الحجاج بأعداد تزيد على الألفين

ويتضح من هذا الشكل أن الانتقال الجوي متوافر في معظم الأقطار ، وأن الانتقال البري متوفر في الأقطار المجاورة للسعودية ، والأقطار التي لها طرق برية متصلة عبر دول مجاورة ، وأن الانتقال البحري متوافر في الأقطار الساحلية .

والبلدان التي يفد منها حوالي ٧٥٪ من الحجاج عن طريق البر بالسيارات الخاصة والباصات هي الأقطار المجاورة للسعودية ، ولكن هذه النسبة تشمل حجاجاً من تركيا ، ويوغسلافيا (انظر الشكل رقم ٥) والحجاج من عمان ، والمناطق الشرقية من اليمن الجنوبي^(١) (حضر موت) عليهم أن يجتازوا الربع الخالي بما فيه من صعاب ومشقة ، ولهم أن يختاروا بين الانتقال بحراً أو جواً من عمان ، أو براً أو جواً أو بحراً من جنوب اليمن^(٢) .

(١) اتحد شطرا اليمن بعد الحرب الأهلية عام ١٩٩٤ م .

(٢) شاير ، إ. م. (١٩٨٣) : الأنماط الجغرافية لحجاج جنوب غرب آسيا : نموذج إحصائي ارتدادي Geojournal المجلد ٧ ، العدد ٣ ، ص ٢٩١ - ٢٩٨ .

وبسبب الحرب العراقية الإيرانية نجد أن الانتقال جواً الغالب لحجاج إيران .
وغالبية الحجاج من شمال وشرق إفريقيا يفضلون الحج جواً ، إلا أن هناك
دولتين لهما وضع خاص ، فمصر مازالت نسبة ضئيلة من حجاجها ٢٠ ، ٠٪
يسافرون جواً ، بينما السفر عن طريق البحر هو الغالب ، ويليه السفر البري بنسبة
٤٦ ، ٨٪ .

ومازالت نسبة قليلة من حجاج نيجيريا ٧٢ ، ٨٪ يسافرون بحراً .
وعموماً يزداد السفر جواً أهمية في كل من : ماليزيا ، والفلبين ، وتايلاند ،
والهند ، بينما مازال ٠٧ ، ٢١٪ من حجاج باكستان يسافرون عن طريق البر .
وكل هذه المعلومات ترجع غالباً إلى وسيلة الوصول إلى الموانئ
السعودية ، فعلى سبيل المثال يسافر حجاج تشاد ، والنيجر براً إلى بور سودان
شرقاً ، ثم يركبون البحر إلى السعودية ، ومن ثم يسجلون كقادمين من البحر ،
ويبين (الشكل رقم ٥) وسائل الانتقال المتوافرة في الأقطار التي يفد منها
الحجيج بأعداد تزيد على الألفين سنوياً .

بُعد آخر لتفاعل الحج مع الإسلام :

وفي ثنايا هذا البحث كان جل التركيز على وحدة الإسلام واستمراريته ،
وهنا أمر من أمور الحج سنحاول أن نتعرض له في عُمالة ، لأنه سيساعدنا على
فهم وحدة الإسلام وقدرته في التأثير على النفوس في الحج .

تقام في أثناء الحج حلقات حديث واستذكار ، يقوم بها حجاج وشيوخ ،
ومدرسون في مكة وما حولها ، وهذه الحلقات تتدرج من مؤتمرات واجتماعات
رسمية إلى حلقات ولقاءات فردية للحجاج ، وتهتم هذه الاجتماعات واللقاءات

بمناقشة رأي الإسلام في المشاكل العصرية للمجتمع المسلم ، كالأسرة ، والتعليم ،
والعلاقات الشخصية .

ومثل هذه اللقاءات يكون على شكل مناقشة جماعية تطرح فيها المشاكل ،
وتطلب فيها الآراء ، والتعلم يتأتى من تبادل المعلومات ، وتزواج الأفكار ،
وأساس العلم والرأي والمعرفة في هذه الحلقات هو سنة النبي ﷺ .

وهذه الحلقات الحديثة عادة تجتمع في مجموعات علمية ، تتسق مع اللغة
والثقافة ، ولكن قدرة بعض الحجاج على الحديث باللغة العربية كثيراً ما يكسر
هذه الحواجز ، ويدمج جماعات عدة في حلقة واحدة ، مما يساعد على انتقال
الأفكار ، واقتراب العقول ، وتفاعل المجموعات المختلفة ، وأهم من هذا كله
مراجعة الحاج لما يعرفه ، وما استفاده من هذا التفاعل وإذاعته لما تعلم في قومه
بعد عودته ، مما يجعل مكة مركز انتشار وبث للعلم والحديث ، ويعطيها
بُعداً يتجاوز حدودها ، وهذه الانتشارية المركزية المرتبطة بالفراغ أو المكان في
الإسلام هي التي تميزه عن أمكنة أو مناطق الأديان الأخرى التي تعيش أسيرة
حواجز^(١) .

ملخص البحث والخاتمة :

أراد هذا المقال أن يوضح وحدة الإسلام الشاملة التي يبثها ويؤكدّها الحج ،
فالمسلم يرى أن مرد كل شيء إلى الله سبحانه وتعالى ، مما يضع العلاقة بين المسلم
وربه في نصابها .

ولذا فإن أي دراسة لاتضع في اعتبارها وظيفة الحج وفاعليته في النفوس ،

(١) براون ، ل . ا . (١٩٨٢) : انتشار الإبداع Methuen ، لندن .

لا يمكن أن ترى هذا الثبات ، وهذه الاستمرارية المبنية على الإذعان والتسليم الكامل لإرادة الله سبحانه وتعالى .

وهذا الإذعان هو جوهر إرادة الإسلام ، وإن حجم العالم الإسلامي المكاني والعددي ، والذي يمثل تقريباً خمس سكان العالم ، كل هذا يتطلب منا أن نولي الاهتمام الكافي .

ويجدر بنا أن نقول : إن آراء دارس الجغرافيا البشرية لها وزنها في تأصيل فهم مثل هذه التركيبات ، وفي سبر غور الهياكل الثقافية ، والاجتماعية ، والأسس الأخلاقية التي عليها يبنى العالم الخارجي ، والعوامل والقوى المحركة «لصيانة المجتمع وثباته» (١) .

وختاماً نقول : إننا حاولنا ، وهي محاولة اعتراها بعض النقص والقصور أن نتغلب على بعض مشاكل الرؤية الغربية للإسلام ، ولم ننظر للإسلام فقط كدين ، أو ثقافة ، بل كأسلوب ومنهج حياة .

ويؤكد الحج استمرارية وحدة الإسلام ، ويبني صلة منسجمة بين العباد وربهم ، من خلال الرسالة كما أداها ﷺ ، ومن ثم فجماعة الإسلام جماعة وسط تتجدد وسطيتها بطبيعة ومركزية الحج إلى مكة .

عدد المسلمين عام ١٩٩٦م :

وإذا كان الدكتور جوين راولي في بحثه قد قدم إحصاءاً لعدد المسلمين في العام ١٩٩٧م كما سبق في (الجدول رقم ١) ، فقد وجب التنويه بازدياد عدد المسلمين المطرد ، ونقدم هنا إحصاء لعدد المسلمين في عام ١٩٩٦م ، كما نشر

(١) برنشتاين ، ر. ج. (١٩٧٩) : إعادة النظر في النظرية السياسية والاجتماعية Methuen ، لندن .

في كتاب «حقائق العالم»^(١)، والذي بلغ ٤٢٩، ٤١٩، ٢٣٩، ١ (ملياراً، ومائتين وتسعة وثلاثين مليوناً، وأربعمائة وتسعة عشر ألفاً، وأربعمائة وتسعاً وعشرين).

مع مراعاة أنهم لم يذكروا عدد المسلمين في بعض الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وإسبانيا، وألمانيا، وإيطاليا، وأستراليا، والنمسا، والمكسيك، والبرتغال، وشبه الجزيرة الكورية، والسويد، والبرازيل، واليابان، وكمبوديا، ورومانيا، وكولومبيا، وكينيا، والأرجنتين، وأنجولا . . . وغيرها من البلاد التي يضيق عن ذكرها المقام، ولا تخلو من وجود المسلمين فيها!

وبين ذلك (الجدول رقم ٢) :

(١) نقلاً عن شبكة المعلومات تحت عنوان :

(<http://www.odci.gov/cia/publication/nsolo/factbook/ag.htm>) .

الدولة	تعداد ١٩٩٦	تعداد المسلمين	نسبة المسلمين
أفغانستان	٢٢,١٦٤,١٣٦	٢٢,١٦٤,١٣٦	١٠٠٪
ألبانيا	٣,٢٤٩,١٣٦	٢,٢٧٤,٣٩٥	٧٠٪
الجزائر	٢٩,١٧٣,٠٣٢	٢٩,١٧٣,٠٣٢	١٠٠٪
أذربيجان	٧,٦٧٦,٩٥٣	٧,١٧٠,٢٧٤	٩٣,٤٪
البجربين	٥١٠,٠٤٢	٥١٠,٠٤٢	١٠٠٪
بنجلادش	١٢٣,٠٦٢,٨٠٠	١٠٢,١٤٢,١٢٤	٨٣٪
بيلاروسيا	١٠,٤١٥,٩٧٣	٢,٠٨٣,١٩٤	٢٠٪
بنين	٥,٧٠٩,٥٢٩	٨٥٦,٤٢٩	١٥٪
البوسنة والهرسك	٢,٦٥١,٢٤٥	١,٠٦٢,٤٩٦	٤٠٪
بروناي	٢٩٩,٩٣٩	١٨٨,٩٦٢	٦٣٪
بلغاريا	٨,٦١٢,٧٥٧	١,١١٦,٦٥٨	١٣٪
بوركينافاسو	١٠,٦٢٣,٣٢٣	٥,٣١١,٦٢٢	٥٠٪
بوروندي	٤٥,٩٧٥,٦٢٥	١,٥٢٩,٠٢٥	٣٪
بوروندي	٥,٩٧٣,٠٥٧	٥٩,٧٣١	١٪
الكاميرون	١٥,٣٦١,٥٥٧	٤,٢٨١,٨٤٩	٢٨٪
أفريقيا الوسطى	٣,٢٧٤,٤٢٦	٤٩١,١٦٤	١٥٪
تشاد	٦,٩٧٦,٨٤٥	٢,٤٨٨,٤٢٢	٣٥٪
الصين الشعبية	١,١٢٠,٠٠٤,٩٥٦	٢٤,٢٠٠,٠٩٩	٢٪
جزر القمر	٥١٦,٢٢٧	٢٨٩,٥٤٤	٥٦٪
الكونغو	٢,٥٢٧,٨٤١	٥٠,٥٥٧	٢٪
ساحل العاج	١٤,٧٦٢,٤٤٥	١,٥٦٢,٤١٧	١٠٪
كرواتيا	٥,٠٠٤,١١٢	٦٠,٠٤٩	١,٢٪
لبنان	٧٤٤,٦٠١	٢٠٠,٠٠٠	٢٦٪

الدولة	تعداد ١٩٩٦	تعداد المسلمين	نسبة المسلمين
مصر	٦٣,٥٧٥,١٠٧	٥٩,٧٦٠,٦٠١	%٩٤
فيجي	٧٨٢,٣٨١	٦٢,٥٩٠	%٨
الجابون	١,١٧٢,٧٩٨	١١,٧٢٨	%١
غزة	٩٢٣,٩٤٠	٩١١,٩٢٩	%٩٨,٧
غانا	١٧,٦٩٧,٢٧١	٥,٣٠٩,٤٨١	%٣٠
غينيا	٧,٤١١,٩٨١	٦,٣٠٠,١٨٤	%٨٥
جوانا	٧١٢,٠٩١	٦٤,٠٨٨	%٩
إندونيسيا	٢٠٦,٦١١,٦٠٠	١٧٩,٧٥٢,٠٩٢	%٨٧
العراق	٢١,٤٢٢,٢٩٢	٢٠,٧٧٩,٦٢٣	%٩٧
الأردن	٤,٢١٢,١٥٢	٣,٨٧٥,١٨٠	%٩٢
الكويت	١,٩٥٠,٠٤٧	١,٦٥٧,٥٤٠	%٨٥

الدولة	تعداد ١٩٩٦	تعداد المسلمين	نسبة المسلمين
ليبيريا	٢,١٠٩,٧٨٩	٤٢١,٩٥٨	%٢٠
مقدونيا	٢,١٠٤,٠٣٥	٦٣١,٢١١	%٣٠
ملاوي	٩,٤٥٢,٨٤٤	١,٨٩٠,٥٦٩	%٢٠
ماليزيا	١٩,١٦٢,٨٩٣	٥١٥,٨٩٩	%٢٨
جزر المالديف	٢٧٠,٧٥٨	٢٧٠,٧٥٨	%١٠٠
مالي	٩,٦٥٣,٢٩١	١,١٢٢,١٣٥	%١٢
موريتانيا	٢,٣٣٦,٠٤٨	٢,٣٣٦,٠٤٨	%١٠٠
موريشيوس	١,١٤٠,٢٥٦	١٨١,٢٨٢	%١٦,٦
مايوت	١٠٠,٨٣٨	٩٩,٨٣٠	%٩٩
منغوليا	٢,٤٩٦,٦١٧	١٣,٨٦٥	%٤
المغرب	٢٩,٧٧٩,١٥٦	٢٩,٣٩٢,٠٢٧	%٩٨,٧
موريشيوس	١٢,٨٧٧,٩٣٧	٣,٥٧٥,٥٨٥	%٢٨
نيبال	٢٢,٠٩٤,٠٣٣	٦٦٢,٨٢١	%٣
هولندا	١٥,٥٦٨,٠٣٤	٤٦٧,٠٤١	%٣
النيجر	٩,١١٣,٠٠١	٧,٢٩٠,١٠٤	%٨٠
نيجيريا	١٠٣,١١٢,٤٨٩	٥١,٥٦٢,٢٤٥	%٥٠
عمان	٢,١٨٦,٥٤٨	٢,١٨٦,٥٤٨	%١٠٠
باكستان	١٢١,٢٢٥,٦٦٠	١٠,٣٢٢,١١٠	%٨
الفلبين	٧٤,٥٢٣,١٤٦	٣,٧٢٦,١٥٧	%٥
قطر	٥٤٧,٧٦١	٥٢٧,٧٦١	%٩٥

الدولة	تعداد ١٩٩٦	تعداد المسلمين	نسبة المسلمين
البحرين	١٤٨,١٥٨	٢٨,١٥٣,٩١٣	%١٩
رواندا	٦,٨٥٣,٣٥٩	٦٨,٥٣٤	%١
السعودية	١٩,٤٠٩,٠٥٨	١٩,٤٠٩,٠٥٨	%١٠٠
السنغال	٩,٠٩٢,٧٤٩	٨,٣٦٥,٣٢٩	%٩٢
صربيا والجبل الأسود	١٠,٦١٤,٥٥٨	٢,٠١٦,٧٦٦	%١٩
سيراليون	٤,٧٩٣,١٢١	٢,٨٧٥,٨٧٣	%٦٠
سنتال	٣,٣٩٦,٩٢٤	٥٠٩,٥٣٩	%١٥
سلوفانيا	١,٩٥١,٤٤٣	١٩,٥١٤	%١
الصومال	٩,٦٣٩,١٥١	٩,٦٣٩,١٥١	%١٠٠
جنوب أفريقيا	٤١,٧٤٣,٤٥٩	٨٣٤,٨٦٩	%٢
لبنان	١٨,٥٥٣,٠٧٤	١,٤٨٤,٢٤٦	%٨
السودان	٣١,٥٤٧,٥٤٣	٢٢,٠٨٣,٢٨٠	%٧٠
سوريا	٣٦,٤١٨	٨,١٣٨	%١٩,٦
سوريا	١٥,٦٠٨,٦٤٨	١٤,٠٤٧,٧٨٣	%٩٠
طاجيكستان	٥,٩١٦,٣٧٣	٥,٠٢٨,٩١٧	%٨٥
تنزانيا	٢٩,٠٥٨,٤٧٠	١٠,١٧٠,٤٦٥	%٣٥
تايلاند	٥٨,٨٥١,٣٥٧	٢,٢٣٦,٢٥٢	%٣,٨
توجو	٤,٥٧٠,٥٣٠	٤٥٧,٠٥٣	%١٠
ترينيداد وتوباغو	١,٢٧٢,٣٨٥	٧٦,٣٤٣	%٦
تونس	٩,٠١٩,٦٨٧	٨,٨٣٩,٢٩٣	%٩٨
تركيا	٦٢,٤٨٤,٤٧٨	٦٢,٣٥٩,٥٠٩	%٩٩,٨
تركمنستان	٤,١٤٩,٢٨٣	٣,٦٠٩,٨٧٦	%٨٧
أوكرانيا	٢٠,١٥٨,١٧٦	٢,٢٢٥,٢٠٨	%١٦

الدولة	تعداد ١٩٩٦	تعداد المسلمين	نسبة المسلمين
الاندونيسيا	٣,٠٥٧,٣٣٧	٢,٩٣٥,٠٤٤	%٩٦
المملكة المتحدة	٥٨,٤٨٩,٩٧٥	١٠٠٠٠٠٠	%١,٧١
أوزبكستان	٢٣,٤١٨,٣٨١	٢٠,٦٥٨,١٧٥	%٨٨
فيتنام	٧٣,٩٧٦,٩٧٣	٨١,٣٧٥	%٠,١١
المغرب الغربية	٢٢٢,٣٦١	٢٢٢,٣٦١	%١٠٠
اليمن	١٣,٤٨٣,١٧٨	١٣,٣٤٨,٣٤٦	%٩٩
زائير	٤٦,٤٩٨,٥٣٩	٤,٦٤٩,٨٥٣	%١٠
زامبيا	٩,١٥٩,٠٧٢	١,٠٩٩,٠٨٩	%١٢
زيمبابوي	١١,٢٧١,٣١٤	١١٢,٧١٣	%١
أجمالي المسلمين	٥,٧٧١,٩٣٩,٠٠٧	١,٢٣٩,٤١٩,٤٢٩	%٢١,٤٧

تعقيب :

ولعل الدكتور جوين راوولي قد تأثر بالنظرية الجغرافية ، أو بإدراكه بعض معالم الوسطية ، أو بهما معاً ، انطلاقاً من أن الجغرافيا في الاتجاه السائد بين المدارس المعاصرة ^(١) هي «التباين الأرضي Areal Differentiation» أي التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض على مختلف المستويات ^(٢) .

ومن الطبيعي أن تكون قمة الجغرافيا هي التعرف على «شخصيات الأقاليم Regional Personality» ^(٣) .

وإذا كان الإقليم بهذا التعريف هو قلب الجغرافيا ، فمن المنطقي أن تكون الشخصية الإقليمية هي قلب الأقاليم ، ومن ثم يبقين أعلى مراحل الفكر الجغرافي .

والشخصية الإقليمية شيء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الأقاليم ، فهي إنما تتساءل أساساً عما يعطي منطقة تفرداً وتميزاً بين سائر المناطق ، محاولة أن تنفذ إلى «روح المكان» لتستشف «عبقرية الذاتية» التي تحدد شخصيته الكامنة .

(١) شخصية مصر : دراسة في عبقرية المكان : دكتور جمال حمدان : ١١ بتصرف .

(2) R. Hartshorne, The nature of geography, Lancaster, 1939, p. 92, ff.; G.H.T. Kimble, The inadequacy of the regional concept, in: London. essays in geography, ed. L.D. Stamp & S.W. Wooldridge, Longman's, 1951, p. 151 - 174 .

(3) P.M. Roxby, "The theory of natural regions". Geog, 1926, p. 376 - 9, R. Crowe, "On progress in geography", S.G.M., Jan. 1938, p. 4 - 12, R.E. Dickinson, "Landscape & Society", S.G.M. Jan. 1939, p. 1 - 13; G.H.T. Kimble, The craft of the geographer, Montreal, 1945, p. 7.

وهذا هو ما يطلق عليه «الهيكل المركب Compage» عند بعض الجغرافيين الأمريكيين^(١)، أو ما يعرف كاصطلاح عام بـ«عبقريّة المكان» Genius Loci^(٢) .

وقد فات الدكتور جوين راولي أن ينظر إلى تلك الأماكن من ناحية المناخ ، فهي ليست حارة مثل غيرها من البلاد الواقعة تحت خط الاستواء ، كما أنها ليست باردة مثل كثير من بلاد أوروبا وغيرها ، وفي الوقت نفسه خالية من الأعاصير المدمرة ، فضلاً عن تقارب وقت النهار والليل !

مركز الدعوة العالمية :

وسبق أن عرفنا من خصائص الجزيرة أنها كانت مكاناً لكثير من الرسائل . . كما عرفنا صفات العرب . . ووحدة اللغة . . ووسطية الأمة الإسلامية . . ومزايا الوسطية ومظاهرها . . وأن المسلمين أمة وسط في التفكير والشعور . . والزمان . . والمكان . . ومن ثم نبصر في الموقع الجغرافي ما يجعل الجزيرة جديرة بأن تكون مركزاً للدعوة للعالم ، وتخطب الشعوب كلها !

وحين ننظر اليوم من وراء الأحداث واستقرائها^(٣) ، ومن وراء الظروف ومقتضياتها ، وبعدما سارت هذه الدعوة في الخط الذي سارت فيه ، وأنتجت فيه نتائجها !

(1) P. James; C. Jones, American geography. Inventory & prospect, Syracuse, 1951.

(2) A.J. Herbertson, "Regional environment, heredity & consciousness" Geog, No. 34, 1915, p. 148; J. Fairgrieve, Geog. in school, Lond., 1949, p. 38; W.G. East, Geog behind History, Lond., 1948, p. 27 .

(٣) في ظلال القرآن : ٥ : ٣١٤٢ وما بعدها بتصرف .

حين ننظر اليوم هذه النظرة ندرك طرفاً من حكمة الله عز وجل في اختيار هذه البقعة من الأرض ، في ذلك الوقت من الزمان ، لتكون مقر الرسالة الأخيرة ، التي جاءت للبشرية جميعاً ، والتي تتضح عالميتها منذ أيامها الأولى !

كانت الأرض المعمورة - عند مولد هذه الرسالة الأخيرة - تكاد تنقسمها إمبراطوريات أربع :

الإمبراطورية الرومانية في أوروبا ، وطرف من آسيا ، وإفريقيا .

والإمبراطورية الفارسية ، وتمد سلطانها على قسم كبير من آسيا ، وإفريقيا .

والإمبراطورية الهندية ، ثم الإمبراطورية الصينية ، وتكادان تكونان مغلفتين على نفسيهما ، ومعزولتين بعقائدهما واتصالاتهما السياسية وغيرها ، وهذه العزلة كانت تجعل الإمبراطوريتين الأوليين هما ذواتي الأثر الحقيقي في الحياة البشرية وتطوراتها !

وكانت الرسالتان السماويتان قبل الإسلام - اليهودية والنصرانية - قد انتهتا إلى أن تقعا في صورة من الصور تحت نفوذ هاتين الإمبراطوريتين ، حيث تسيطر عليهما الدولة في الحقيقة ، ولا تسيطران على الدولة !

فضلاً عما أصابهما من انحراف وفساد !

ولقد وقعت اليهودية فريسة لاضطهاد الرومان تارة ، ولاضطهاد الفرس تارة ، ولم تعد تسيطر في هذه الأرض على شيء يذكر على كل حال ، وانتهت - بسبب عوامل شتى - إلى أن تكون مغلقة على بني إسرائيل ، لا مطمع لها ولا رغبة في أن تضم تحت جناحها شعوباً أخرى !

وأما المسيحية فقد ولدت في ظل الدولة الرومانية التي كانت تسيطر حين الميلاد على فلسطين ، وسوريا ، ومصر ، وبقية المناطق التي انتشرت فيها المسيحية

سراً ، وهي تتخفى من مطاردة الإمبراطورية الرومانية التي اضطهدت العقيدة الجديدة اضطهاداً فظيماً ، تخللته مذابح شملت عشرات الألوف في قسوة ظاهرة ، فلما انقضى عهد الاضطهاد الروماني ، ودخل الإمبراطور الروماني في المسيحية ، دخلت معه أساطير الرومان الوثنية ، ومباحث الفلسفة الإغريقية الوثنية كذلك ، وطبعت المسيحية بطابع غريب عليها ، فلم تعد كما كانت !

كما أن الدولة ظلت في طبيعتها لا تتأثر كثيراً بالرسالة ، وظلت هي المهيمنة ، ولم تهيمن العقيدة عليها أصلاً !

وذلك كله فضلاً عما انتهت إليه المذاهب المسيحية المتعددة من تطاحن شامل - فيما بينها - مزق الكنيسة ، وكاد يمزق الدولة كلها تمزيقاً ، وأوقع في الاضطهاد البشع المخالفين للمذهب الرسمي للدولة !

وهؤلاء وأولئك كانوا في الانحراف عن حقيقة الرسالة سواء !

وفي هذا الوقت جاء الدين القيم . . جاء لينقذ البشرية كلها مما انتهت إليه من فساد واضطهاد وجاهلية عمياء في كل مكان معمر . . وجاء ليهيمن على حياة البشرية ويقودها في الطريق إلى الله تعالى على هدى وعلى نور !

ولم يكن هنالك بد من أن يسيطر هذا الدين لتحقيق هذه النقلة الضخمة في حياة البشر !

ولم يكن هنالك بد من أن يبدأ رحلته من أرض حرة لا سلطان فيها لإمبراطورية من تلك الإمبراطوريات ، وأن ينشأ قبل ذلك نشأة حرة لا تسيطر عليه فيها قوة خارجة عن طبيعته ، بل يكون فيها هو المسيطر على نفسه وعلى من حوله ، وكانت الجزيرة العربية ، وأم القرى وما حولها بالذات هي أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة هذا الدين يومئذ ، وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية التي جاء من أجلها منذ اللحظة الأولى !

لم تكن هناك حكومة منظمة ذات قوانين وتشريعات وجيوش وشرطة
وسلطان شامل في الجزيرة ، تقف للعقيدة الجديدة ، بسلطانها المنظم ، وتخضع
لها الجماهير خضوعاً دقيقاً ، كما هو الحال في الإمبراطوريات الأربع !

ولم تكن هنالك ديانة كذلك ذات معالم واضحة ، فقد كانت الوثنية
الجاهلية ممزقة ، ومعتقداتها وعباداتها شتى ، وكان للعرب آلهة شتى من الملائكة
والجن والكواكب والأصنام ، ومع أنه كان للكعبة وقريش سلطان ديني عام في
الجزيرة ، فإنه لم يكن ذلك السلطان المحكم الذي يقف وقفة حقيقية في وجه الدين
الجديد ، ولولا المصالح الاقتصادية والأوضاع الخاصة لرؤساء قريش ما وقفوا
هذه الوقفة في وجه الإسلام ، فقد كانوا يدركون ما في عقائدهم من خلخلة
واضطراب !

وكانت خلخلة النظام السياسي للجزيرة إلى جانب خلخلة النظام الديني ،
أفضل ظرف يقوم فيه دين جديد ، متحرراً من كل سلطان عليه في نشأته ، خارج
عن طبيعته !

وفي وسط هذه الخلخلة كان للأوضاع الاجتماعية في الجزيرة قيمتها كذلك
في حماية نشأة الدعوة الجديدة !

كان النظام القبلي هو السائد ، وكان للعشيرة وزنها في هذا النظام . ثم
كانت هنالك صفات الشعب العربي نفسه من الشجاعة والأريحية والنخوة - كما
أسلفنا - وهي استعدادات ضرورية لحمل العقيدة الجديدة والنهوض بتكاليدها !

وقد كانت الجزيرة في ذلك الزمان تزخر بحضارة عميقة لبذور نهضة ،
وكانت تجيش بكفايات واستعدادات وشخصيات تنهياً لهذه النهضة المذخورة لها
في ضمير الغيب ، وكانت قد حفلت بتجارب إنسانية معينة من رحلاتها إلى

أطراف إمبراطوريتي كسرى وقيصر ، وأشهرها رحلة الشتاء إلى الجنوب ، ورحلة الصيف إلى الشمال ، المذكورتان في قوله تعالى :

﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ (١) إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾ .

(سورة قريش)

وتضافرت أسباب كثيرة لحشد رصيد ضخمة من التجارب مع التفتح والتأهب لاستقبال المهمة الضخمة التي اختيرت لها الجزيرة !

فلما جاءها الإسلام وجد هذا الرصيد كله ، ووجه هذه الطاقة المخزنة ، التي كانت تنهياً كنوزها للتفتح ، ففتحها الله بمفتاح الإسلام ، وجعلها رصيدها وذخراً !

ولعل هذا بعض ما يفسر لنا وجود هذا الحشد من الرجال العظام في الصحابة في الجيل الأول في حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، من أمثال : أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، وحزمة ، والعباس ، وأبي عبيدة ، وسعد بن أبي وقاص ، وخالد بن الوليد ، وسعد بن معاذ ، وأبي أيوب الأنصاري ، وغيرهم وغيرهم من تلك العصابة التي تلقت الإسلام ، ففتحت له ، وحملت له ، وكبرت به من غير شك وصلحت ، فقد كانت تحمل البذرة الصالحة للنمو والتمام !

وهكذا جاء هذا القرآن عربياً لينذر أم القرى ومن حولها ، فلما خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام ، وخلصت كلها للدين القيم ، حملت الراية وشرقت بها وغربت ، وقدمت الرسالة الجديدة ، والنظام الإنساني الذي قام على أساسها للبشرية جميعها - كما هي طبيعة هذه الرسالة - وكان الذين حملوها هم

أصلح خلق الله لحملها ونقلها ، وقد خرجوا بها من أصلح مكان في الأرض
لميلادها ونشأتها !

وليس من المصادفات أن يعيش الرسول الحبيب ﷺ حتى تخلص
الجزيرة العربية للدين القيم ، ويتمحض هذا المهدي للعقيدة التي اختير لها على
علم ، كما اختير لها اللسان الذي يصلح لحملها إلى أقطار الأرض جميعاً ، فقد
كانت اللغة العربية بلغت نضجها ، وأصبحت صالحة لحمل هذه الدعوة والسير
بها في أقطار الأرض ، ولو كانت لغة ميتة أو ناقصة التكوين الطبيعي ما صلحت
لحمل هذه الدعوة أولاً ، وما صلحت بالذات لنقلها إلى خارج الجزيرة العربية
ثانياً ، وقد كانت اللغة كأصحابها ، كيئتها ، أصلح ما تكون لهذا الحدث الكوني
العظيم !

وسبق أن عرفنا ذلك في حديثنا عن وحدة اللغة ، حيث كانت الجزيرة التي
تكاد تكون شبه قارة خليفة أن تتعدد فيها اللغات ، وتنوع . . ومع ذلك كانت
وحدة اللغة التي امتازت بها هذه الجزيرة من أهم أسباب تيسير مهمة الدعوة
الإسلامية ، وكان القرآن العربي المبين !

وهكذا تبدو سلسلة طويلة من الموافقات المختارة لهذه الرسالة ، حيثما وجه
الباحث نظره إلى تدبر حكمة الله ، واختياره ، ومصادق قوله :

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ .

(آية ١٢٤ سورة الأنعام)



الفصل الرابع

الإعجاز العلمي في إثبات أن الكعبة مركز العالم

- . الإسلام دين العلم.
- . إسقاط جديد للكرة الأرضية حول مدينة «مكة المكرمة»، لمعرفة اتجاهات القبلة للصلاة في جميع مدن العالم.
- . مقدمة.
- . تعيين الاتجاه بين مكانين على سطح الكرة الأرضية.
- . حساب البيانات المطلوبة من المثلث.
- . ملاحظات.
- . حسابات المسافات والانحرافات اللازمة لإسقاط الخريطة المطلوبة.
- . إعادة إسقاط خريطة العالم بالنسبة للاتجاهات الصحيحة للصلاة.
- . ملاحظات على هذا الإسقاط.
- . ملاحظات أخرى.
- . مركزية «مكة المكرمة»، للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية.
- . دائرة دلائل القبلة عند الكعبة الشريفة، وصورة البلاد الإسلامية بالنسبة لـ «مكة المكرمة».

الفصل الرابع

الإعجاز العلمي في إثبات أن الكعبة مركز العالم

الإسلام دين العلم :

من خصائص الدين القيم أنه دين العلم الثابت الصحيح ، ومن ثم لا يتصور قيام أدنى تنافر أو تصادم بين الإسلام والعلم الصحيح القائم على حقائق علمية ثابتة ، لا على الهوى أو النظريات الافتراضية ، ولا يمكن مطلقاً أن تصطدم حقيقة علمية أو كونية بحقيقة شرعية في هذا الدين القيم بحال !

ومعلوم أنه دين عالمي ، وأن الإنسانية كلها مخاطبة به ، مطالبة بالتسليم له أنه دين الله ، وأن القرآن الكريم كلام الله ، ليس لآدمي فيه كلمة ولا حرف ، ومعلوم أن الإنسانية أعجميها أكثر من عربيها ، ومن هنا يتضح إعجاز القرآن لكل إنسان ، ولو كان أعجمي اللسان ، لتلزمه حجة الله إن أبى الإسلام !

والواقع أن إعجاز القرآن من الناحية العلمية لا يزال بكرراً برغم كل ما كتب فيه ، وبخاصة تلك الناحية التي لا يتوقف تقديرها والتسليم بها على معرفة اللغة العربية التي لا تيسر معرفتها لكل إنسان ، هذه الناحية هي الناحية العلمية من الإعجاز ، وإذا فهمناها على أوسع معانيها أبصرنا :

الناحية النفسية ، وكيف اقتاد القرآن الكريم النفس ، ويقودها طبق قوانين الفطرة (١) .

(١) انظر : النبأ العظيم : ١١٣-١١٦ .

والناحية التشريعية ، وكيف نزلت أحكام القرآن طبق قوانين الفطرة للأفراد والجماعات .

والناحية الكونية ، ناحية ما فطر الله عليه غير الإنسان من الكائنات في الأرض ، وما فطر عليه الأرض وغير الأرض (١) .

هذه النواحي هي التي ينبغي أن يشمر المسلمون للكشف عنها ، وإظهارها للناس في هذا العصر الحديث ، ولن يستطيعوا ذلك على وجهه حتى يطلبوا العلوم كلها ، ليستعينوا بكل علم على تفهم ما اتصل به من آيات القرآن ، ويستعينوا بها جميعاً على استظهار أسرار آيات القرآن التي اتصلت بالعلوم !

ولا غرابة في أن يتصل القرآن بهذه العلوم . . فما العلوم لإنتاج تطلب الإنسانية أسرار الفطرة ، والقرآن ما هو إلا كتاب الله فاطر الفطرة ، فلا غرو أن يتطابق القرآن والفطرة ، وتتجاوب آياتها وآياته ، وإن كانت آياتها وقائع وسننا ، وآياته تتضح وفق ما تقتضيه حكمة الله في مخاطبة خلقه ، ليأخذ منها كل عصر على قدر ما أوتي من العلم والفهم ، وكذلك دوايك على مر العصور !

هذا التدرج في إدراك تمام التطابق بين القرآن والفطرة أمر لا مقرر منه في الواقع ، ثم هو مطابق لحكمة الله سبحانه في جعل الإسلام الدين القيم ، وجعل القرآن معجزة الدهر ، أي معجزة خالدة متجددة : يتبين للناس منها على مر الدهور وجه لم يكن تبين ، وناحية لم يكن أحد يعرفها أو يحلم بها من قبل ، فيكون هذا التجدد في الإعجاز العلمي تجديداً للدعوة - بأسلوب العلم الحديث - كأنما رسول الإسلام قائم في كل عصر يدعو الناس إلى دين الله ، ويريهام دليلاً على صدقه آية جديدة من آيات تطابق ما بين الفطرة وبين القرآن !

(١) انظر : الوحي المحمدي : ٢٣٨ وما بعدها .

هذا النوع من الإعجاز بعجز الإلحاد أن يجد موضعاً للتشكيك فيه ، إلا أن يتبرأ من العقل ، فإن الحقيقة العلمية التي لم تعرفها الإنسانية إلا في القرن التاسع عشر أو العشرين مثلاً والتي ذكرها القرآن ، لابد أن تقوم عند كل ذي عقل دليلاً محسوساً على أن خالق هذه الحقيقة هو منزل القرآن !

على أنه يجب ألا نفسر كونيّات القرآن إلا باليقينيّ الثابت من العلم ، لا بالفروض ولا بالنظريات ، التي لا تزال موضع فحص وتمحيص !

إن الحقائق هي سبيل التفسير الحق ، هي آيات الله الكونية ، ينبغي أن يفسر بها نظائرها من آيات الله القرآنية ، أما الحدسيّات والظنيّات فهي عرضة للتصحيح والتعديل ، إن لم يكن للإبطال في أي وقت !

وحسبنا أن نقراً قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ .

(آية ٢٧ - ٢٨ سورة فاطر)

وواضح أن العلماء هنا هم الذين يتدبرون هذه الآيات التي أودعها الحق جل شأنه فيما أشار إليه القرآن في عوالم الأرض ، وفي الثمرات ، وفي الجبال ، وفي الناس ، وفي الدواب والأنعام ، في كلمات قلائل ، تجمع بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً ، وتدع القلب مأخوذاً بعظيم قدرة الخالق ، وتشد الإنسان شداً إلى أن يتدبر آيات الله في الكون ، ومن ثم يدرك أن الآيات

القرآنية الكثيرة الواردة في الحُص على تطلب آيات الله في الكون ، وتعرف أسرار الخلق ، هي في الواقع توجيه للعقل إلى مجالات العلم الطبيعي وفق لغة العصر ، وهنا يضع الإنسان يده على أن هذا الأمر ليس مجرد دعوة ، ولكنه أمر من الله أن يطلب ، لأن الآيات الكونية من أسرار الفطرة التي هي مطمح العلم ومرماه :

﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

(آية ١٠١ سورة يونس)

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ .

(آية ٢٠ سورة العنكبوت)

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٩٧) .

(آية ٩٧ سورة الأنعام)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٢٢) .

(آية ٢٢ سورة الروم)

ومن هنا تقدم سلفنا الصالح ركب العلم وأثار الحياة للبشرية في كل المجالات ، وقدم طريق البحث وروحه التي هي في صميمها التجرد للحق والصدق فيه ، والاستمساك به ، والتعاون عليه ، وبين في جلاء ووضوح أن العلم في الإسلام يشمل كل ميادين الحياة .

ومن هنا - كذلك - نبصر أن الآيات القرآنية الكثيرة التي سبقت الاستكشافات الحديثة بقرون دلائل على أن هذا القرآن كلام الله !
من هذه الآيات قول الله تعالى :

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ .

(آية ٣٠ سورة الأنبياء)

إن هذه الآية الكريمة من عجائب الإعجاز العلمي في القرآن (١) ، لأنها سبقت علماء الفلك المحدثين إلى ما قرروه من أن الكون كله قبل أن تتشكل عوالمه ومجراته ونجومه ، كان كياناً سديماً غير متميز بعضه عن بعض ، ثم أخذ يتميز ويتطور ، لا يدرون بالضبط كيف ، وإن نسبوه إلى فعل الجاذبية العامة ، حتى صار إلى ما هو عليه مما يشاهدون ويدرسون ، ولا تزال السُّدم الهائلة منتشرة فيه على أبعاد فلكية مذهلة ، وواضح أن السموات - بالجمع لا بالافراد - هي والأرض تشمل الكون كله ، وحالته السديمية الأولى ، قبل أن تتخلق السموات والأرض ، كما أخبرنا الله :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ .

(آية ١٢ سورة الطلاق)

هي المرادة بقوله «كَانَتَا» أي السموات والأرض «رَتْقًا» ، وتميزه وتطوره إلى سبع سموات ومن الأرض مثلهن بأمر الله هي المرادة بقوله سبحانه «فَفَتَقْنَاهُمَا» ، لكنهم يجعلون السموات سماء واحدة ، ويقصرون الرتق والفتق على المجموعة

(١) الإسلام في عصر العلم : ٣٠٣ - ٣٠٤ بتصرف .

الشمسية وحدها . . وقد فسر عبدالله بن عباس رضي الله عنهما هذه الآية بقوله : السموات كانت رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت ، فلما خلق الله للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات (١) .

والقرآن ليس مراداً به العرب وحدهم ، بل البشرية كلها ، يفهم من آياته أهل كل عصر بقدر ما آتاهم الله من العلم ، فتتجدد حجة الله على الناس بتجدد إعجاز القرآن العلمي من غير تكلف ولا تعسف ، فالمعنى الفلكي الحديث ألْبَسَ للآية الكريمة ، وأمكن كما هو ظاهر من نسبة عدم الإمطار إلى السموات بالجمع ، مع أنه لا ينطبق إلا على سماء السحاب في أرضنا هذه ، في حين أن السموات بالجمع أساسية في فهم الآية على المعنى العلمي طبقاً ما قرره الفلكيون المحدثون (٢) .

ومن هذه الآيات قوله تعالى :

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ﴾ .

(آية ٣ - ٤ سورة القيامة)

قرأ العربي هذه الآية (٣) في عصر نزول القرآن ، ففهم منها أنها تدل على أن الله قادر على أن يعيد الإنسان عند البعث بشراً سوياً بكل أعضاء جسمه وعلى صورتها الأولى ، حتى ما دق خلقه من هذه الأعضاء وهو البنان . .

(١) تفسير ابن كثير ٣ : ١٧٧ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ٣٠٤ - ٣٠٧ .

(٣) الثقافة الإسلامية : جامعة الكويت : ١ : ٧٣ ، وانظر : مناهل العرفان : ١ : ٢٦ - ٢٧ .

ونقرأها نحن اليوم على ضوء العلم ، فنراها تنطوي علي ما توصل إليه العلماء من أن بصمات أنامل اليد لا تتشابه عند بني الإنسان ، فكل فرد له بصمات يتميز بها عن غيره ، ويمكن أن تكشف عن شخصيته ، وإعادة هذه البصمات المختلفة المتميزة عند الحياة الثانية على ما كانت عليه لكل فرد عند الحياة الأولى شيء لا يعظم على الله سبحانه ، ولا شك أن انطواء الآية على هذه الحقيقة العلمية التي لم يكشف عنها العلم إلا حديثاً ضرب من ضروب الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ، وليس في مثل هذا الفهم من تكلف ، لأن القرآن يفهم عند المحققين من العلماء بحسب الدلالة المباشرة لألفاظه ، وبحسب الدلالة الدقيقة غير المباشرة .

وصدق الله العظيم :

﴿ سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ .

(آية ٥٣ سورة فصلت)

إنه وعد الله لعباده . . ولقد صدق الله وعده ، فكشف عن أشياء من خفايا هذا الكون ، ومن خفايا الأنفس على السواء ، في خلال أربعة عشر قرناً تلت هذا الوعد ، وما يزال يكشف ، وعن طريق العلم المادي يتجمع موكب الإيمان من فجاج شتى ، وهناك أفواج وأفواج تتجمع من بعيد عن هذا الطريق . . على الرغم من موجة الإلحاد الطاغية . . وسيظل طريق الإعجاز العلمي ، في بيان آيات الله في الآفاق وفي الأنفس سبيلاً إلى الإيمان . . وذلك وعد الله !

فهل آن لأمة الإسلام أن تتقدم ركب العلم كما كان السلف الصالح ، حتى يبصر الشاردون المبعدون في تيه الضلال طريق الإيمان ؟ !

وبعد أن عرفنا وسطية الإسلام . . وأن الأمة الإسلامية هي الأمة الوسط بكل

معاني الوسط . . سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل . . أو من الوسط بكل معانيه . . ومنها الوسط في التفكير والشعور . . والزمان . . والمكان . . نجد أنفسنا مرة أخرى أمام قول الله جل شأنه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤٣) .

(آية ١٤٣ سورة البقرة)

وهنا نبصر الإعجاز العلمي في إثبات أن «الكعبة المشرفة» مركز العالم ، في بحث للمرحوم الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين إبراهيم ، كما نشر في مجلة البحوث الإسلامية - المجلد الأول - العدد الثاني - تحت العنوان التالي :

إسقاط جديد للكرة الأرضية حول مدينة مكة المكرمة، لمعرفة اتجاهات القبلة للصلاة في جميع مدن العالم :

مع مراعاة أنه قسم البحث إلى أربعة فصول ، واقتضت المنهجية أن نقدمه كاملاً في بحث واحد فيما يلي (١) :

(١) ذكرت المجلة تعريفاً بالمرحوم الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين أحمد إبراهيم ، خلاصته أنه من مواليد القاهرة عام ١٩١٣ م .

- وقد تخرج في كلية الهندسة المدنية مع مرتبة الشرف - جامعة القاهرة ١٩٣٨ م ، وحصل على ماجستير في المساحة التصويرية ١٩٤٣ ، ودكتوراه في نفس التخصص ١٩٥٠ م .

- وعمل معيداً بالكلية ١٩٣٨-١٩٤٤ ، ومدرساً ١٩٤٤-١٩٥٣ ، وأستاذاً مساعداً ١٩٥٣-١٩٦١ ، وأستاذاً للمساحة والجيوديسية بجامعة أسيوط ١٩٦١-١٩٧١ ، وأستاذاً بجامعة الرياض ١٩٧١-١٩٧٥ م ، ومن قبل أستاذاً بجامعة بغداد ١٩٤٤-١٩٤٦ ، وأستاذاً منتدباً بالمعهد العالي للمساحة بالقاهرة ، وجامعة الأزهر ، وجامعة القاهرة .

- وقام بتدريس المساحة المستوية ، والطبوغرافية ، والجيوديسية ، ومساحة المناجم ، والمساحة التصويرية ، والجيولوجيا التصويرية ، ونظرية الأخطاء ، والفلك الكروي .

- وكان رئيس قسم الهندسة المدنية بأسيوط ١٩٦٣-١٩٦٩ ، ووكيل كلية الهندسة في الجامعة نفسها ١٩٦٤-١٩٦٨ ، ورئيس قسم الهندسة المدنية بالرياض ١٩٧١-١٩٧٣ .

- وكان عضو لجنة المساحة التصويرية المصرية ممثلاً للجامعات المصرية ، وعضو لجنة إنشاء كلية الهندسة بجامعة الأزهر ووضع المناهج الخاصة بها ١٩٦١ ، وعضو لجنة إنشاء المعهد العالي للمساحة بمصر ورعاية المناهج الخاصة به ١٩٦٣-١٩٧١ ، وعضو لجنة الترقيات العلمية لدرجة الأستاذية بالجامعات المصرية .

- فضلاً عن الكتب والمؤلفات التالية : كتاب المساحة المستوية ، وكتاب المساحة الطبوغرافية ، وكتاب المساحة الجيوديسية ، ونظرية الأخطاء ، وقد طبعت هذه الكتب عدة طبعات بالعربية ، كما قام بتأليف كتاب الفلك الكروي ، وكتاب مساحة المناجم ، وكتاب المساحة التصويرية ، ولكن لم تطبع هذه الكتب ، كما قام بتعريب كتاب المساحة التصويرية الأرضية ، للأستاذ ماكس زيلر .

- وله أبحاث ومقالات علمية ، هي : إدخال تعديلات لتبسيط بعض الأدوات المساحية لإقامة وإسقاط الأعمدة ، وتصميم جهاز لرسم القطاعات الطولية لسطح الأرض ، والانتقال النسبي لمواقع النفط في الصور الجوية نتيجة لإمالة هذه الصور ، ونشر بمجلة «الفوتوجرامتري» الأمريكية ١٩٥١ ، ولاؤية المجسمة والاستفادة منها في المساحة التصويرية ، ونشر بمجلة «الهندسة المدنية» المصرية ١٩٥٣ ، وقام بتصميم ثلاثة أنواع من جهاز تعيين القبلة من أي مكان من الأرض ، وتعيين مواقيت الصلاة في أي زمان ومكان على سطح

الأرض ، والبحث الذي معنا وهو «إسقاط جديد للكرة الأرضية حول مكة المكرمة لمعرفة اتجاهات القبلة للصلاة في جميع بلدان العالم» ، كما قام بتعيين دقة القياسات الإلكترونية في الظروف الجوية الخاصة بالملكة العربية السعودية ، وهذا البحث مسجل بمركز البحوث بكلية الهندسة بجامعة الرياض .

- وقام بالإشراف على الأبحاث التالية : استعمال التصوير الجوي والأرضي في أعمال مساحة المناجم ، ماجستير بجامعة أسيوط ١٩٦٤ ، واستعمال التصوير الجوي في تخطيط وتصميم الطرق ، دكتوراه بجامعة عين شمس ١٩٦٤ ، وتحليل وتعيين العوامل المؤثرة في دقة إنتاج الخرائط باستعمال أجهزة رسم الخرائط التصويرية من الدرجة الأولى والثانية ، دكتوراه بجامعة عين شمس ١٩٦٤ ، والمقارنة بين الطرق المختلفة للقياسات التكمومترية ، ماجستير بجامعة الأزهر ١٩٧٠ ، والمبالغة في الارتفاعات عند الرؤية المجسمة للصور الجوية ، ماجستير بجامعة أسيوط ١٩٥٠ ، واستعمال الصور الجوية في أخذ الإحصاءات (قراءة الصور) على مدينة القاهرة ، ماجستير بجامعة أسيوط ١٩٧٠ ، وتحليل العوامل المؤثرة في المبالغة في الارتفاعات بقصد تعيين الارتفاعات الصحيحة عند الرؤية ، دكتوراه بجامعة أسيوط ١٩٧١ ، وإنشاء وترتيب النماذج المصورة المختلفة لقراءة الصور على القطر المصري ، دكتوراه بجامعة أسيوط ١٩٧١ .

- والتقارير العلمية التالية : تقرير خاص بتعيين أفضل المناسيب لاستخراج الطاقة الكهربائية من منخفض القطارة بالقطر المصري ، بالتعاون مع الأستاذ الدكتور حسن مصطفى ١٩٥٣ ، وتقرير لحساب شركة سيناء للمنجنير حول الخرائط اللازمة لعمليات التعدين لهذه الشركة ١٩٦١ ، وتقرير لحساب المؤسسة الاقتصادية المصرية ، لغرض إنشاء وحدة للصور الجوية لعمل الخرائط الجيولوجية اللازمة لشركات التعدين في هذه المؤسسة ١٩٦١ ، وتقرير مقدم إلى المديرية العامة للمصالح العقارية (مديرية المساحة والتحسين العقاري) بالجمهورية العربية السورية حول استعمال التصوير الجوي وإمكانية تطبيقه على أعمال المساحة الأرضية في هذه البلاد ، يوليو ١٩٧٣ م .

مقدمة :

لقد دفعني إلى هذا البحث ، حاجة الناس الماسّة من المسلمين ، إلى معرفة اتجاه القبلة للصلاة عندما يحين وقتها ، ويكونون في أماكن بعيدة عن المساجد ، أو في بلاد غير المسلمين ، كما يحدث غالباً لطلاب البعثات .

ولقد قمتُ سابقاً بتصميم أكثر من جهاز صغير ، يستطيع الإنسان وضعه في جيبه ، أو حمله معه في أي مكان لتعيين اتجاه القبلة للصلاة ، ولكنني لم أوفق حتى الآن في تصنيع أي واحد من هذه النماذج المذكورة لتعميمه بين الناس بثمن معقول لا يزيد على بضعة ريالات ، وذلك لعدم وجود رأس المال اللازم للبدء في التصنيع .

لذلك فكرت في عمل خريطة جديدة للكرة الأرضية ، أجعل فيها مدينة «مكة المكرمة» مركزاً لهذا الإسقاط ، ويكون الهدف من ذلك بيان اتجاهات القبلة للصلاة على هذه الخريطة ، ثم طبع عدد كبير من هذه الخريطة الجديدة ، وتعميمها بين المسلمين ، وهذا المشروع يتكلف قدراً أقل كثيراً من تصنيع الجهاز الخاص ، وهو جهاز تعيين اتجاه القبلة .

ولكن لا يخفى أن الخريطة الجديدة تعطينا فقط اتجاه القبلة ، ثم نحتاج بعد ذلك إلى الاستعانة بجهاز البوصلة المعتاد ، وهو ميسر في كل مكان .

ومما يجدر ذكره في هذه المقدمة ، أنني بعدما وضعت الخطوط الأولى في هذا البحث ورسمت عليها القارات الأرضية ، وجدت أن «مكة المكرمة» هي مركز لدائرة تمر بأطراف جميع القارات ، أي أن الأرض اليابسة على

سطح الكرة الأرضية موزعة حول «مكة المكرمة» ، توزيعاً منتظماً ، وأن مدينة «مكة المكرمة» في هذه الحالة تعتبر مركزاً للأرض اليابسة ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا
وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۖ﴾ .

(آية ٧ سورة الشورى) .

تعيين الاتجاه بين مكانين على سطح الكرة الأرضية :

إن تعيين الاتجاه بين مكانين على سطح مستو ، هو الخط المستقيم الذي يصل بينهما ، وأما الاتجاه بين مكانين على سطح كروي فلا يكون خطأ مستقيماً ، ولكنه يكون قوساً من دائرة ، وعلى ذلك يمكن بيان الاتجاه بين مكانين على سطح الأرض بعدد كثير من الأقواس الدائرية ، ويعتبر الاتجاه الصحيح بين هذه الأقواس هو أقصرها طولاً ، وهو قوس الدائرة العظمى المارة بهذين المكانين ، والدائرة العظمى هي الدائرة التي يمر مستواها بمركز الكرة الأرضية ، ولا يوجد غير اتجاه واحد صحيح في هذه الحالة .

وهذا الاتجاه لا يقاس من الخرائط الموجودة في الأطالس المصورة المعروفة بيننا ، ولكنه يجب حسابه باستعمال المثلث الكروي الذي يربط بين هذين المكانين وبين القطب الأرضي الشمالي .

إن المدن على سطح الكرة الأرضية تعين أماكنها بخطوط الطول وخطوط العرض ، والمعروف أن خطوط العرض تبدأ من خط الاستواء بمقدار عددي

يساوي صفراً ، ثم تتجه شمالاً وجنوباً إلى كل من القطبين الشمالي والجنوبي حتى يصل الرقم العددي لها إلى ٩٠ من درجات خطوط العرض ، ومعنى ذلك أن المقدار العددي لخط العرض يمثل الزاوية المركزية^(١) المحصورة بين مستوى دائرة الاستواء ، وبين موضع هذا الخط على سطح الكرة الأرضية ، وجميع خطوط العرض تمثل دوائر كاملة في مستويات متوازية ، ولكنها مختلفة في أطوال أقطارها ، وأكبرها قطراً هي دائرة الاستواء ، وهي الدائرة العظمى الوحيدة بين دوائر خطوط العرض جميعها ، وقطرها يساوي القطر الأكبر للكرة الأرضية ، وهي حوالي ١٢,٧٦٠ كم تقريباً ، ثم بعد ذلك تنقص أقطار هذه الدوائر حتى تصل إلى الصفر عند القطبين .

ولما كان من الواجب عند تعيين انحراف مكان ما عن مكان آخر ، أن يكون حساب هذا الانحراف هو أقصر بعد بينهما ، لذلك فإن تعيين الانحراف الصحيح بين أي بلدين يجب أن يكون في مستوى الدائرة العظمى المارة بكل منهما معاً ، وليس على محيط أي دائرة أخرى غيرها ، أما خطوط الطول فهي أنصاف دوائر عظمى ، وهذه الدوائر تمر بالقطبين الشمالي والجنوبي ، وكذلك تتجمع عندهما ، ويبدأ ترقيم هذه الدوائر من خط الطول الأساسي المار بمركز جرينوتش قرب مدينة لندن عاصمة إنجلترا ، وهو خط الطول صفر ، ومن عند هذا الخط تتجه خطوط الطول شرقاً وغرباً حول الكرة الأرضية ، حتى تتقابل عند الجهة الخلفية له من سطح الأرض ، وعلى ذلك فإن خطوط الطول تبدأ من صفر إلى ١٨٠ درجة شرقاً ، وأيضاً من صفر إلى ١٨٠ درجة غرباً .

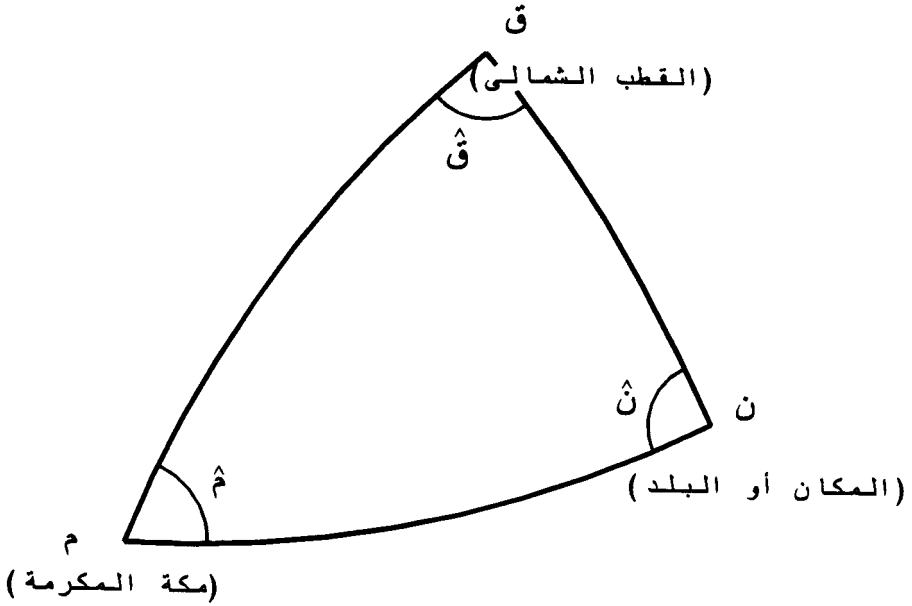
(١) الزاوية المركزية هي الزاوية التي رأسها عند مركز الكرة الأرضية .

ونلاحظ أن جميع خطوط الطول تكون متعامدة مع جميع خطوط العرض على سطح الكرة الأرضية ، وأن المسافات الأفقية بين خطوط الطول وبعضها تضيق كلما اتجهنا شمالاً أو جنوباً ، بالنسبة إلى خط الاستواء ، حتى تصل إلى الصفر عند القطبين ، كما نلاحظ كذلك أن مستويات هذه الدوائر تمر جميعها بمركز الكرة الأرضية ، أي أنها أنصاف دوائر عظمى .

وسوف نراعي بإذن الله تعالى في رسم الإسقاط المقترح بيانه في هذا البحث ، أن يكون هذا الإسقاط محتفظاً بخاصية صحة الاتجاهات ، وكذلك صحة المسافات فقط ، أما صحة التشابه فليست من أغراض هذا البحث ، كما أن صحة الاتجاهات والمسافات ستكون بين مدينة «مكة المكرمة» وبين جميع مدن العالم قاطبة ، وذلك بقصد التمكن من معرفة الاتجاه الصحيح للصلاة في جميع بقاع العالم ، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق .

سبق أن علمنا أن تعيين الاتجاه الصحيح بين مكانين على سطح الكرة الأرضية ، يكون على قوس الدائرة العظمى المارة بهذين المكانين ، وكذلك علمنا أن المدن على سطح الكرة الأرضية تعين مواضعها بخطوط الطول وخطوط العرض ، وعلى ذلك نرى أنه عندما نريد تعيين اتجاه الصلاة لأي بلد ما ، يجب معرفة مقدار خط الطول وخط العرض المارين بهذا البلد ، وذلك بالإضافة إلى معرفة مقدار خط الطول والعرض المارين بمدينة «مكة المكرمة» .

ثم نجعل كلا من هذا البلد ، ومن مدينة « مكة المكرمة » طرفين في مثلث كروي ، وأما الطرف الثالث فإنه يكون القطب الشمالي الأرضي ، انظر (الشكل رقم ٦) (١) :



شكل رقم (٦)

(١) يلاحظ أنه ذكر رقم الصفحة التي بها الشكل فقط ، واقتضت منهجية البحث أن نذكر لكل شكل رقماً خاصاً .

نفرض أن خط طول مدينة «مكة المكرمة» = $ل_1$

وأن خط عرض مدينة «مكة المكرمة» = $ض_1$

وأن خط طول المكان = $ل_2$

وأن خط عرض المكان = $ض_2$

في الشكل رقم (٦) نجد أن :

ق = القطب الأرضي الشمالي .

م = مدينة «مكة المكرمة» .

ن = أي مكان على سطح الأرض (البلد) .

> م = زاوية انحراف المكان بالنسبة إلى «مكة المكرمة» .

> ن = زاوية انحراف «مكة المكرمة» بالنسبة إلى البلد ، وهي زاوية اتجاه القبلة .

> ق = زاوية الفرق بين خط طول البلد وبين خط طول «مكة المكرمة» = $(ل_1 - ل_2)$.

القوس (ن ق) = متمم خط عرض البلد = $(٩٠ - ض_2)$.

القوس (م ق) = متمم خط عرض «مكة المكرمة» = $(٩٠ - ض_1)$.

القوس (م ن) = المسافة بين «مكة المكرمة» وبين البلد .

وهذا المثلث الكروي يمكن حساب المعلومات المجهولة فيه من المعلومات

المعلومة ، وهي (ض_١ ، ل_١) ، (ض_٢ ، ل_٢) ، وعلى ذلك نستطيع تعيين مقدار

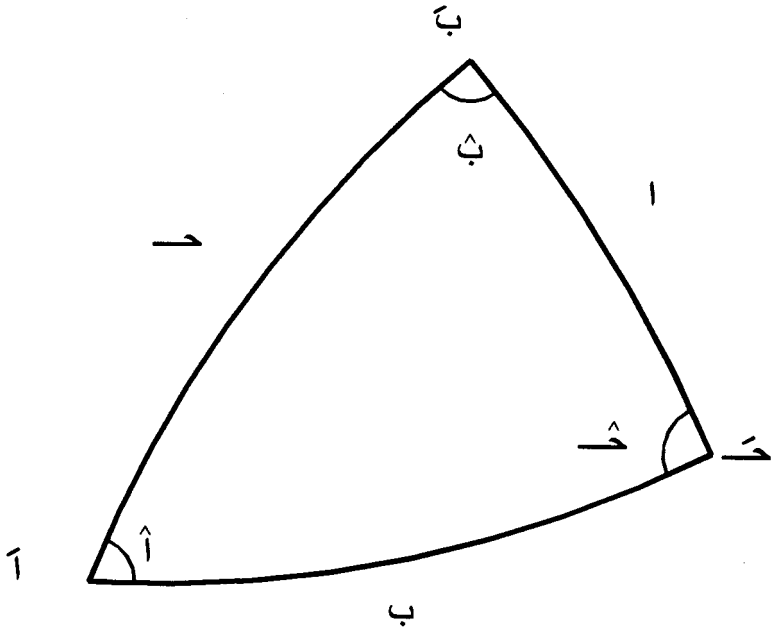
الزاوية (> ن) وهي زاوية اتجاه القبلة عند هذا المكان ، كما نستطيع تعيين بعد هذا المكان عن مدينة «مكة المكرمة» ، وأيضاً يمكننا تعيين انحراف هذا المكان عن «مكة المكرمة» ، ومن معرفة هذا الانحراف الأخير والمسافة بين المكان وبين «مكة المكرمة» يمكننا رسم خريطة العالم المطلوبة في هذا البحث .

ولقد وجدنا من المناسب لرسم الخريطة المطلوبة ، أن نأخذ أولاً الأمكنة المطلوبة عند تقاطع خطوط الطول مع خطوط العرض لكل عشر درجات ، ونحسب أبعاد وانحرافات هذه الأمكنة عن مدينة «مكة المكرمة» ، ثم نصل بعد ذلك بين نقط خطوط الطول المتساوية في المقادير مع بعضها ، فنحصل على خطوط الطول في الإسقاط المطلوب ، وبالمثل نصل بين نقط خطوط العرض المتساوية في المقادير مع بعضها ، فنحصل على خطوط العرض المطلوبة في هذا الإسقاط أيضاً ، أي أننا قد حصلنا بذلك على إسقاط خطوط الطول والعرض الأرضية بالنسبة إلى مدينة «مكة المكرمة» ، ثم بعد ذلك نرسم حدود القارات وباقي التفاصيل على هذه الشبكة من الخطوط ، ولقد وجدنا في بعض الأماكن أنه من الواجب تصغير الأمكنة إلى خمس درجات بدلاً من عشر ، وكذلك في بعض الأمكنة القليلة الأخرى وجدنا من المناسب تصغير الأمكنة إلى درجة واحدة .

وهذا الإسقاط يعتبر إسقاطاً متوازياً ومتكافئاً في المسافات للعالم كله ، بالنسبة إلى مدينة «مكة المكرمة» .

حساب البيانات المطلوبة من المثلث :

(الشكل رقم ٧) يمثل المثلث الكروي الذي رؤوسه النقاط أ ، ب ، ح ، وزواياه ، > ا ، > ب ، > ح ، وأضلاعه ا ، ب ، ح .



شكل رقم (٧)

من قانون الجيوب في المثلث الكروي ، نجد أن :

$$\frac{\text{ح ا}}{\sin \text{ح ا}} = \frac{\text{ح ب}}{\sin \text{ح ب}} = \frac{\text{ح ج}}{\sin \text{ح ج}}$$

ولحساب قيمة الزاوية > ح ، نجد أن :

$$\text{ح ا} > \text{ح} = \frac{\text{ح ا} > \text{ب}}{\sin \text{ح ا} > \text{ب}} \times \sin \text{ح ا} \quad (١)$$

ومن قانون جيوب التمام في المثلث الكروي ، نجد أن :

$$\text{ح ا} > \text{ب} = \text{ح ا} > \text{ج} + \text{ح ا} > \text{ب} . \text{ح ا} > \text{ج}$$

∴ ب = حتا^١ (حتا ١ . حتا ح + حا ١ . حا ح . حتا > ب (٢)

والقانون رقم (٢) يحسب المسافة بين المكانين (١⁻ ، ح -) .

وبالتعويض في المعادلة رقم (١) ، ينتج أن :

$$\text{حا} > \text{ح} = \text{حا} > \text{ح} \times \text{حا} > \text{ب} \times \text{قتا} (\text{حتا} - ١) (\text{حتا} ١ . \text{حتا} > \text{ح} +$$

حا ١ . حا ح . حتا > ب) (٣)

وبالمثل فإن القانون رقم (٤) :

$$\text{حا} > ١ = \text{حا} ١ \times \text{حا} > \text{ب} \times \text{قتا} (\text{حتا} - ١) (\text{حتا} ١ . \text{حتا} > \text{ح} +$$

حا ١ . حا ح ، حتا > ب) (٤)

يعطينا زاوية انحراف المكان حَ عن المكان أ .

أي أنه من هذه القوانين السابقة يمكن تعيين البيانات اللازمة لإسقاط الخريطة المطلوبة ، وبالربط بين المثلث الكروي شكل (٦) ، وبين المثلث الكروي شكل (٧) ، أي أننا نعتبر أن مدينة «مكة المكرمة» تمثل رأس المثلث أ ، وأن المكان الثاني يمثل رأس المثلث حَ ، وأن القطب الشمالي يمثل رأس المثلث بَ ، وبفرض أن :

خط طول «مكة المكرمة» = $ل_١$

خط طول المكان = $ل_٢$

خط عرض «مكة المكرمة» = $ض_١$

خط عرض المكان = $ض_٢$

ثم بالتعويض في القوانين السابقة ، نجد أن :

$$م ن = حتا-١ (حا ض٢ . حاض١ + حتا ض١ . حتا ض٢ .$$

$$(٢) حتا(ل٢-ل١))$$

$$حا > ن = حتا ض١ . حا(ل٢-ل١) . قتا(حتا-١) حاض٢ .$$

$$(٣) حاض١ + حتا ض٢ . حتا ض١ . حتا(ل٢-ل١))$$

$$حا > م = حتا ض٢ . حا(ل٢-ل١) . قتا(حتا-١) حاض٢ .$$

$$(٤) حاض١ + حتا ض٢ . حتا ض١ . حتا(ل٢-ل١))$$

ويتطبيق هذه القوانين على مدينة الرياض ، وبفرض أن :

$$\text{خط عرض «مكة المكرمة»} = ٤٣٧, ٢١^\circ \text{ شمالاً .}$$

$$\text{وخط عرض مدينة الرياض} = ٢٤, ٦٢٥^\circ \text{ شمالاً .}$$

$$\text{وخط طول «مكة المكرمة»} = ٨١٧, ٣٩^\circ \text{ شرقاً .}$$

$$\text{وخط طول مدينة الرياض} = ٧٢٠, ٤٦^\circ \text{ شرقاً .}$$

نجد أن :

أولاً : المسافة بين «مكة المكرمة» ومدينة الرياض ، بالتعويض في المعادلة

رقم (٢) ، ينتج أن :

$$م ن = حتا-١ (حا ٢٤, ٦٢٥ \times حا ٤٣٧, ٢١ + حتا ٢٤, ٦٢٥ \times حتا ٢٤, ٦٢٥$$

$$٤٣٧, ٢١ \times حتا ٧٢٠, ٤٦ - ٨١٧, ٣٩) = ١٠٦٢, ٧^\circ = \text{طول القوس (م ن)}$$

بالدرجات .

$$\text{وبفرض أن نصف قطر الأرض المتوسط} = ٦٣٧٠ \text{ كم .}$$

إذن تكون المسافة بين «مكة المكرمة» وبين مدينة الرياض :
 $= ٠٤٦٢, ٧٩٠ \text{ كم} = \text{طول القوس (م ن) بالكيلو مترات .}$

ثانياً : انحراف القبلة من مدينة الرياض ، بالتعويض في المعادلة رقم (٣) ،
 ينتج أن :

$$\begin{aligned} \text{حـا} > \text{ن} = \text{حـتا } ٤٣٧, ٤٢١ \times \text{حـا } (٤٦, ٧٢٠ - ٣٩, ٨١٧) \times \text{قـتا (حـتا}^{-١} \text{حـا)} \\ ٤٦, ٦٢٥ \times ٢٤, ٤٣٧ + ٢١, ٦٢٥ \times ٢٤, ٤٣٧ \times ٢١, ٤٦, ٧٢٠ \text{ حـتا } (٣٩, ٨١٧ - \\ ٠, ٩٠٤٣٣٧٩) = \end{aligned}$$

$$\therefore \text{ن} > \text{حـا} = ٠٦٤, ٧٣٤٣ \text{ أو } (٠١٨٠ - ٠٦٤, ٧٣٤٣) .$$

ولما كانت الزاوية ($\text{ن} > \text{حـا}$) أكبر من ٩٠° .

$$\therefore \text{ن} > \text{حـا} = ٠١١٥, ٢٦٥٧ .$$

أي أن الانحراف الدائري لمدينة «مكة المكرمة» ، بالنسبة إلى مدينة الرياض :

$$= ٠٣٦٠ - ٠١١٥, ٢٦٥٧ = ٠٢٤٤, ٧٣٤٣ .$$

$$= ٠٣ - ٤٤ - ٢٤٤^\circ \text{ وهذا هو انحراف القبلة للصلاة .}$$

والانحراف الدائري هو الزاوية التي تقاس ابتداء من خط الشمال
 الجغرافي ، وتدور إلى جهة اليمين حتى تصل إلى الاتجاه المرغوب فيه .

وعند استعمال البوصلة المغناطيسية تتجه الإبرة إلى الشمال المغناطيسي
 الأرضي ، وليس إلى الشمال الجغرافي ، وتكون زاوية الانحراف التي تقرأها
 البوصلة في هذه الحالة هي زاوية الانحراف الدائري المغناطيسي .

والفرق بين الشمال المغناطيسي والشمال الجغرافي ليس ثابتاً ، يعتره بعض

التغيرات مع اختلاف الزمان واختلاف المكان على سطح الأرض ، والفرق بينهما ليس كبيراً .

وعلى ذلك فإنه من الممكن استعمال جهاز البوصلة العادية عند تعيين اتجاه الصلاة في الأماكن الخاصة .

وأما في المساجد والأماكن المعتمدة للصلاة فالأفضل عند بنائها تعيين اتجاه القبلة عن الشمال الجغرافي باستعمال الأرصاد الفلكية ، ولقد يَسِّرُ الله سبحانه وتعالى لنا علم ذلك ، وأمدنا بالأجهزة والآلات الدقيقة لنتفـع بها ، ونكون على علم ويقين عند التوجه للصلاة إلى البيت الحرام ، والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق .

ثالثاً^(١) : انحراف مدينة الرياض عن مدينة «مكة المكرمة» بالتعويض في المعادلة رقم (٤) ، ينتج أن :

$$\begin{aligned} \text{حـا} > \text{م} = \text{حـتا } ٢٤,٦٢٥ \times \text{حـا } (٤٦,٧٢٠ - ٣٩,٨١٧) \times \text{قـتا } (١ - \text{حـتا}^{-١}) \\ ٢٤,٦٢٥ \times \text{حـا } ٤٣٧,٢١ + \text{حـتا } ٢٤,٦٢٥ \times \text{حـتا } ٤٣٧,٢١ \times \text{حـتا } (٤٦,٧٢٠ - \\ - (٣٩,٨١٧) \\ = ٠,٨٨٣١٩١٥ \end{aligned}$$

$$\therefore \text{م} = ٠,٢٩٨,٠٦٢ = ٤٧^{\circ} ٠١' ٠٦٢''$$

وهذا الانحراف بالإضافة إلى المسافة بين مدينة «مكة المكرمة» وبين مدينة الرياض ، هو الذي استعمل في إسقاط خريطة العالم بالنسبة إلى «مكة المكرمة» .

(١) لم يذكر (ثالثاً) في البحث ، وإنما ذكر الكلام بعد ذلك ، وواضح أنه سهو أو خطأ مطبعي !

ملاحظات :

- بإضافة زوايا المثلث الكروي الثلاث السابق حسابها ، نجد أن

مجموعها يساوي :

$$> \text{ن} = ٥٧^\circ \quad ١٥' \quad ١١٥''$$

$$> \text{م} = ٤٧^\circ \quad ٠١' \quad ٦٢''$$

$$> \text{ق} = ١١^\circ \quad ٥٤' \quad ٠٦''$$

$$١٨٤ \quad ١١ \quad ٥٥$$

أي أن مجموع الزوايا الداخلية في المثلث الكروي تزيد على ١٨٠° .
وهذه الخاصية دائمة في المثلثات الكروية ، وتمتاز بها عن المثلثات المستوية .

- في المثال السابق كانت قيمة الزاوية (ض_١) أصغر من قيمة الزاوية (ض_٢) وكانت إشارة كل منهما موجبة ، أي أن الإشارة الجبرية بينهما متوافقة ، وعلى ذلك كانت قيمة الزاوية (>م) أصغر من ٩٠° ، وكانت الزاوية (>ن) أكبر من ٩٠° .

وأما إذا كانت قيمة كل من المقدارين ض_١ ، ض_٢ متساويتين في المقدار والإشارة ، فإننا نلاحظ من القانونين (٣ ، ٤) أن :

$$\text{ح} > \text{ن} = \text{حتا ض}_١ \times \text{ك}$$

$$\text{ح} > \text{م} = \text{حتا ض}_٢ \times \text{ك}$$

حيث إن (ك) مقدار ثابت في كل من المعادلتين .

وعندئذ تصير قيمة كل من الزاويتين ($\angle م$ ، $\angle ن$) متساويتين ، وهذه الحالة تقع بين البلدان التي تشترك مع مدينة «مكة المكرمة» في نفس خط العرض .

- الأماكن التي تشترك مع «مكة المكرمة» في نفس خط الطول ، تقع جميعها في هذا الإسقاط على خط مستقيم ، هو خط الشمال الجنوب الجغرافي ، المار بها ، وذلك لأنه عند الرجوع إلى المعادلة رقم (٤) ، نجد أن $(ل - ل) =$ صفر دائماً .

∴ $\angle م =$ صفر دائماً ، وذلك بصرف النظر عن خط عرض المكان ، ويحدث ذلك أيضاً في المقدار $\angle ن$ ، أي أن اتجاه القبلة في المدن التي تشترك مع مدينة «مكة المكرمة» في خط الطول ، يكون اتجاه الصلاة فيها إلى الشمال أو الجنوب الجغرافي تماماً .

والمدن التي تتجه في الصلاة إلى الجنوب الجغرافي ، تبدأ من عند خط عرض «مكة المكرمة» وتتجه شمالاً ، أي تبدأ من خط عرض $(+ ٤٣٧ , ٢١^\circ)$ إلى خط عرض $(+ ٩٠^\circ)$ عند القطب الشمالي ، وأما المدن التي تقع على خطوط العرض في جنوب «مكة المكرمة» ، أي من خط عرض $(+ ٤٣٧ , ٢١^\circ)$ إلى خط الاستواء ، ثم من خط الاستواء إلى خط عرض $(- ٩٠^\circ)$ عند القطب الجنوبي ، فإن اتجاه القبلة في هذه المدينة يكون ناحية الشمال الجغرافي تماماً ، وإذا أخذنا خط الطول المقابل لخط طول «مكة المكرمة» ، وهو خط الطول $(١٨٣ , ٤٠^\circ)$ غرباً ، فإن اتجاه القبلة للمدن الواقعة على هذا الخط ، كذلك تكون الصلاة فيها نحو الشمال أو الجنوب الجغرافي أيضاً .

فالمدن الواقعة على خطوط العرض التي بين خط العرض $(- ٤٣٧ , ٢١^\circ)$ وبين القطب الجنوبي تتجه في الصلاة نحو الجنوب الجغرافي تماماً .

وأما المدن الواقعة على خطوط العرض التي تتجه شمالاً وتبدأ من خط العرض (-٤٣٧ ، ٢١°) إلى خط العرض صفر ، أي عند خط الاستواء ، ثم من خط الاستواء إلى القطب الشمالي ، فإن اتجاه الصلاة فيها يكون إلى ناحية الشمال الجغرافي تماماً .

وعلى ذلك نجد أن المدينة الواقعة على خط عرض (-٤٣٧ ، ٢١°) وخط طول (١٨٣ ، ٤٠°) غرباً تجوز فيها الصلاة نحو كل من الشمال والجنوب الجغرافي .

وفي هذا المكان كذلك تصح الصلاة نحو جميع الاتجاهات شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، وذلك لأن هذا المكان يقع على امتداد قطر الكرة الأرضية المار بمدينة «مكة المكرمة» تماماً ، أي أن جميع الدوائر العظمى التي تمر بـ «مكة المكرمة» تمر كذلك بهذا^(١) الموضع من سطح الكرة الأرضية ، وتكون المسافات المقاسة في جميع الاتجاهات بين «مكة المكرمة» وبين هذا المكان متساوية في المقادير ، وبذلك تصلح جميعها أن تكون اتجاهات للقبلة الصحيحة ، وهذا المكان من الكرة الأرضية يقع في جزيرة موروروا ، من مجموعة جزر بولنيزيا ، في المحيط الهادي ، في وسط المسافة تقريباً بين استراليا وبين أمريكا الجنوبية .

- الأماكن التي تشترك مع مدينة «مكة المكرمة» في خط العرض ، لاتقع على خط مستقيم واحد معها ، ولكن يجمعها خط منحنٍ ، وتختلف عند ذلك اتجاهات القبلة للمدن الواقعة على هذا الخط .

- في الإسقاط المذكور نلاحظ التماثل لخطوط الطول والعرض ، حول خط الطول المار بمدينة «مكة المكرمة» ، على يمينها وعلى يسارها .

(١) في الأصل خطأ مطبعي ، والصواب ما ذكرناه .

- عند استعمال المعادلات السابق ذكرها ، ينبغي المحافظة على الإشارة الجبرية لكل من خطي الطول والعرض ، بمعنى أن خطوط العرض شمال خط الاستواء تكون إشارتها الجبرية موجبة ، وجنوب خط الاستواء تكون إشارتها الجبرية سالبة ، وكذلك فإن خطوط الطول شرق خط جرينوتش تكون إشارتها الجبرية موجبة ، وغرب خط جرينوتش تكون إشارتها الجبرية سالبة .

حسابات المسافات والانحرافات اللازمة لإسقاط الخريطة المطلوبة :

سبق أن ذكرنا أنه لرسم خريطة العالم بالنسبة إلى «مكة المكرمة» ، أننا سنأخذ نقط تقاطع خطوط الطول مع خطوط العرض على سطح الكرة الأرضية ، أساساً لرسم خطوط الطول والعرض النهائية لخريطة العالم الجديدة في هذا البحث .

ولقد استعملنا في ذلك جهاز الحاسب الإلكتروني لتعيين مقادير المسافات والانحرافات المطلوبة لنقط التقاطع هذه بالنسبة إلى «مكة المكرمة» .

وسنذكر فيما يلي البرنامج المستعمل في حساب هذه المقادير ، وسنكتفي بذلك ، حيث إنه لا داعي لذكر الأرقام العددية المحسوبة في هذه العمليات لكثرتها الكبيرة ، وفي هذا البرنامج استعملنا المعادلتين رقم (٢) ، ورقم (٤) من معادلات المثلث الكروي المذكورة سابقاً .

كما استعملنا أيضاً الجهاز الحاسب الإلكتروني في رسم خطوط الطول وخطوط العرض المطلوبة لهذا الإسقاط الجديد .

وفيما يلي البرنامج المستعمل في رسم هذه الخطوط مباشرة من الحاسب

الإلكتروني ، ونموذجاً من حساب الجداول لخط العرض (٥٣٠) وتقاطعه مع خطوط الطول المتعامدة عليه جميعها .

ويلي ذلك خريطة الإسقاط المطلوبة للكرة الأرضية ، كما رسمت بمعرفة هذا الجهاز .

وبهذه المناسبة أرى من الواجب على أن أنوه بكل سرور وتقدير بالمجهود المشكور الكبير الذي قام به الأستاذ الدكتور محمد الشافعي عبداللطيف في تحضير البرنامج للجهاز الحاسب الإلكتروني ، للحصول على الجداول ، وكذلك لرسم خطوط الطول والعرض ، جزاه الله تعالى عنا كل خير .

(الجدول رقم ٣) :

```

001 00000 HPAI, L, "KEBLA"
002 00000 BEGIN
003 00001 COMMENT          PROGRAM FOR KEBLA DIRECTION
004 00001                  VVVVVVVVVVVVVVVVVVVVVVVVV
005 00001  THIS PROGRAM CALCULATES AND PLOTS LINES OF CONSTANT LATITUDES,
006 00001  LINES OF CONSTANT LONGITUDES AND LINES OF CONSTANT BEARING TO
007 00001  MAKKA USING DIFFERENT METHODS.
008 00001  THE INPUT TO THE PROGRAM IS 2 INTEGERS V,U. THEY ARE FED IN THIS
009 00001  ORDER ON ONE CARD ATO BE READ IN FREE FORMAT.
010 00001  U INDICATES THE OUTPUT UNIT NUMBER:
011 00001          E.G. U = 6 FOR L. P.
012 00001  IF U=0 THEN OUTPUT IS SUPRESSED.
013 00001  VINDICATES THE TYPE OF CHART:
014 00001  V = 1 ZENITHAL CHART, CENTER MAKKA.
015 00001  V = 2 CHART WITH EQUIDISTANT LONGITUDES AND ACTUAL BEARING TO MAKKA
016 00001  V = 3 MERCATOR CHART,
017 00001 V = 4  CHART WITH EQUIDISTANT LATITUDES AND LONGITUDES,
018 00001  V = 5 DRAWING OF LINES OF CONSTANT BEARING TO MAKKA (KEBLA DIRECT-
019 00001  TIONS) ON A LATIC FORMED BY ONE OF THE FOREMENIONED CHARTS,
020 00001  IN THIS CASE (V=5) A SECOND INPUT CARD CONTAINING NUMBER CORRES-
021 00001  PONDING TO THE TYPE OF CHART MUST BE GIVEN.
022 00001  AFTER THE END OF THE RUN, THE PROGRAM READS NEW INPUT DATA. IT
023 00001  STOPS WHEN 0,0 ARE READ;
024 00001 INTEGER V, VI;
025 00004 INTEGER A, B, C, L2, X, Y, W;
026 00014 INTEGER J;
027 00015 INTEGER V2;
028 00016 REAL L2I;
029 00020 REAL AR1;
030 00022 REAL FC;
031 00024 REAL B1I, C1I, SC1;
032 00032 REAL A1, B1, C1, AR, CA, CB, F, CM, SC, CC, L2L1, K, CCC, SS, CAR, SAR, F1, S;
033 00076 LABEL ANF, SA, SS, POL, EX, AS, ND;
034 00105 PROCEDURE ANGLE (L2);
035 00106 VALUE L2;
036 00106 REAL L2;
037 00106 BEGIN
038 00112 COMMENT THIS PROCEDURE EVALUATES ANGLE (MAKKA) = A1, ANGLE (CITY) = C1 AND
039 00112  DISTANCE FROM MAKKA = 5 FOR EVERY VALUE OF LATITUDE A AND LONGITUDE
040 00112  L2,
041 00112  THE PARAMETER V2 = 1 WHEN CALLED FROM PART V = 5
042 00112  V2 = 0 WHEN CALLED FROM OTHER PARTS OF THE PROGRAM,
043 00112  AT THE END OF THE PROCEDURE THERE IS A PART USED FOR
044 00112  CALCULATION OF THE COORDINATES ON THE BAPH PLOTTER;
045 00112 IF V2=1 THEN A:=AR/F ELSE
046 00152 AR:=A+F; CAR:=COS(AR); SAR:=SIN(AR);
047 00174 IF ABS(A) = 90 THEN BEGIN B1:=PI/2-SIGN(A) * CM; A1:=90-A; C1:=(90+A)/2;
048 00246  GO TO SS END
049 00247 L2LI:=(L2 - 39.817) * F;
050 00257 CB:= SAR * SC * CAR * CC * COS(L2LI); SS:=SQRT(1-CS*CS);
051 00321 IF ABS(CB)>0.9999 THEN BEGIN B1:=0; A1:=PI/2 END

```

```

052 00351      ELSE
053 00352      BEGIN
054 00352 IF ABS(CB)>0.0001 THEN B1:=ARCTAN(SQRT (1-CB*CB)/ABS(CB))
055 00436      ELSE B1:=PI/2;
056 00450 IF CB<0 THEN B1:=PI-B1;
057 00462 CCC:=(SC-SAR*CB)/CAR/SB;
058 00502 IF ABS(CCC)>0.0001 THEN C1:=FI*ARCTAN(SQRT (1-CCC*CCC)/ABS(CCC))
059 00537      ELSE C1:=90;
060 00551 IF CCC<0 THEN C1:=180-C1;
061 00563 IF L2L1>0 THEN C1:=360-C1;
062 00576 CA:=(SAR-CB*SC)/SB/CC;
063 00616 IF ABS(CA)>0.0001 THEN A1:=FI*ARCTAN(SQRT (1-CA*CA))      ELSE
064 00661      A1:=90;
065 00665 IF CA<0 THEN A1:=180-A1;
066 00677 IF L2L1<0 THEN A1:=360-A1;
067 00711 END CB=1;
068 00711 SS:      S:=6370*B1;
069 00717 COMMENT
070 00717      CALCULATION OF THE COORDINATES ON GRAPH PLOTTER FOR DIFFERENT
071 00717      CASES;
072 00717 IF V=1 THEN
073 00723 BEGIN
074 00723 X:=5000*S*SIN(F*A1)/4.1;
075 00741 Y:=5000*S*COS(F*A1)/4.1;
076 00757 END V=1;
077 00757 IF V=2 THEN
078 00763 BEGIN
079 00763 REAL J, XX;
080 00770 XX:=487/18*(L2-39.817);
081 01006 X:=5000*XX;
082 01014 Y:=5000-XX*CCC/SQRT (1-CCC*CCC)*SIGN(L2-39.817);
083 01072 END V=2;
084 01072 IF V=3 THEN
085 01076 BEGIN
086 01076 X:=27.75*(L2+140);
087 01133 Y:=5000*LN(TAN(45*ABS(A)/2)*F))/F*SIGN(A)*27.75;
088 01174 END V=3;
089 01174 IF V=4 THEN
090 01200 BEGIN
091 01210 X:=27.75*(L2+140);
092 01210 Y:=27.75*(A+90);
093 01217 END V=4;
094 01217 END
095 01220      ANGLE;
096 01220 PROCEDURE CLR(I);
097 01221 VALUE I;
098 01221 INTEGER I;
099 01221 BEGIN
100 01224 COMMENT
101 01224      PROCEDURE FOR CHANGING COLOUR ON GRAPH PLOTTER
102 01224 WRITE (1,# ("PLEASE CHANGING COLOUR TO"));

```

```

103 01252 IF I=1 THEN WRITE (I,("RED"))
104 01271 IF I=2 THEN WRITE (I,("GREEN"))
105 01271 IF I=2 THEN WRITE (I,("BLUE"))
106 01331 PAUSE;
107 01333 END
108 01334      CLR;
109 01334 COMMENT
110 01334
111 01334
112 01334 WRITE (6, #(1H1));
113 01346 WRITE (6, #(50X, "K E H L A U I R E C T I O N"));
114 01400 WRITE (6, #(50X, "====="));
115 01431 READ(7, *, V, V1);
116 01442 F:=PI/180; F1:= 180/PI;
117 01456 CM:= F*21.431; SC:=SIN(CM); CC:=COS(CM);
118 01476 ANF;
119 01476 IF V1=0 THEN WRITE (6, #(" OUTPUT SUPPRESSEU"));
120 01524 WRITE (1, #(" PLEASE CHANGE PAPER ON GRAPH PLOTTER,
121 01557 /ADJUST SAME SCALES ON X AND Y DIRECTIONS"));
122 01606 PAUSE;
123 01610 V2:=0;
124 01612 COMMENT
125 01612
126 01612 IF V=1 THEN
127 01616 BEGIN
128 01616 WRITE (6, #("/" ZENITHAL PROJECTION OF THE GLOBE,"
129 01653 / " WITH MECCA AS CENTER"/));
130 01676 CLR(2);
131 01701 WRITE (11, -1,1,5215,5000);
132 01715 FOR A:=0 STEP 15 UNTIL 360 DO
133 01723 BEGIN
134 01723 Y:=5000+215*SIN(A*F);
135 01764 X:=5000+215*COS(A*F);
136 02000 WRITE (11,1,1,X,Y);
137 02014 END;
138 02020 WRITE (11,-1,1,5175,5000);
139 02034 FOR A:=0 STEP 15 UNTIL 360 DO
140 02042 BEGIN
141 02042 X:=5000+175*COS(A*F);
142 02056 Y:=5000+175*SIN(A*F);
143 02072      WRITE (11,1,1,X,Y);
144 02106 END;
145 02112 WRITE (11,-1,1,4930,4900);
146 02126 WRITE (11, #("002000000000000020M"));
147 02152 A:=90;
148 02154      ANGLE (0.0);
149 02157 Y:=Y-87;
150 02162      WRITE(11,-1,1,4900,Y)
151 02176 WRITE (11, #("0025000000000000N"));
152 02222 A:=-90;
153 02224 ANGLE(0.0);

```

MAIN PROGRAM

PART I
=====;

```

154 02227 Y:=Y-87;
155 02232 WRITE (11,-1,1,4870,Y);
156 02246 WRITE (11,#("00350000000000001755"));
157 02272 IF VI 0 THEN
158 02275 WRITE (VI,
159 02277          #("/ LATITUDE", 7X,
160 02313          " LONGITUDE", 6X, "ANGLE(MAKKA)", 9X, "ANGLE(CITY)", 7X, "DISTANCE",
161 02352 9X, "MAKKA LEFT", 9X, "CITY LEFT"/));
162 02374 FOR A:=90 STEP -10 UNTIL -90 DO
163 02402 BEGIN
164 02402 IF A:= THEN CLR(1);
165 02410 D:=10; IF A>-50 AND A<20 THEN D:=1;
166 02426 EX;
167 02426 FOR L2:=-140 STEP D UNTIL 219 DO
168 02437 BEGIN
169 02437 (1.0*L2);
170 02450 W:=SIGN(S-700);
171 02462 IF L2=-140 THEN W:=-1;
172 02515 IF A=20 AND L2=50 THEN W:=-1;
173 02533 WRITE(11,W,1,X,Y);
174 02547 IF VI 0 THEN
175 02552 WRITE (VI
176 02552          ,(16, I16, F18.2, F20.2, F17.1, F18.2, F19.2.), A, L2, A1, C1, S, (360-A1)
177 02625 (360-C1));
178 02633 IF ABS(A)=90 THEN GO TO POL;
179 02642 IF A=-20 AND L2=-140 OR A=-20 AND L2 = 217 THEN
180 02672 BEGIN
181 02672          FOR W:=1 TO 14 DO
182 02700          BEGIN
183 02700          ANGLE(L2+W/5.0);
184 02717          WRITE (11,1,1,X,Y);
185 02733          END;
186 02737          L2:=L2+2;
187 02742          END;
188 02742          END L2;
189 02746 ANGLE(-140.0);
190 02751 WRITE (11,1,1,X,Y);
191 02765 IF A=-20 THEN BEGIN A:=-25; GO TO EX END;
192 02774 IF A=-25 THEN A:=-20;
193 03002 IF VI 0 THEN
194 03005 WRITE (VI,#(1H /));
195 03020 IF A=0 THEN CLR(2)
196 03026 POL: END
197 03032 ;
198 03032 CLR(3);
199 03035 FOR L2:=-140 STEP 10 UNTIL 210 DO
200 03043 BEGIN
201 03043 D:=10 IF L2>150 OR L2<-70 THEN D:=1;
202 03061 IF L2=0 THEN CLR(1);
203 03067 FOR A:=80 STEP -D UNTIL -80 DO
204 03104 BEGIN

```

```

205 03104 ANGLE(1.0*L2);
206 03115 W:=SIGN(S-700);
207 03127 IF A=80 THEN W:=-1;
208 03135 IF L2=-140 AND (A=-21 OR A=-22 OR A=-23) THEN W:=-1;
209 03214 IF L2=40 AND A=10 THEN W:=-1;
210 03232 WRITE (11,W,1,X,Y);
211 03246 END   A;
212 03252 IF L2=0 THEN CLR(3);
213 03260 END L2;
214 03264 END   V=1;
215 03264 COMMENT
216 03264
217 03264 IF V=2 THEN
218 03270 BEGIN
219 03270 REAL X1, Y1;
220 03275 INTEGER W1, W2, W3;
221 03300 WRITE (6,#(
222 03306           // " PROJECTION OF THE GLOBE, CENTER MECCA."/
223 03334 " EQUIDISTANT LONGITUDES AND ACTUAL BEARING TO MECCA"//));
224 03372 IF V1 0 THEN
225 03375 WRITE (V1,
226 03377           #(/" LATITUDE", 7X,
227 03413           " LONGITUDE", 6X, "ANGLE (MAKKA)", 9X, "ANGLE (CITY)", 7X, "DISTANCE",
228 03452 9X, "MAKKA LEFT", 9X, "CITY LEFT"//));
229 03474 W3:=1;
230 03476 FOR L2:=-130 STEP 10 UNTIL 210 DO
231 03504 BEGIN
232 03504 ANGLE(L2);
233 03513 IF L2=0 THEN CLR(1);
234 03521 Y1:=SQRT (4870.0^2 -(5000.0-X)^2);
235 03557 W2:=
236 03557 W1:= 5000-Y1;
237 03566 IF W=-1 THEN W1:=5000+Y1 ELSE
238 03601 W2:=5000+Y1;
239 03607 WRITE (11, -1, 1, X, W1);
240 03623 WRITE (11, 1, 1, X, W2);
241 03637 W3:=-W3;
242 03642 IF L2=0 THEN CLR(2);
243 03650 END;
244 03654 CLR(3);
245 03657 FOR A:=-80 STEP -10 UNTIL -80 DO
246 03665 BEGIN
247 03665 IF A=0 THEN CLR(1);
248 03673 ANGLE(-140);
249 03676 WRITE (11, -1, 1, X, Y);
250 03712 FOR L2:=-140 STEP 2 UNTIL 220 DO
251 03720 IF L2 40 THEN
252 03724 BEGIN
253 03724 ANGLE(L2*1.0);
254 03735 IF V1 0 THEN
255 03740 WRITE (V1

```

PART 2


```

256 03740      ,#(16, I16, F18.2, F20.2, F17.1, F18.2, F19.2), A, L2, A1, C1, S, (360-A1)
257 04013 (360-C1));
258 04020 IF SQRT ((5000.0-X)^2-(5000.0-Y)^2) <4700 THEN
259 04067 BEGIN
260 04067 IF L2=42 THEN WRITE (11, -1, 1, X, Y)
261 04106 ELSE
262 04110 WRITE (11, 1, 1, X, Y);
263 04124 END;
264 04124 END;
265 04130 IF A=0 THEN CLR(3);
266 04136 END A;
267 04142 END   V=2;
268 04142 COMMENT
269 04142
GRADUATED CIRCLE FOR PART 1,2
=====;
270 04142 IF V=1 OR V=2 THEN
271 04156 BEGIN
272 04156 S:=PI*6370;
273 04164 X:=5000+S/4.1;
274 04172 Y:=5000;
275 04174 WRITE (11, -1, 1, X, Y);
276 04210 B:=S/4.1+100;
277 04220 C:=S/4.1+60;
278 04230 CLR(1);
279 04233 FOR A:=0 TO 360DO
280 04241 BEGIN
281 04241 X:=S*COS(A*F)/4.1+5000;
282 04257 Y:= S*SIN(A*F)/4.1+5000;
283 04275 WRITE (11, 0, 1, X, Y);
284 04311 IF INTIER(A/10)=A/10 THEN
285 04333 BEGIN
286 04333 Y:= 5000+B*SIN(A*F);
287 04353 X:= 5000+B*COS(A*F);
288 04373 WRITE (11, 1, 1, X, Y);
289 04407 END
290 04407 ELSE
291 04410 IF INTIER(A/5)=A/5 THEN
292 04432 BEGIN
293 04432 X:= 5000+C*COS(A*F);
294 04452 Y:= 5000+C*SIN(A*F);
295 04472 WRITE (11, 1, 1, X, Y);
296 04506 END;
297 04506 END
298 04512 END OF CIRCLE;
299 04512 COMMENT
300 04512
PART 3
=====;
301 04512 IF V=3 THEN
302 04516 BEGIN
303 04516 INTEGER I;
304 04520 INTEGER X1, Y1, J;
305 04523 ARRAY Y(0:90);
306 05015 LABEL STAR;

```

```

307 05016 WRITE (6,#(
308 05024          // " MERCATOR CHART OF THE GLOBE"//));
309 05050 FOR I:=0 TO 89 DO
310 05056 Y[I]:=LN(TAN((45.0+I/2)*F))/F;
311 05107 Y[0]:=0;
312 05120 IF V1 0 THEN
313 05123 WRITE (V1,#(
314 05131 /          " LATITUDE DISTANCE FROM THE EQUATOR"//));
315 05156 FOR I:=0 STEP 1 UNTIL 89 DO
316 05164 IF V1 0 THEN
317 05167 WRITE (V1,#(16, F18.4), I, Y[I]);
318 05216 FOR I:=0 STEP 10 UNTIL 80 DO
319 05224 BEGIN
320 05224 START;
321 05224 Y1:=5000+Y[I]*27.75;
322 05236 IF I=0 THEN CLR(1);
323 05244 FOR J:=1 TO 2 DO
324 05252 BEGIN
325 05252 WRITE (11, -1, 1, 0, Y1);
326 05266 WRITE (11, -1, 1, 9990, Y1);
327 05302 Y1:=9990-Y1+10;
328 05307 END J;
329 05313 IF I=0 THEN CLR(2);
330 05321 IF I=80 THEN
331 05325 BEGIN
332 05325 I:=85;
333 05354 GO TO START;
334 05355 END;
335 05355 END I;
336 05361 FOR I:=0 TO 36 DO
337 05367 BEGIN
338 05367 IF I=14 THEN CLR(1);
339 05376 X1:=277.5*I;
340 05404 WRITE (11, -1, 1, X1, 0)
341 05420 WRITE (11, 1, 1, X1, 9990);
342 05434 IF I=14 THEN CLR(2);
343 05443 END;
344 05447 END V=3;
345 05447 COMMENT
346 05447
347 05447 IF V=4 THEN
348 05453 BEGIN
349 05453 INTEGER I, W1, W2, W3;
350 05460 WRITE (6,#(
351 05466          // " CHART OF THE GLOBE WITH EQUIDISTANT LATITUDES AND LONGITUDES
352 05527 "//));
353 05532 W1:=0 W2:=4995;
354 05536 FOR I:=1 TO 36 DO
355 05544 BEGIN
356 05544 IF I = 14 THE CLR(1);
357 05553 X:=277.5*I;

```

PART 4
=====;

```

358 05561 WRITE (11, -1, 1, X, W1);
359 05575 WRITE (11, 1, 1, X, W2);
360 05611 W3:=W1      W1:=W2 W2:=W3;
361 05617 IF I=14 THEN CLR(2);
362 05626 END   I;
363 05632 W1:=0 W2:=9990;
364 05636 FOR I:=0 TO 18 DO
365 05644 BEGIN
366 05644 IF I=9 THEN CLR(1);
367 05653 X:=277.5*I;
368 05661 WRITE (11, -1, 1, W1, X);
369 05675 WRITE (11, 1, 1, W2, X);
370 05711 W3:=W2      W2:=W1 W1:=W3;
371 05717 IF I=9 THEN CLR(2);
372 05726 END   I;
373 05732 END   V=4;
374 05732 COMMENT
375 05732
376 05732 IF V=5 THEN
377 05736 BEGIN
378 05736 WRITE (6, #((
379 05745      " LINES OF CONSTANT KEBLA DIRERCTIONS"));
380 05772 V2:=1;
381 05774 READ (7, *, V);
382 06003 IF V=1 THEN WRITE (6, #(" ON ZENITHAL CHART"/>
```

PART 5
=====;

```

383 06032 IF V=2 THEN WRITE (6, #(" ON CONST. DIRECTION CHART"/>
```

```

409 06505 IF ABS(AR)>89+F THEN
410 06520 GO TO ND;
411 06521 ANGLE(L2);
412 06530 IF ABS(C1-C)>1 THEN GO TO ND;
413 06547 IF VI 0 THEN
414 06552 WRITE (VI
415 06552      ,( F10.4, I10, F17.4, I15, F18.4), AR/F, L2, A1, C, S);
416 06616 IF X>9990 OR Y>9990 THEN GO TO ND;
417 06633 IF ABS(AR1-AR)>15*F
418 06654 WRITE (I1, W, I, X, Y);
419 06670 IF W=-1 THEN W:=1;
420 06676 AR1:=AR;
421 06702 L21:=L2;
422 06706 ND;
423 06706 AS: END L2;
424 06712 IF VI 0 THEN
425 06715 WRITE (VI,#(/));
426 06726 END J;
427 06732 SA;
428 06732 END C;
429 06736 END V=5;
430 06736 WRITE (1,#("RUN ENDED, NEW INPUT CARDS THEN ;GO"));
431 06772 PAUSE;
432 06774 READ (7, *, V, VI);
433 07005 IF V 0 THEN GO TO ANF;
434 07011      WRITE (1,#(" STOP"/ "   KEBLA:");
435 07035 END

```

PROGRAM= 007041

ERRORS= 000

ملاحظات عن (الجدول رقم ٤) المبين في الصحيفة التالية :

- ١- زاوية «مكة المكرمة» المذكورة في هذا الجدول ، وكذلك زاوية المدينة يمثلان الانحراف الدائري الجغرافي الصحيح لكل من هذين المكانين .
- ٢- بعد أن وصلنا إلى خط الطول ١٨٠° درجة شرقاً ، وجدنا من الأفضل أن يستمر الترقيم إلى ٢٢٠° شرقاً ، وعلى ذلك أصبح ترقيم خطوط الطول الغربية ينتهي عند خط طول ١٤٠° غرباً .

ENGLISH

LATTUDE	LONGITUDE	AECLE'(MAKKA)	ANGLE (CITY)	DISTANCE / KM
0	0	0	0	0
30	- 140	359.80	0.22	14293.3
30	- 130	348.85	11.99	14190.5
30	- 120	338.60	23.09	13899.5
30	- 110	329.49	33.07	13445.4
30	- 100	321.69	41.79	12859.4
30	- 90	315.12	49.32	12171.5
30	- 80	309.65	55.86	11406.1
30	- 70	305.10	61.56	10583.6
30	- 60	301.33	66.65	9717.3
30	- 50	298.20	71.30	8818.7
30	- 40	295.66	75.66	7895.7
30	- 30	293.66	79.88	6954.9
30	- 20	292.25	84.14	6001.7
30	- 10	291.54	88.69	5041.0
30	0	291.84	93.93	4067.6
30	10	293.90	100.68	3123.9
30	20	299.73	111.03	2196.9
30	30	316.12	131.84	1367.4
30	40	1.04	181.12	952.2
30	50	44.85	229.30	1393.9
30	60	60.60	249.46	2229.8
30	70	66.23	259.61	3158.6
30	80	68.19	266.28	4113.9
30	90	68.45	271.48	5076.3
30	100	67.71	276.02	6036.8
30	110	66.27	280.27	6989.9
30	120	64.26	254.50	7929.8
30	130	61.69	288.86	8852.0
30	140	58.55	293.52	9749.7
30	150	54.74	298.64	10614.5
30	160	50.16	304.38	11435.6
30	170	44.66	310.94	12198.2
30	180	38.05	318.51	12882.9
30	190	30.19	327.28	13464.5
30	200	21.04	337.30	13913.2
30	210	10.76	348.43	14197.7

نموذج من الجداول المحسوبة بالجهاز الإلكتروني الحاسب لخط العرض ٣٠° شمالاً

خط العرض	خط الطول	زاوية (مكة)	زاوية (المدينة)	المسافة بالكيلومتر
°	°	°	°	°
٣٠	١٤٠-	٣٥٩,٨٠	٠,٢٢	١٤٢٩٣,٣
٣٠	١٣٠-	٣٤٦,٨٥	١١,٩٩	١٤١٩٠,٥
٣٠	١٢٠-	٣٣٨,٦٠	٢٣,٠٩	١٨٩٩,٥
٣٠	١١٠-	٣٢٩,٤٩	٣٣,٠٧	١٣٤٤٥,٤
٣٠	١٠٠-	٣٢١,٦٩	٤١,٧٩	١٢٨٥٩,٤
٣٠	٩٠-	٣١٥,١٢	٤٩,٣٢	١٢١٧١,٥
٣٠	٨٠-	٣٠٩,٦٥	٥٥,٨٤	١١٤٠٦,٤
٣٠	٧٠-	٣٠٥,١٠	٦١,٥٦	١٠٥٨٣,٦
٣٠	٦٠-	٣٠١,٣٣	٦٦,٦٥	٩٧١٧,٣
٣٠	٥٠-	٢٩٨,٢٠	٧١,٣٠	٨٨١٨,٧
٣٠	٤٠-	٢٩٥,٦٦	٧٥,٦٦	٧٨٩٥,٧
٣٠	٣٠-	٢٩٣,٦٦	٧٩,٨٨	٦٩٥٤,٩
٣٠	٢٠-	٢٩٢,٢٥	٨٤,١٤	٦٠٠١,٧
٣٠	١٠-	٢٩١,٥٤	٨٨,٦٩	٥٠٤١,٠
٣٠	٠	٣٩١,٨٤	٩٣,٩٣	٤٠٧٨,٨
٣٠	١٠	٢٩٣,٩٠	١٠٠,٦٨	٣١٢٣,٩
٣٠	٢٠	٢٩٩,٧٣	١١١,٠٣	٢١٩٦,٩
٣٠	٣٠	٣١٦,١٢	١٣١,٨٤	١٣٦٧,٤
٣٠	٤٠	١,٠٤	١٨١,١٢	٩٥٢,٢
٣٠	٥٠	٤٤,٨٥	٢٢٩,٣٠	١٣٩٣,٩
٣٠	٦٠	٦٠,٦٠	٢٤٩,٤٦	٢٢٢٩,٨
٣٠	٧٠	٦٦,٢٣	٢٥٩,٦١	٣١٥٨,٦
٣٠	٨٠	٦٩,١٩	٢٦٦,٢٨	٤١١٣,٩
٣٠	٩٠	٦٨,٤٥	٢٧١,٤٨	٥٠٧٦,٣
٣٠	١٠٠	٦٧,٧١	٢٧٦,٠٢	٦٠٣٦,٨
٣٠	١١٠	٦٦,٢٧	٢٨٠,٢٧	٦٩٨٩,٦
٣٠	١٢٠	٦٤,٢٦	٢٨٤,٥٠	٧٩٢٩,٨
٣٠	١٣٠	٦١,٦٩	٢٨٨,٨٦	٨٨٥٢,٠
٣٠	١٤٠	٥٨,٥٥	٢٩٣,٥٢	٩٧٤٩,٧
٣٠	١٥٠	٥٤,٧٤	٢٩٨,٦٤	١٠٦١٤,٥
٣٠	١٦٠	٥٠,١٦	٣٠٤,٣٨	١١٤٣٥,٦
٣٠	١٧٠	٤٤,٦٦	٣١٠,٩٤	١٢١٩٨,٢
٣٠	١٨٠	٣٨,٠٥	٣١٨,٥١	١٢٨٨٢,٩
٣٠	١٩٠	٣٠,١٩	٣٢٧,٢٨	١٣٤٦٤,٥
٣٠	٢٠٠	٢١,٠٤	٣٣٧,٣٠	١٣٩١٣,٢
٣٠	٢١٠	١٠,٧٦	٣٤٨,٤٣	١٤١٩٧,٧

في (الشكل رقم ٨) يظهر إسقاط خطوط الطول وخطوط العرض بالنسبة إلى «مكة المكرمة» ، وهي المعبر عنها بالحرف (M) ، كما يظهر القطب الأرضي الشمالي عند الحرف (N) ، وكذلك القطب الأرضي الجنوبي عند الحرف (S) ، وخطوط الطول والعرض مرسومة لكل عشر درجات ، كما هو مرقوم على الشكل ، ولقد أضيف خط العرض ٢٥° درجة جنوباً للحاجة إليه في دقة رسم القارات .

والترقيم المسجل على الدائرة الخارجية ، يمثل الانحراف الدائري الجغرافي . بالنسبة إلى مدينة «مكة المكرمة» ، بحيث إننا لو أخذنا خطاً مستقيماً بين «مكة المكرمة» وبين أي مكان على هذا الإسقاط ، فإن امتداد هذا الخط إلى هذه الدائرة الخارجية يقرأ الانحراف الدائري لهذا المكان عن مدينة «مكة المكرمة» .

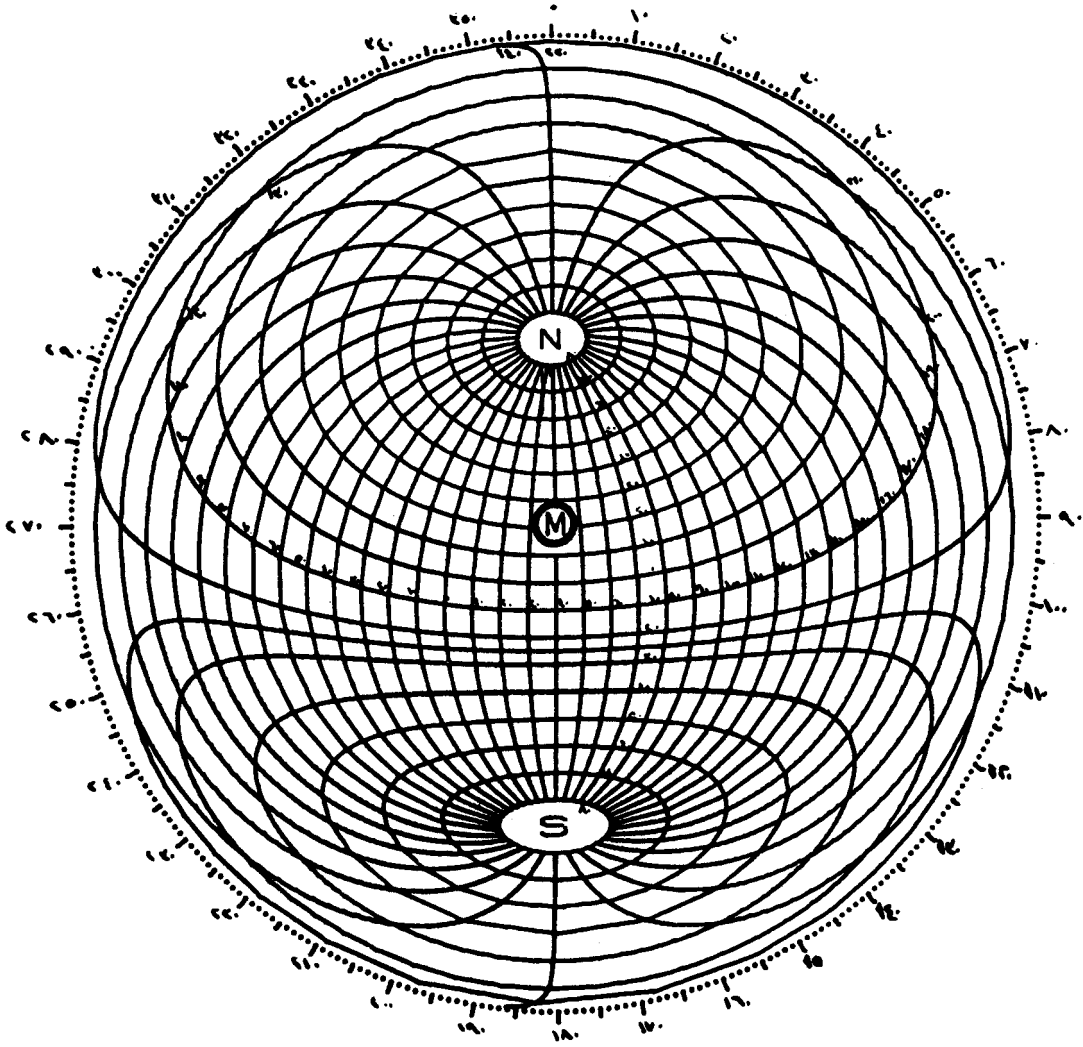
وفي (الشكل رقم ٩) وقعنا القارات السبع للعالم فوق خريطة الإسقاط السابقة ، في مواقعها الصحيحة بالنسبة إلى خطوط الطول والعرض الأرضية . وبهذا توصلنا إلى إسقاط الكرة الأرضية بالنسبة إلى مدينة «مكة المكرمة» للإسقاط المطلوب في هذا البحث .

ولقد لاحظنا عندما رسمنا دائرة مركزها مدينة «مكة المكرمة» ، وحدودها خارج القارات الأرضية السبع ، أن محيط هذه الدائرة يكاد يدور مع حدود القارات الخارجية ، وذلك يعني أن موقع مدينة «مكة المكرمة» هو مركز الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية ، كما هو موضح في (الشكل رقم ١٠) :

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ .
(آية ١٤٣ سورة البقرة)

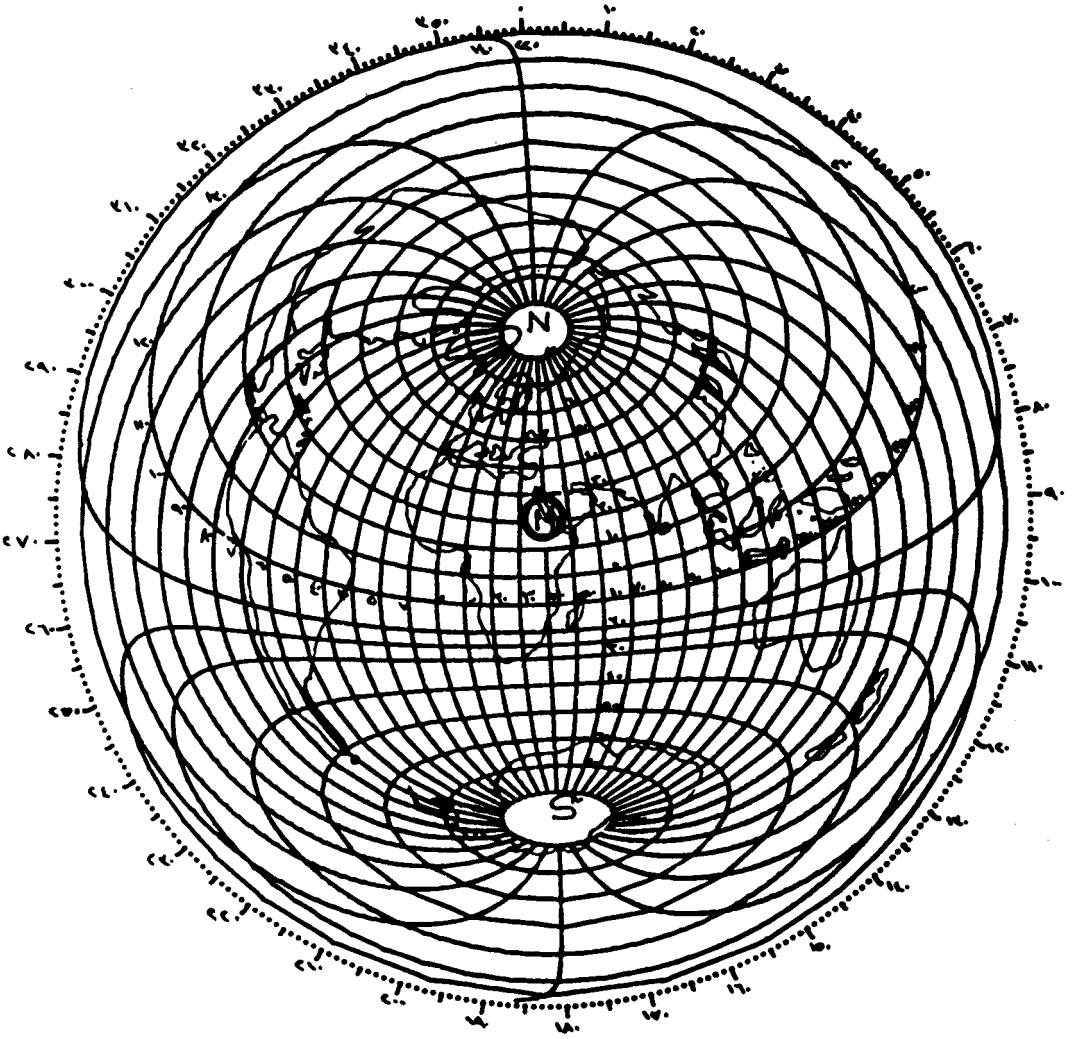
وصدق الله العظيم :

﴿لَتُنذِرُ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ .
(آية ٧ سورة الشورى)



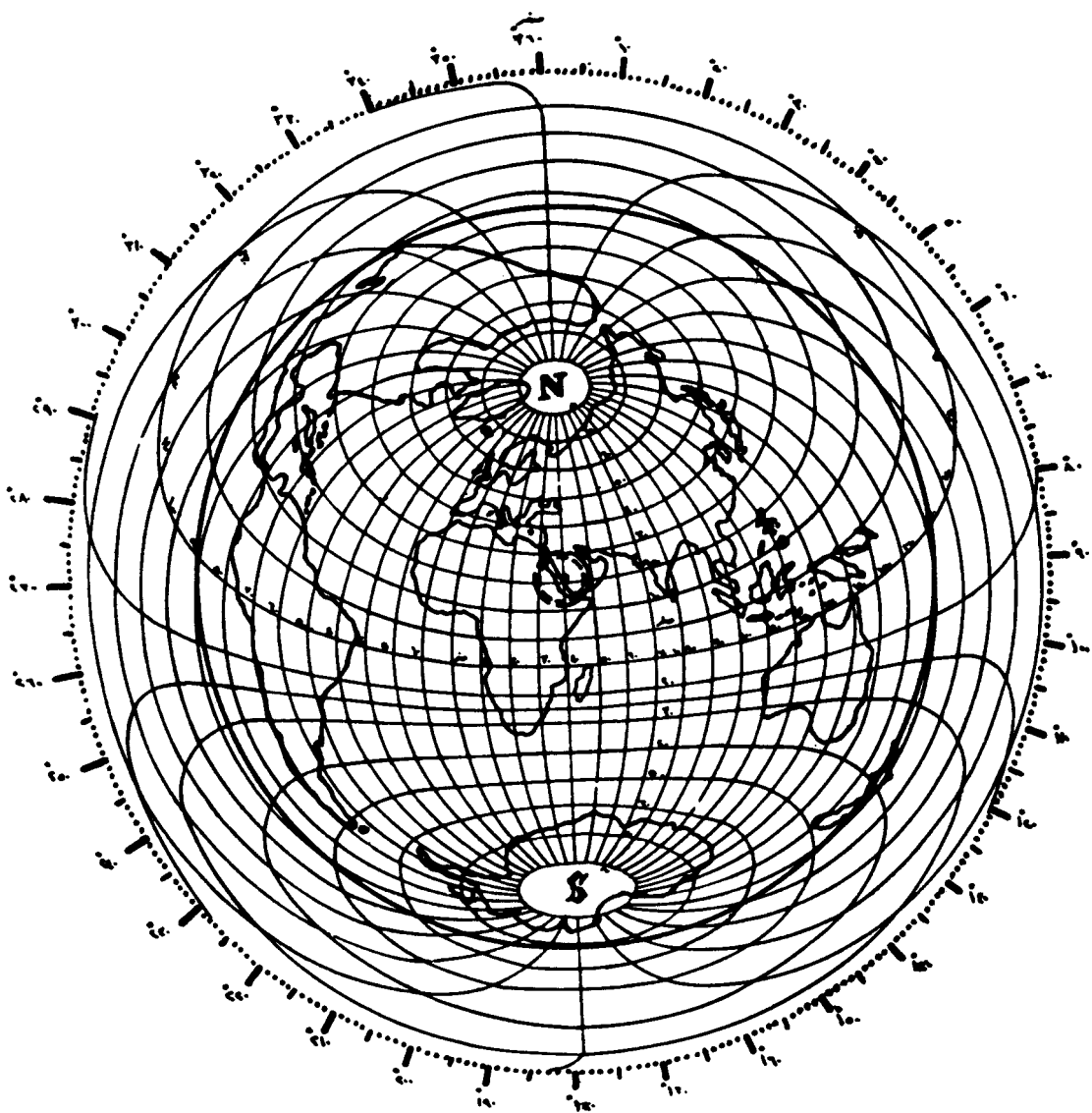
شكل رقم (٨)

إسقاط خطوط الطول وخطوط العرض بالنسبة إلى مكة المكرمة ،



شكل رقم (٩)

رسم القارات السبع للعالم فوق خريطة الإسقاط السابقة



شكل رقم (١٠)

مكة المكرمة، في الإسقاط المساحي المكّي هي مركز العالم

إعادة إسقاط خريطة العالم بالنسبة للاتجاهات الصحيحة للصلاة :

لقد تم بحمد الله تعالى . . (١) إسقاط خريطة العالم بالنسبة إلى مدينة «مكة المكرمة» ، بحيث يمكن عند استعمال هذا الإسقاط معرفة زاوية انحراف أي بلد عن «مكة المكرمة» ، وكذلك مقدار المسافة بينهما .

وإننا نريد (٢) إعادة الإسقاط مرة أخرى بحيث نحتفظ بالمسافات الصحيحة بين «مكة المكرمة» ، وبين بلدان العالم كما هي .

ثم نستعمل زاوية انحراف البلد عن «مكة المكرمة» بدلاً من زاوية انحراف «مكة المكرمة» عن هذا البلد .

وعلى ذلك يصبح هذا الإسقاط الجديد مساعداً على معرفة اتجاهات الصلاة مباشرة في كل مكان من العالم باستعمال هذه الخريطة الجديدة .

ويمثل (الشكل رقم ١١) هذا الإسقاط المطلوب ، ونلاحظ على هذا الإسقاط بعض العقبات التي تمنع الاستفادة منه في الغرض المطلوب له .

ولقد حاولنا تدليل هذه العقبات بحلول مناسبة سيأتي بيانها تباعاً فيما بعد .

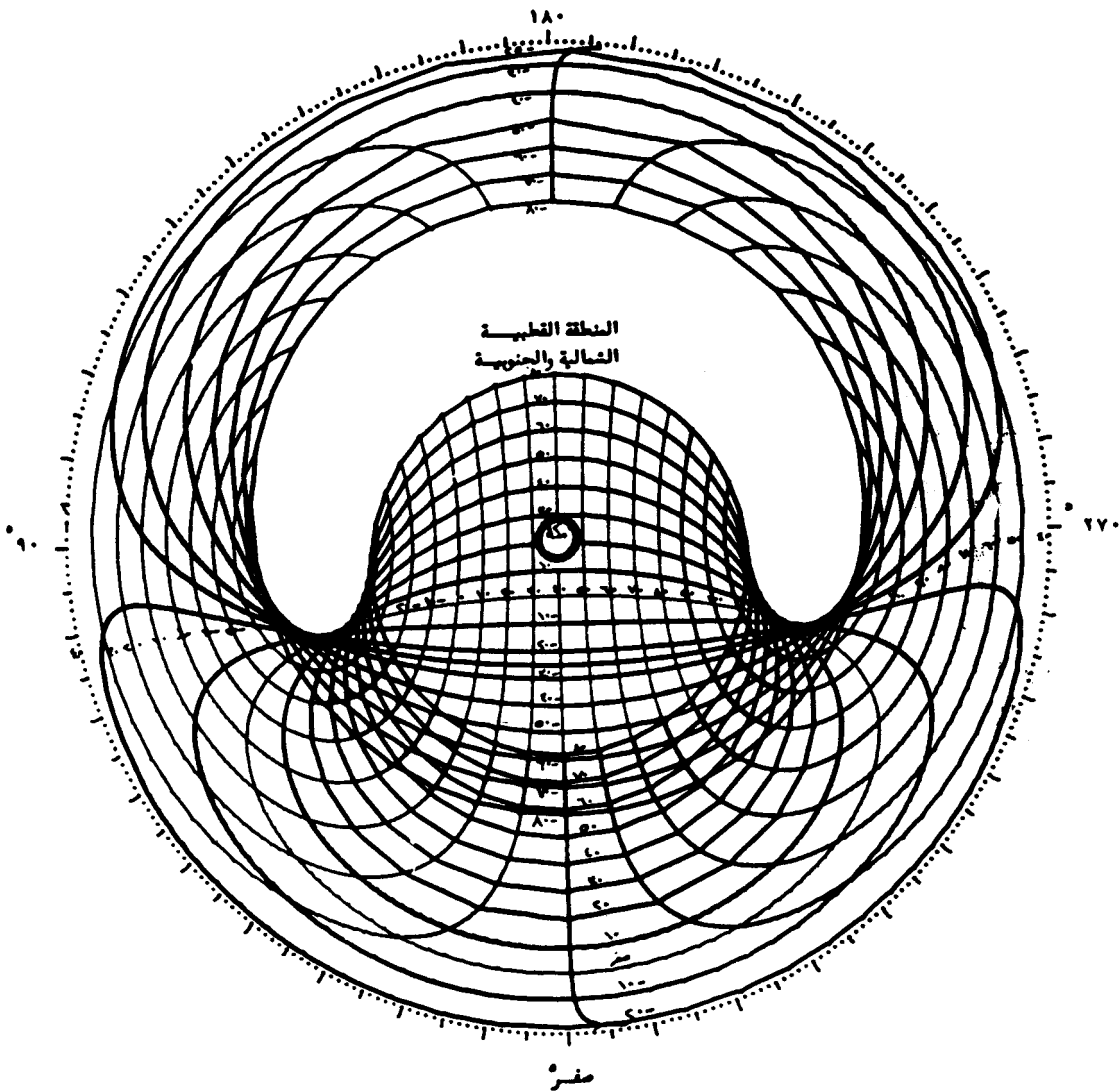
ملاحظات على هذا الإسقاط :

- ١ - خطوط العرض تتقاطع مع بعضها ، وتدور حول مدينة «مكة المكرمة» ، وليس حول القطب الأرضي ، كما هو المعتاد .

(١) ذكر هنا «في الفصول السابقة» .

(٢) ذكر - أيضاً - «في هذا الفصل» إشارة منه إلى الفصل الرابع .

- ٢ - خطوط الطول تظهر في شكل بيضاوي تتوازي ولا تتقابل مع بعضها ، وهذا خلاف الواقع .
- ٣ - يحدث تداخل بين خطوط العرض الجنوبية مع خطوط العرض الشمالية في بعض مناطق الإسقاط .
- ٤ - خطوط العرض الجنوبية يظهر بعضها في أعلى خريطة الإسقاط ، كما يظهر البعض الآخر منها في أسفل هذه الخريطة ، بينما تظهر خطوط العرض الشمالية في وسط الخريطة .
- ٥ - جميع الانحرافات الدائرية تظهر على خط العرض الواحد .
- ٦ - تندمج بعض المساحات في بعضها البعض وتظهر على شكل عقدة .
- ٧ - المناطق القريبة من القطبين الشمالي والجنوبي تتسع كثيراً جداً عن حقيقتها المعروفة .
- ٨ - يحدث اقتراب في هذا الإسقاط بين المنطقة القطبية الجنوبية والمنطقة القطبية الشمالية .



شكل رقم (١١)

إعادة إسقاط خريطة العالم بالنسبة للاتجاهات الصحيحة للصلاة

ونلاحظ من التشكيل العام لمجموعة خطوط الطول والعرض وتقاطعها ، وعدم ظهورها بالترتيب المعتاد في اتجاه واحد ، أنه يتعذر رسم القارات السبع للكرة الأرضية على هذا الإسقاط بشكل منتظم ، كما اعتاد الناس أن يروها على صفحات الأطالس الجغرافية .

ولقد كانت المحاولة الثانية أننا نستعمل الإسقاط الأول المبين في الشكل رقم (٩) كما هو ، ثم نوقع عليه خطوط اتجاهات الصلاة المتساوية في المقادير (١) .

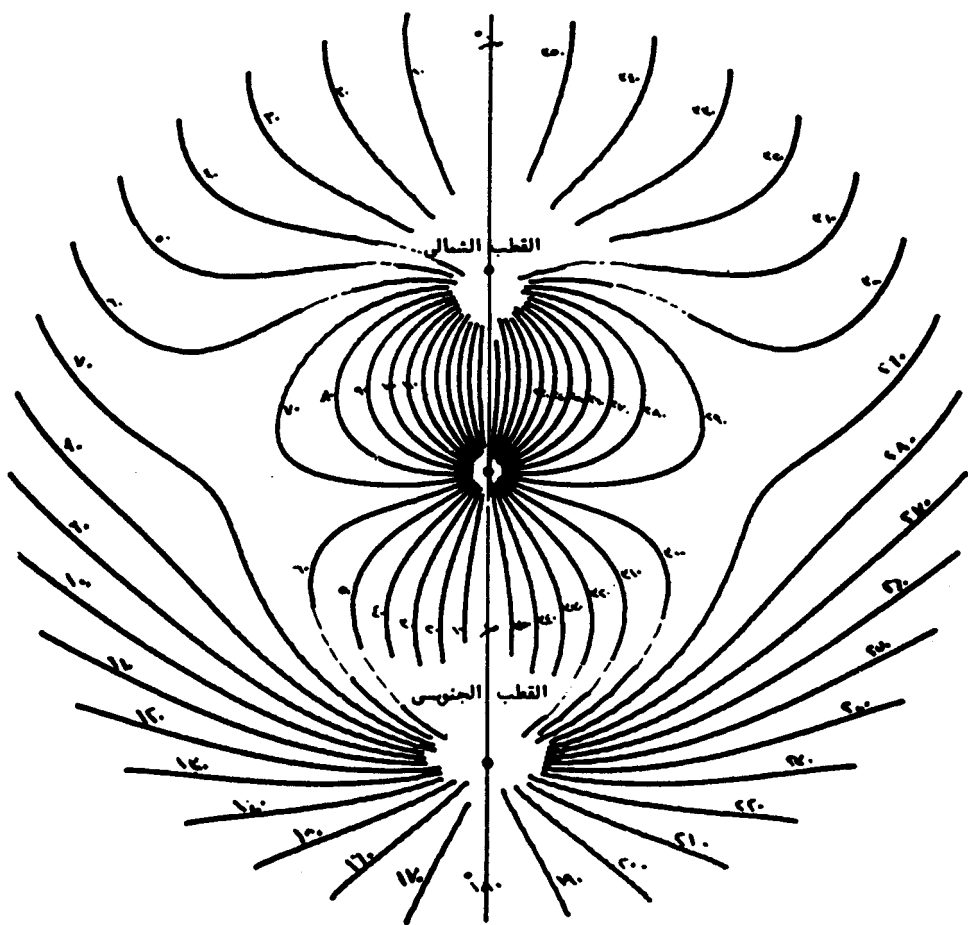
ولقد تم توقيع هذه الخطوط باستعمال الجهاز الحاسب الإلكتروني ، وحصلنا على الرسم المبين في (الشكل رقم ١٢) ، و(الشكل رقم ١٣) . ونلاحظ على هذا الإسقاط ما يلي :

١ - أن خريطة إسقاط الكرة الأرضية بالنسبة إلى «مكة المكرمة» تظل كما هي .

٢ - أن خطوات اتجاهات الصلاة المتساوية في المقادير ، تتقابل في ثلاث مناطق فوق هذا الإسقاط ، هي «مكة المكرمة» ، والقطب الشمالي ، والقطب الجنوبي .

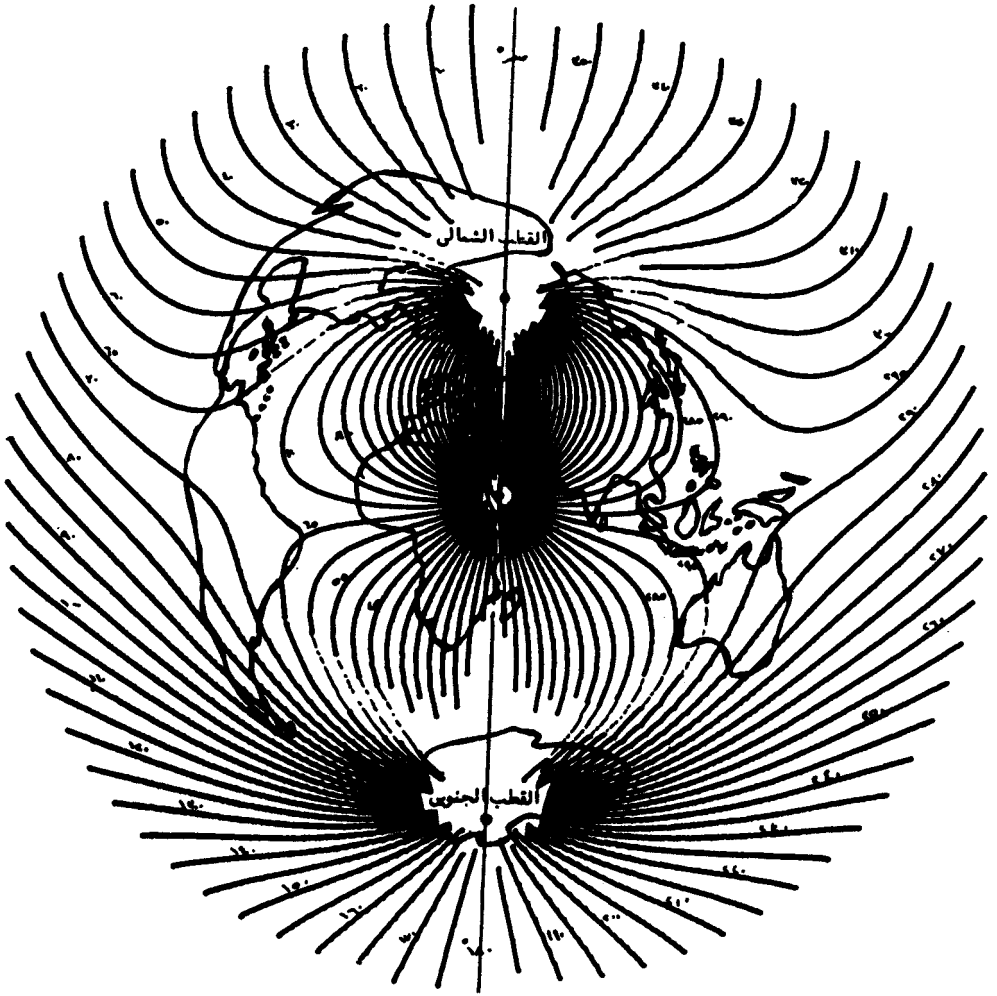
٣ - أنه يوجد تماثل بين خطوط اتجاهات الصلاة المتساوية في النصف الشرقي والنصف الغربي من الكرة الأرضية بالنسبة إلى «مكة المكرمة» من ناحية الشكل ، ولكنها تختلف عنها من ناحية المقادير .

(١) المقصود من خطوط اتجاهات الصلاة المتساوية في المقادير ، أننا نصل بين الأمكنة التي تتساوى عندها درجة اتجاه القبلة بخط مستمر ، ويكتب على هذا الخط مقدار الانحراف الدائري الخاص به .



شكل رقم (١٢)

خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة كل عشر درجات



شكل رقم (١٣)

خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة كل خمس درجات مع خريطة العالم

وهذه الخريطة يستطيع الشخص العادي أن يستفيد منها في معرفة اتجاه الصلاة في المكان الموجود فيه ، ولكن وجود التجمعات الثلاثة لخطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة في بعض المناطق ، يجعل الاستدلال على اتجاه القبلة في هذه الأماكن غير يسير ، حيث قد تختلط عليه الاتجاهات لتقاربها كثيراً من بعضها البعض .

لاحظنا عند رسم خريطة العالم ، وتوقيع خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة عليها ، أن هذه الخطوط تتجمع عند ثلاثة أماكن :

أولها : «مكة المكرمة» ، وهذا التجمع طبيعي ، لأن اتجاه الصلاة دائماً نحوها .
وأما التجمعان الآخران : فهما عند القطبين الأرضيين ، وهذا التجمع يمكن التغلب عليه ، لأن السبب فيه هو تقابل خطوط الطول عند القطبين الأرضيين .
وإذا باعدنا بين هذه الخطوط في رسم خريطة العالم فإنه بالتبعية يحدث ابتعاد بين خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة في هذين المكانين .
وعلى ذلك استعملنا الإسقاط المتعامد لخطوط الطول والعرض الأرضية ، بدلاً من الإسقاط السابق بيانه ، وهو المرسوم في الشكل رقم (٨) السابق .
وفي حالة الإسقاط المتعامد ، وهو الإسقاط الإسطواني ، نجد أن جميع خطوط العرض تتوازي مع بعضها البعض ، وكذلك جميع خطوط الطول ، وأن كلا منهما يكون عمودياً على الآخر ، وهذا الإسقاط على نوعين :

أ - الإسقاط المتساوي .

ب - إسقاط مركبتور .

ففي الإسقاط الأول نجد أن المسافات بين خطوط العرض تساوي نظائرها على سطح الأرض ، وأما المسافات بين خطوط الطول فهي تساوي المسافات التي

بينها عند خط الاستواء الأرضي .

وهذا الإسقاط لا يحتفظ بمقياس رسم صحيح بين الطول والعرض ، سوى عند خط الاستواء فقط ، ولكنه شائع الاستعمال في الأطالس الجغرافية .

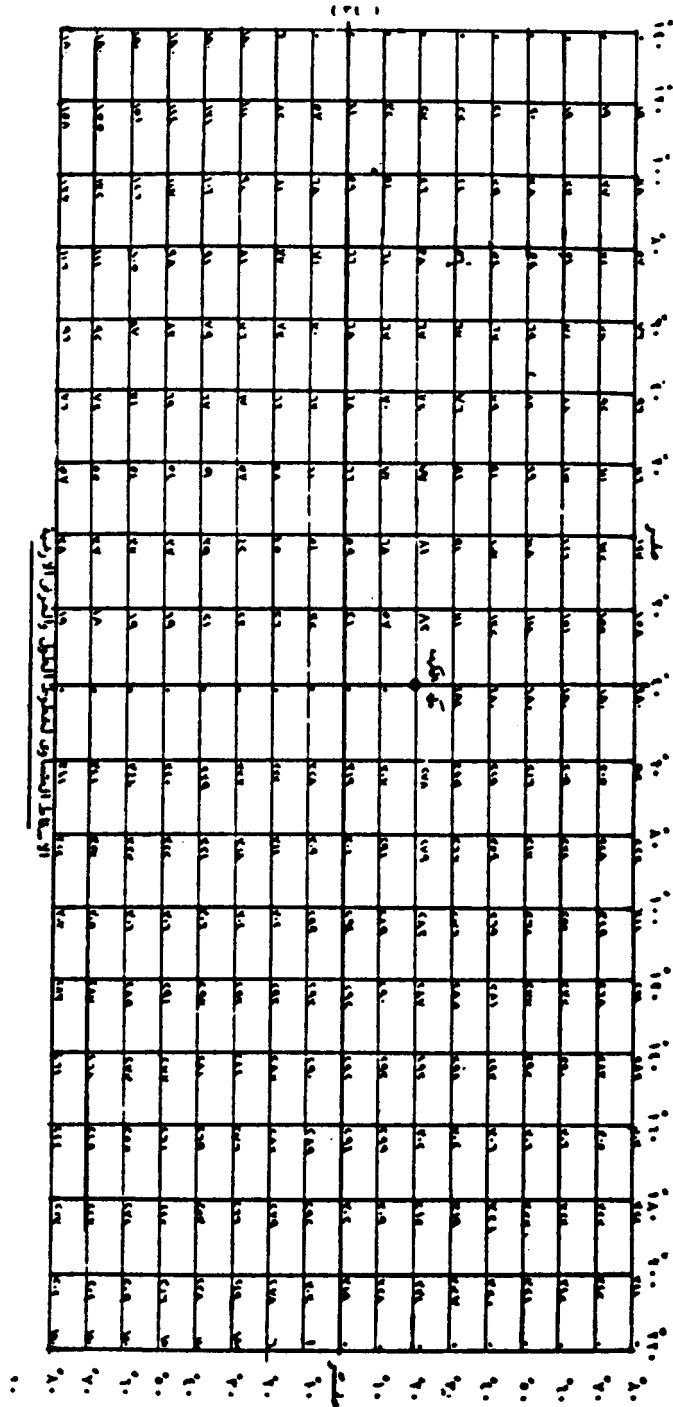
وأما في الإسقاط الثاني فإنه يتم المحافظة على مقياس الرسم عند تقاطعات خطوط الطول والعرض ، وبذلك يكون التشابه قريباً من الصحة في الأماكن المحدودة ، ولو أن الخريطة جميعها لها مقاييس رسم مختلفة عن بعضها .

ونلاحظ عند توقيع خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة على هذين الإسقاطين أن هذه الخطوط تتجمع عند «مكة المكرمة» ، ولكنها تفرق عند المنطقة القطبية الشمالية والجنوبية .

وأما التجمع الحادث عند طرف الخريطة فهو تجمع هذه الخطوط عند جزيرة (موروروا) من مجموعة جزر بولينيزيا ، وهي النقطة المقابلة لمكة المكرمة في الجهة الأخرى من الكرة الأرضية ، ولقد سبق ذكرها في هذا البحث ، وهذا التجمع لا يعنينا ، لأن هذه المنطقة في وسط المحيط الهادي وبعيدة عن القارات الأرضية المعمورة بالسكان .

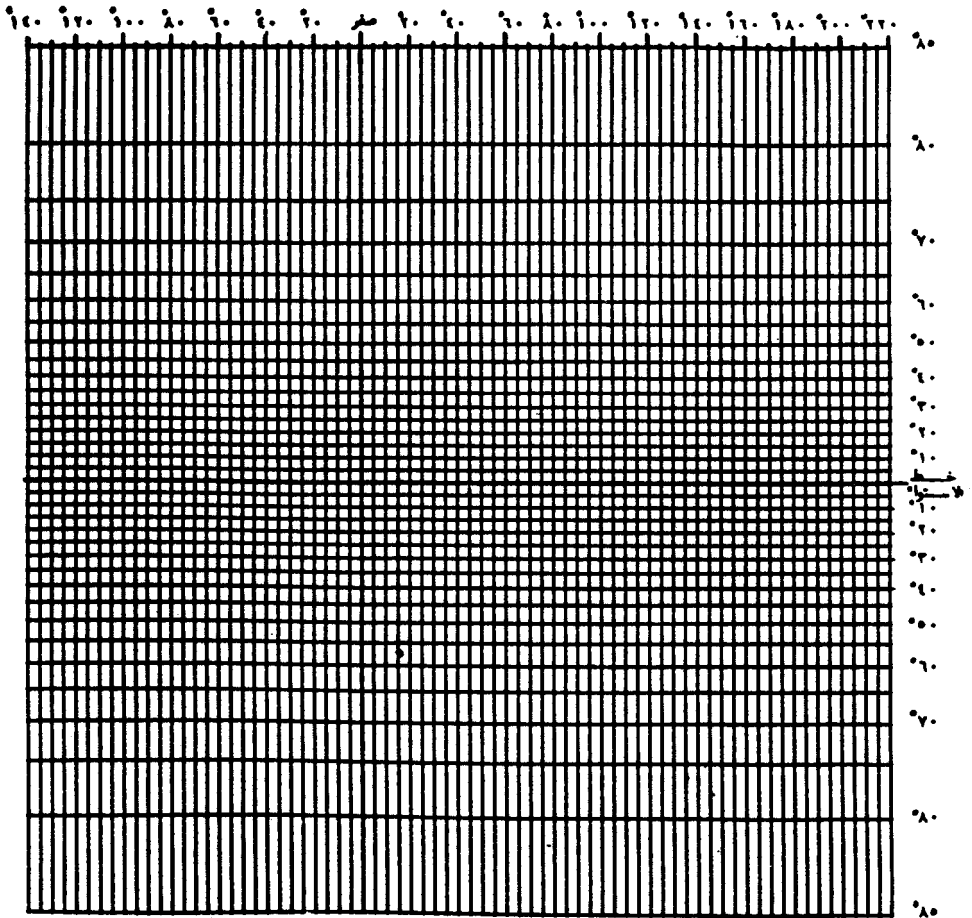
وفي (الشكل رقم ١٤) نجد الإسقاط الأول المتساوي بدون رسم خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة عليه ، ولكننا بدلاً من ذلك كتبنا عليه مقادير انحرافات القبلة عند كل تقاطع بين خطوط الطول والعرض ، وهذا الرسم يصلح استعماله لذوي الدراية ، ممن يعرفون خطوط الطول والعرض المارة ببلادهم ، فيقرأون اتجاه القبلة من هذا الرسم مباشرة أو بعد عملية تناسب رياضية بسيطة .

كما يوجد إسقاط مركب لخطوط الطول والعرض في (الشكل رقم ١٥) ، وبعد ذلك رسمت خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة على كل من هذين الإسقاطين ، كما هو مبين في (الشكل رقم ١٦) ، و(الشكل رقم ١٧) .



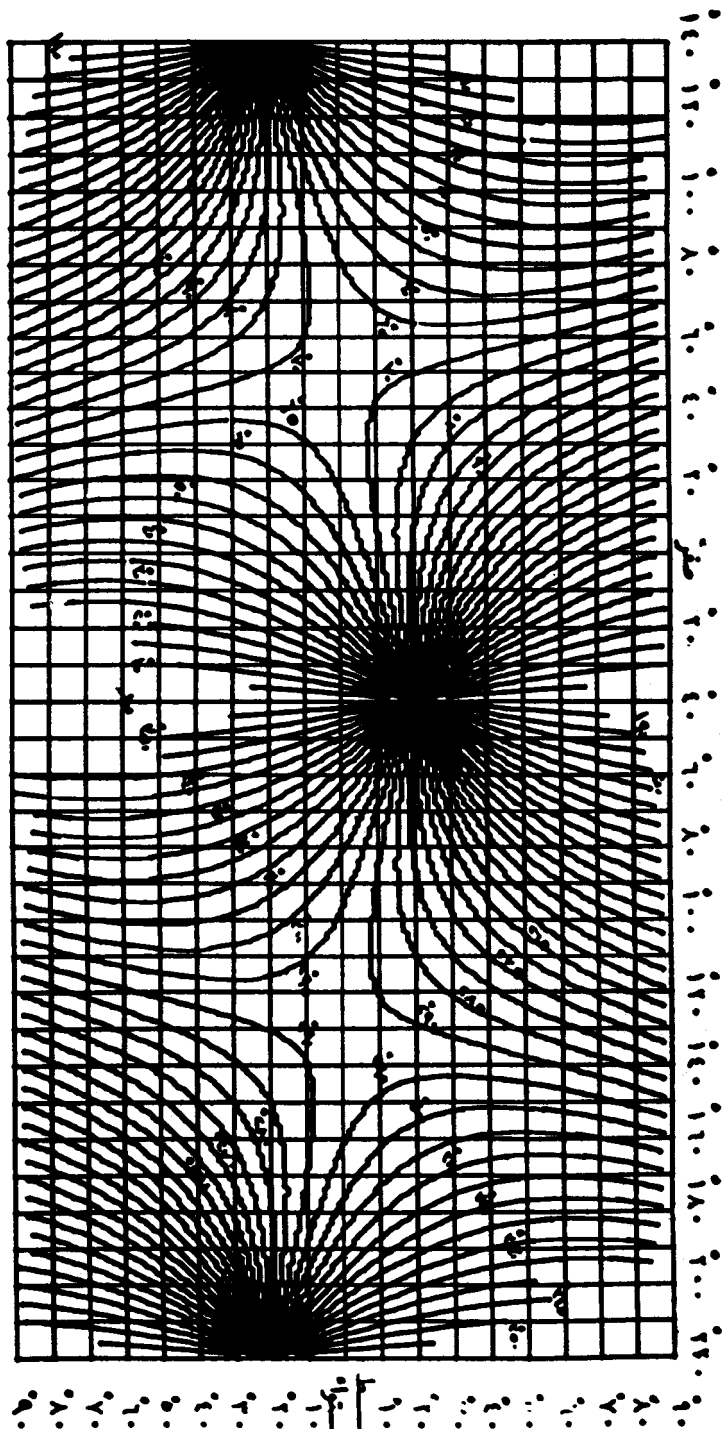
شكل رقم (١٤)

الإسقاط الأول المتساوي بدون رسم خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة عليه



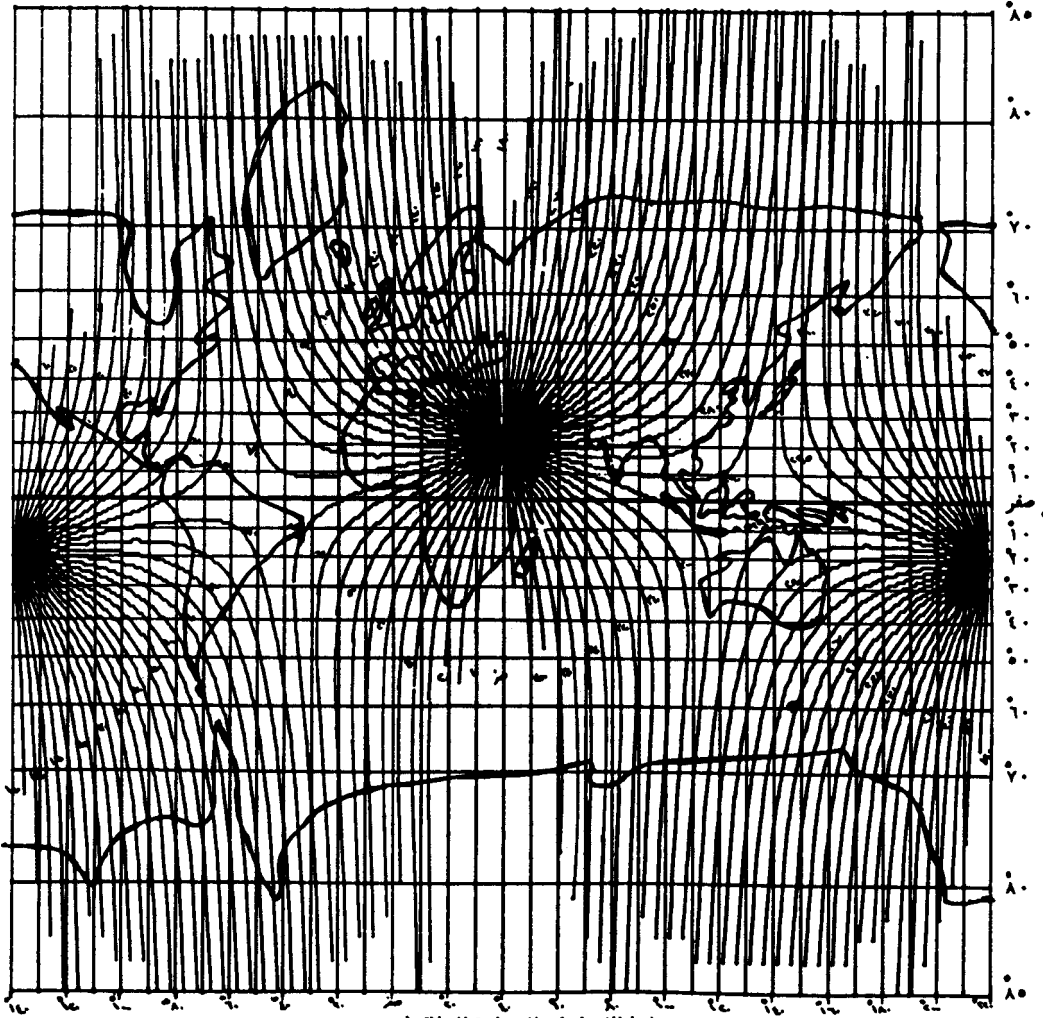
شكل رقم (١٥)

إسقاط مركبتور لخطوط الطول والعرض الأرضية



شكل رقم (١٦)

خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة على الإسقاط المتساوي



شكل رقم (١٧)

خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة على إسقاط مركبتور

وهذه الخرائط يستطيع الشخص العادي الاستفادة منها في معرفة اتجاه الصلاة الصحيح في أي مكان يوجد فيه .

وذلك أولاً بتحديد مكانه على الخريطة ، ثم بعد ذلك يقرأ المقدار العددي المكتوب على أقرب خط من خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة إلى هذا المكان ، فيكون هذا الرقم العددي هو الانحراف الدائري إلى مدينة «مكة المكرمة» من عند هذا الموضع ، ثم باستعمال بوصلة مغناطيسية عادية يمكنه تحديد اتجاه الصلاة الصحيح بعد ذلك .

ولكن المنطقة المحيطة بـ«مكة المكرمة» عن قرب لايزال يصعب بيان الخريطة فيها ، ولذلك عملت المحاولة الثالثة التي سيأتي شرحها ، فيما يلي :

في هذه الحالة استعملنا إسقاطاً جديداً يجمع بين الإسقاط الأول الخاص للكرة الأرضية بالنسبة إلى «مكة المكرمة» ، وبين الإسقاط المتعامد .

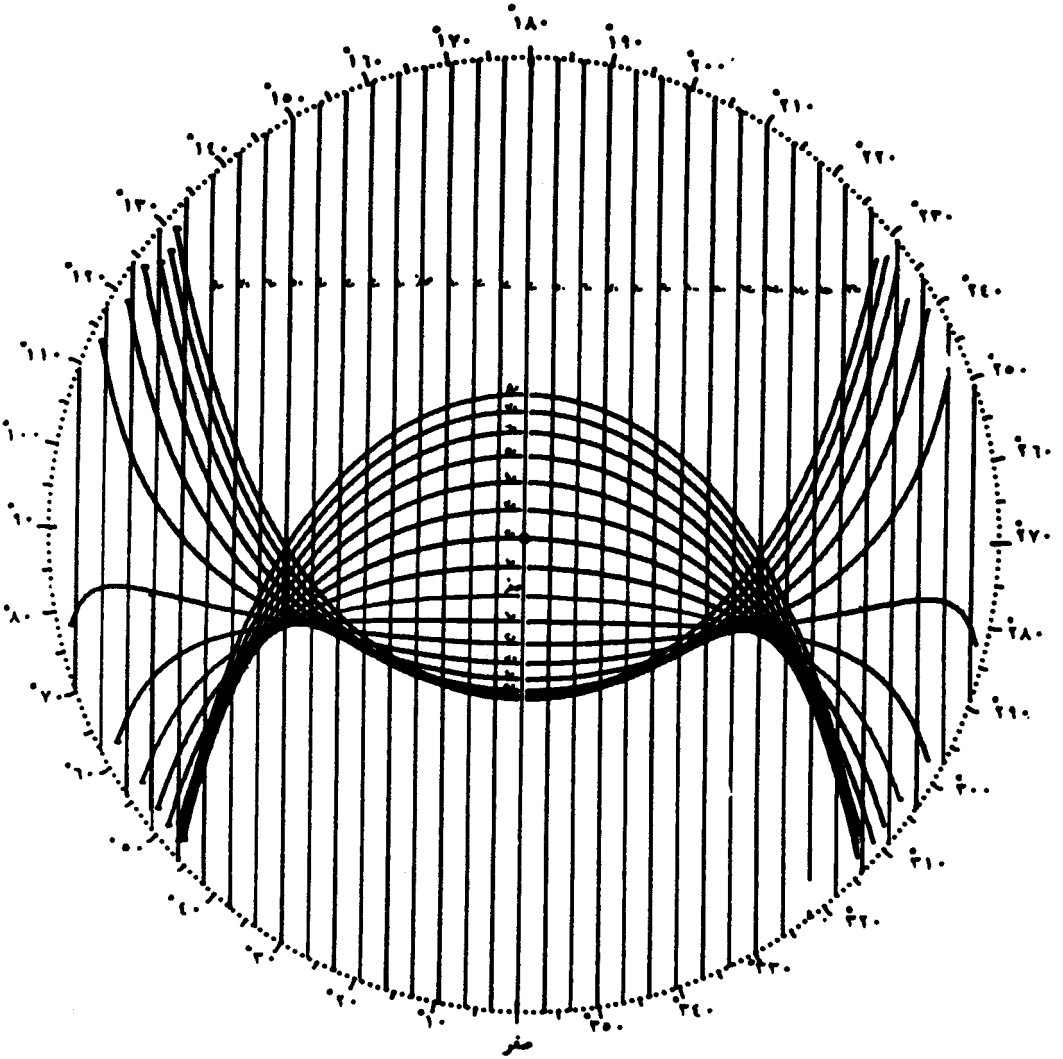
وفي هذا الإسقاط نرسم خطوط الطول متوازية ، والمسافات التي بينها متساوية ، وتكافئ المسافات الفاصلة بينها عند خط الاستواء الأرضي .

ثم نوقع عليها خطوط العرض بصورة صحيحة تجعلنا نحتفظ بالانحرافات الصحيحة بين نقط تقابل هذه الخطوط مع خطوط الطول وبين «مكة المكرمة» .

وعلى ذلك نستطيع أن نسجل هذه الانحرافات الدائرية على محيط الدائرة الخارجي لهذا الإسقاط .

وفي هذه الحالة لا نحتاج إلى رسم خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة السابق ذكرها ، بل نأخذ الانحراف المطلوب لأي مكان من الرقم المدون على محيط دائرة الإسقاط ، كما هو الحال في خريطة العالم حول «مكة المكرمة» .

ولقد تم توقيع هذا الإسقاط كذلك باستعمال الجهاز الحاسب الإلكتروني ، و(الشكل رقم ١٨) يبين هذا الإسقاط في صورة دائرة .



شكل رقم (١٨)

إسقاط خطوط الطول والعرض مع المحافظة على الاتجاه الصحيح للصلاة على محيط الدائرة

ملاحظات أخرى :

١ - تظهر الخريطة بوضوح ، لأننا لا نحتاج لرسم خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة عليها .

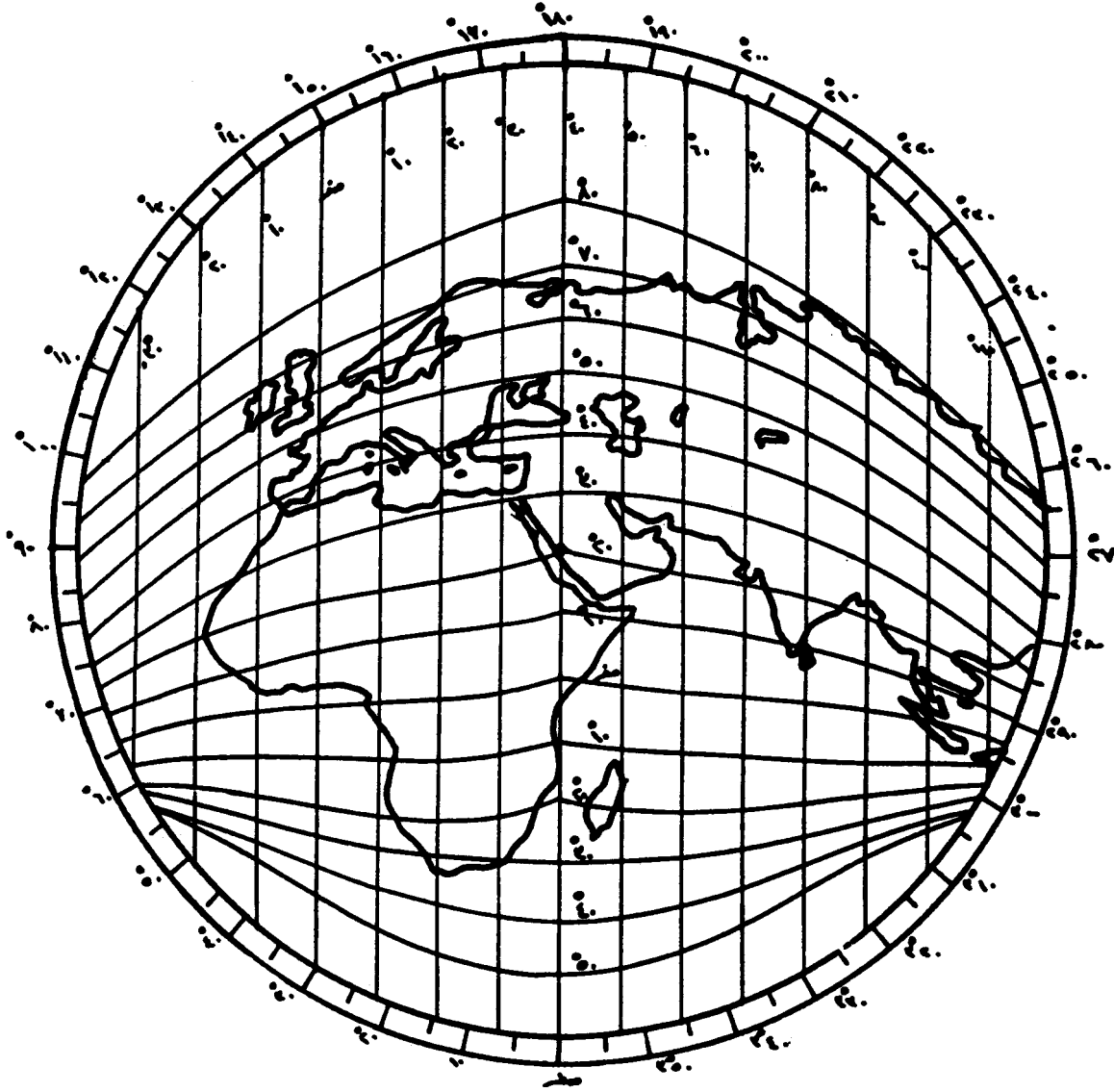
٢ - المنطقة المحيطة بـ «مكة المكرمة» والقريبة منها يسهل تعيين اتجاهات الصلاة فيها بدقة .

٣ - القارات الثلاث الرئيسية ، وهي آسيا وإفريقيا وأوروبا ، يمكن توقيعها بشكل مألوف على هذا الإسقاط ، بينما القارات الثلاث الأخرى ، وهي الأمريكتان ، وأستراليا يتعذر ذلك معها ، حيث نشاهد من خطوط الإسقاط أن خطوط العرض تغير اتجاهاتها الطبيعية عند هذه القارات المذكورة ، وعلى ذلك لا يمكن رسمها على خريطة الإسقاط بصورة مألوفة .

ولذلك فإننا نرى أن يستعمل هذا الإسقاط الأخير بنجاح في المنطقة التي تحد رأسياً بخط العرض (٤٠°) جنوباً إلى القطب الشمالي ، كما تحد أفقياً من خط الطول (١٢٠°) شرقاً إلى (٣٠°) غرباً ، وهذه المنطقة تقع فيها بلاد الأمة الإسلامية .

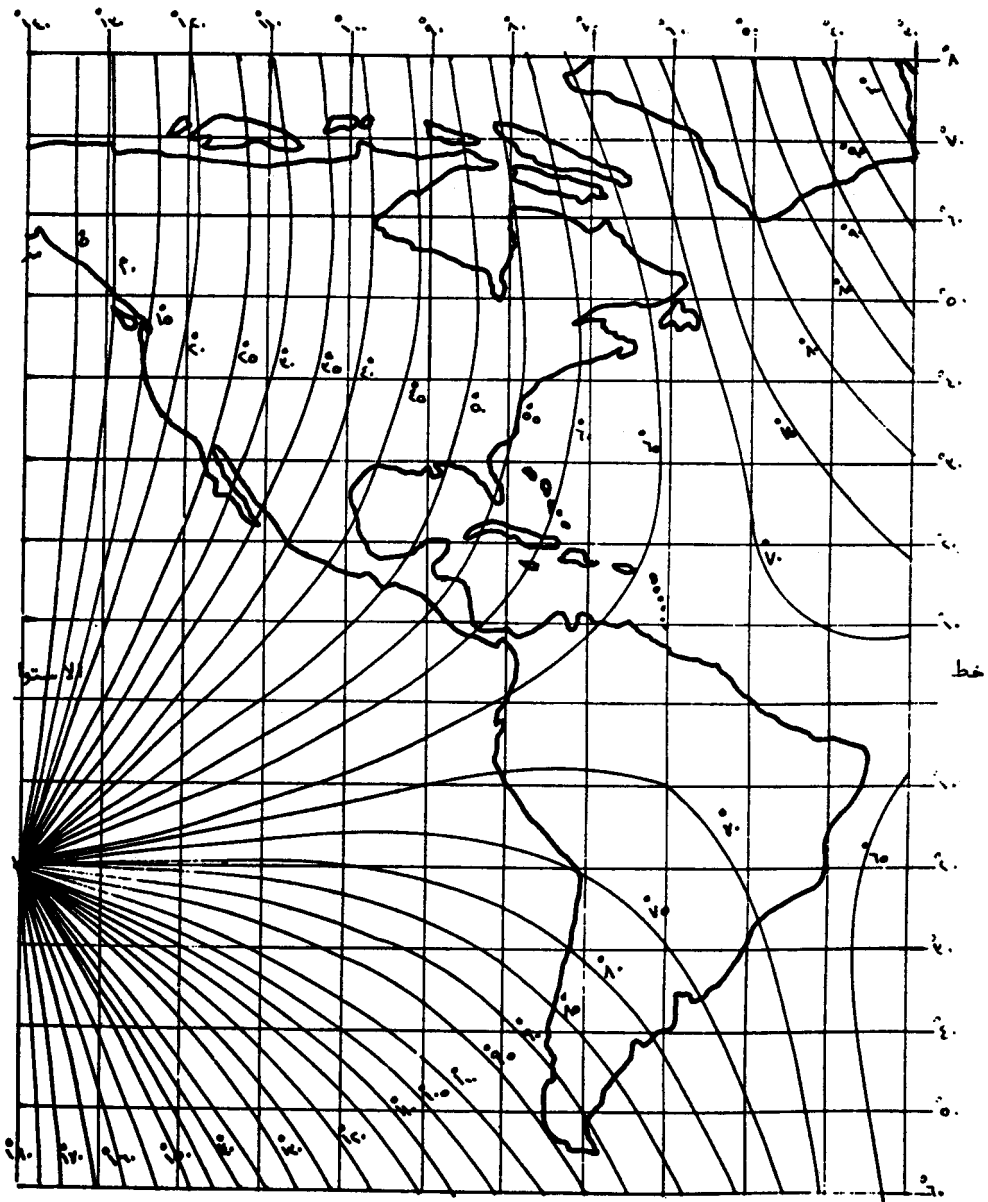
أما باقي القارات فمن الأفضل استعمال خريطة الاتجاهات المتساوية للصلاة عندها ، وهي الأمريكتان وأستراليا .

ولقد رسمت في (الشكل رقم ١٩) القارات الثلاث : آسيا ، وإفريقيا ، وأوروبا بإسقاط الانحرافات الدائرية الصحيح ، وهذا الإسقاط هو الذي يستعمل في رسم الخرائط المطلوبة مع جهاز تعيين اتجاه القبلة ، كما رسمت في (الشكل رقم ٢٠) أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية بالإسقاط المتساوي ، ورسم عليهما خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة ، وكذلك في (الشكل رقم ٢١) رسمت أستراليا ، وجزر الهند الشرقية ، بهذا الإسقاط المذكور .



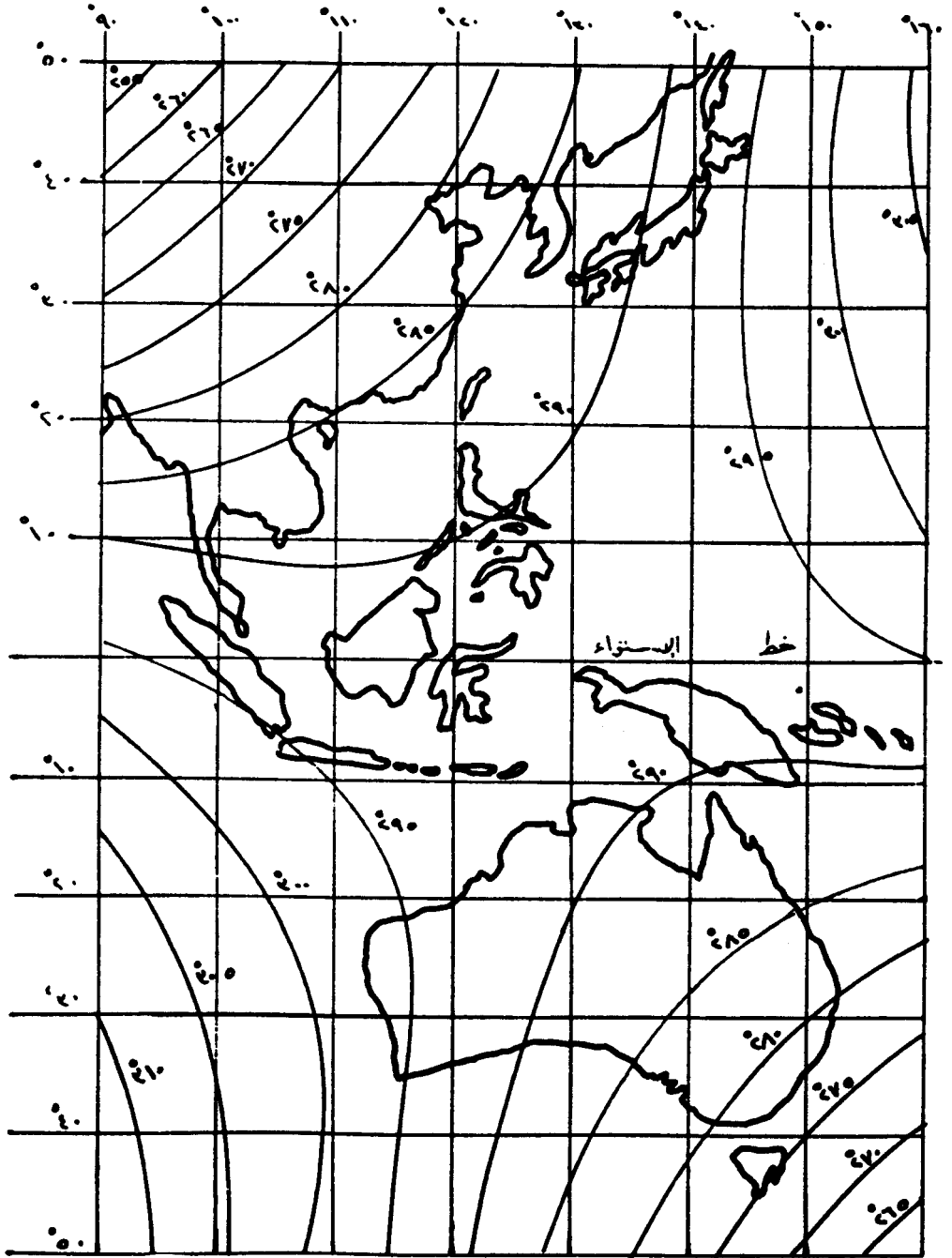
شكل رقم (١٩)

الإسقاط الدائري الصحيح للقارات الثلاث : آسيا وإفريقيا وأوروبا



شكل رقم (٢٠)

خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة على خريطة الأمريكتين



شكل رقم (٢١)

خطوط الاتجاهات المتساوية للصلاة على خريطة استراليا وجزر الهند الشرقية

عند ملاحظة خطوط العرض الأرضية في الإسقاط الدائري الصحيح ، كما في الشكل رقم (١٩) نجد أنها تبدأ مرتفعة من عند خط الطول (٤٠°) شرقاً المار بـ«مكة المكرمة» ، ثم بعد ذلك تنخفض كلما ابتعدنا شرقاً أو غرباً !

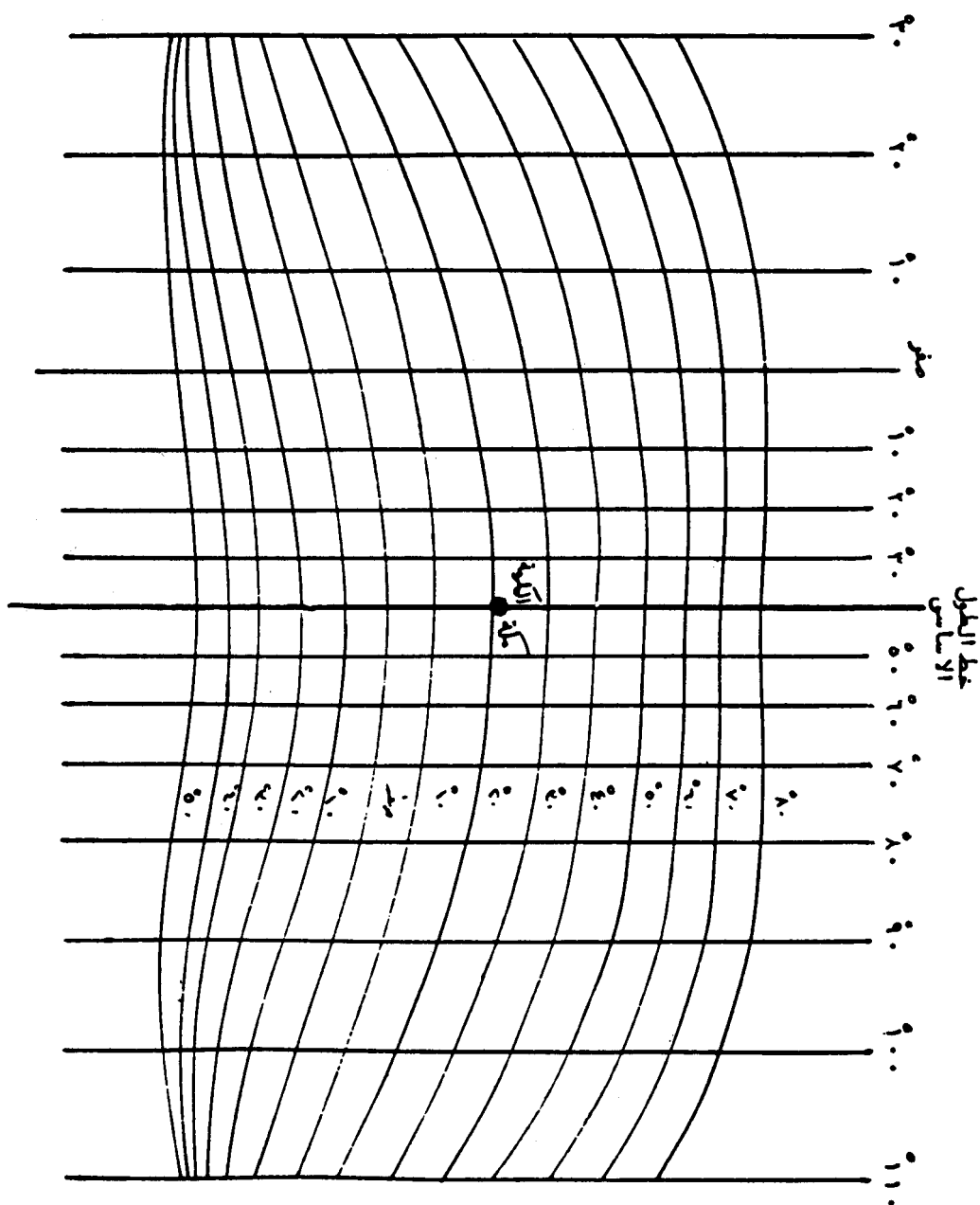
وهذا الأثر يجعل مظهر القارات الأرضية يبدو غير مألوف بعض الشيء عند توقيعها على خطوط الطول والعرض في هذا الإسقاط !

ولقد رأينا تصحيحاً لذلك أننا لو جعلنا المسافات الفاصلة بين خطوط الطول تزداد بنسبة معلومة كلما ابتعدنا عن خط الطول الأساسي المار بـ«مكة المكرمة» ، فإن ذلك يساعد على ظهور خطوط العرض بشكل أفقي تقريباً .

وهذا التعديل في الإسقاط الدائري الصحيح مرسوم في (الشكل رقم ٢٢) .

وقد اكتفينا برسم هذه الخطوط من ٣٠° غرباً إلى ١١٠° شرقاً ، ومن ٨٠° شمالاً إلى ٥٠° جنوباً ، لأن هذا الجزء من سطح الكرة الأرضية هو الذي يصلح عنده استعمال الإسقاط الدائري الصحيح .

وهذا البحث يمكن أن يكون له امتدادات كثيرة لتحسين هذه الإسقاطات ، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق .



شكل رقم (٢٢)

الإسقاط الدائري الصحيح مع اختلاف المسافات بين خطوط الطول الأرضية

مركزية مكة المكرمة، للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية :

وتحت هذا العنوان كتب الأستاذ الدكتور مسلم أحمد شلتوت ، رئيس
شعبة بحوث الشمس والفضاء ، بالمعهد القومي للبحوث الفلكية والجيوفيزيقية ،
وزارة البحث العلمي ، حلوان ، القاهرة ، في ١٣ شعبان ١٤١٤ هـ - ٢٥ يناير
١٩٩٤ م ما يلي :

بناء على ما نشر بمجلة البحوث الإسلامية - المجلد الأول - العدد الثاني -
للأستاذ الدكتور حسين كمال الدين بأن «مكة المكرمة» هي مركز لدائرة تمر
بأطراف جميع القارات ، أي أن الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية
موزعة حول «مكة المكرمة» توزيعاً منتظماً ، وأن مدينة «مكة المكرمة» في هذه
الحالة تعتبر مركزاً للأرض اليابسة ، فقد تم إجراء حسابات على الحاسب الآلي
بقسم بحوث الشمس والفضاء بالمعهد تحت إشرافي للتحقق من هذه المعلومة
المنشورة كما يلي :

أولاً : العالم القديم :

تم أخذ تسع مدن وجزر تمثل أطراف العالم القديم للثلاث قارات :
إفريقيا ، وأوروبا ، وآسيا ، كما هو مبين في (الجدول رقم ٥) الآتي (١) :

(١) سبق أن أشرنا إلى أن الترقيم قد أضفناه ، حتى يسهل تتابع الموضوع .

م	المدينة أو الجزيرة	البلد	خط الطول	خط العرض	المسافة (كم)	الحيود
١	بورنيو	إندونيسيا	١١٥° شرق	١° شمال	٨٤٣٣	٥٪
٢	جاوا	إندونيسيا	١١٠° شرق	٧° جنوب	٨٢٧٣	٣٪
٣	كيب تاون	جنوب إفريقيا	١٨٢٢° شرق	٣٣° جنوب	٦٥٥٩	١٨٪
٤	أيسلندا	أيسلندا	٧° غرب	٦٥° شمال	٦٤١٠	٢٠٪
٥	نيوسيبيريا	شمال روسيا	١٤٢° شرق	٧٥° شمال	٨٠٥٠	.
٦	سخالين	شرق روسيا	١٤٣° شرق	٥١° شمال	٩٠٤٤	١٢٪
٧	كيتاكوشو	اليابان	١٣١° شرق	٣٩° شمال	٨٧٩٠	٩٪
٨	تايوان	تايوان	١٢١° شرق	٢٥° شمال	٨٢١٨	٢٪
٩	مانيتا	الفلبين	١٢١° شرق	١٥° شمال	٨٥٧٥	٧٪
المسافة المتوسطة						٨٠٣٩
						٠٪

وقد تم حساب المسافة القوسية بالكيلو مترات بين «مكة المكرمة» وكل من هذه المدن والجزر التسع ، وذلك بحل المثلثات الكروية بعد معرفة فروق خطوط الطول والعرض بين «مكة المكرمة» وكل منهم .

وكانت المسافة المتوسطة لهذه المواقع التسعة هي ٨٠٣٩ كيلو متر .

ومنها نجد أن حيود مسافة كل موقع عن المسافة المتوسطة لا تتجاوز ٥٪ ما عدا مدينة كيب تاون ، وجزيرة أيسلندا ، فإن الحيود يصل إلى حوالي ٢٠٪ بالسالب ، وحيود مدينة سخالين مقداره ١٢٪ بالموجب ، و٩٪ لمدينة كيتاكوشو بالموجب أيضاً .

وهذا يعني أن «مكة المكرمة» تكاد تكون مركز دائرة تمر بأطراف جميع القارات القديمة نصف قطرها حوالي ٨٠٠٠ كم .

ثانياً :العالم الجديد :

تم حساب المسافة ما بين «مكة المكرمة» وكل من : المسافة (كم) الحيود

١ - مدينة ولنجتون بنيوزيلندا شرق استراليا ١٣٠٤٠ - ١,٥ ٪

٢ - الكورن هورن وهو أقصى مكان بأمريكا الجنوبية ١٣١٢٠ - ١,٥ ٪

٣ - شمال ألاسكا وهو أقصى مكان بأمريكا الشمالية ١٣٦٠٠ - ٢,٥ ٪

وكانت المسافة المتوسطة ١٣٢٥٣ كم ، والحيود لا تتجاوز ٢,٥ ٪ للثلاثة .

وهذه المواقع تمثل أطراف قارات العالم الجديد .

واتضح أن المسافة بينها وبين «مكة المكرمة» تكاد تكون متساوية ، وهذا يعني أن «مكة المكرمة» هي مركز لدائرة تمر بأطراف جميع القارات الجديدة ، كما هو الحال في القارات القديمة .

وهذه الدائرة الجديدة تمر أيضاً بأطراف القارة المتجمدة الجنوبية شرقاً وغرباً .

ثالثاً : مركز مساحات العالم القديم :

تم تعيين مساحات القارات الثلاث : آسيا ، وأوروبا ، وإفريقيا ، ومركز مساحة كل منهم ، ومعرفة خط الطول وخط العرض لهذا المركز .

ثم استعملت طريقة لتحديد مركز القارات الثلاث على أساس ما يعرف بعزم المساحات ، فاتضح أن مركز العالم القديم هو المكان الذي خط طوله ٨٢٩, ٤٨° شرقاً ، وخط عرضه ٣٩, ٣٣° شمالاً ، وهو يختلف كثيراً عن موقع «مكة المكرمة» التي خط طولها ١٧, ٨١° شرقاً ، وخط عرضها ٣٧, ٢١° شمالاً .

رابعاً : مركز مساحات العالم :

تم تعيين مساحة القارات الجديدة ، وهي : استراليا ، وأمريكا الجنوبية ، والشمالية ، ومركز مساحة كل منهم ، ومعرفة خط الطول وخط العرض لهذا المركز ، ثم استعملت طريقة عزم المساحات لتحديد مركز القارات الست سوياً ، فأتضح أن مركز العالم هو مكان خط طوله ٣٤٣° ، ١٣° شرقاً ، وخط عرضه ٩٧٧° ، ٢٤° شمالاً ، وهو يختلف كثيراً عن موقع «مكة المكرمة» .

خامساً : مركز مساحات العالم قبل تزحزح القارات :

لوحظ أنه لو تم تحريك خط طول مراكز قارات العالم الجديد بحيث يلغي تأثير المحيط الأطلسي ، والمحيط الهندي ، والمحيط القطبي الجنوبي ، مع أخذ مساحة القارة المتجمدة الجنوبية في الاعتبار ، فإن مركز اليابسة من حيث التوزيع المساحي المنتظم يكاد يكون «مكة المكرمة» ، وهو ما تشير إليه خرائط العالم منذ العصور الجيولوجية السحيقة عندما كانت اليابسة جزءاً واحداً ، وقبل تزحزح القارات وانفصالها بعضها عن بعض .

المستخلص :

«مكة المكرمة» تكاد تكون مركزاً لدائرة نصف قطرها حوالي ثمانية آلاف كيلومتر ، تمر بأطراف القارات القديمة : (آسيا ، وإفريقيا ، وأوروبا) .

وهي - أيضاً - مركز لدائرة نصف قطرها حوالي ثلاثة عشر ألف كيلومتر ، تمر بأطراف القارات الجديدة : (أمريكا الشمالية ، وأمريكا الجنوبية ، استراليا ، المتجمدة الجنوبية) ، ولكنها ليست مركز العالم القديم أو الجديد أو الاثنين معاً من حيث التوزيع المساحي المنتظم لليابسة .

ومن المحتمل أنها كانت مركز اليابسة قبل ترحل القارات وانفصالها بعضها عن بعض في العصور الجيولوجية السحيقة .

دائرة دلائل القبلة عند الكعبة الشريفة وصورة البلاد الإسلامية بالنسبة لـ «مكة المكرمة» :

كما كتب الأستاذ الدكتور مسلم شلتوت - أيضاً - تحت هذا العنوان في ٩ ذي الحجة ١٤١٤ هـ - ٢٠ مايو ١٩٩٤ م ، ونشر في «الأهرام» بتاريخ ٢١ شوال ١٤١٧ هـ - ٢٨ فبراير ١٩٩٧ م موجزاً له ، لكنه لم يستوعب ، تحت عنوان :

«علماء بحوث الشمس والفضاء بمصر : بعد دراسات مكثفة شملت مساحات الأرض يقررون : الكعبة المعظمة مركز أطراف يابسة الأرض» .
وإليك نص البحث :

لقد تضمن تراثنا العلمي والعربي والإسلامي العديد من المخطوطات عن دائرة دلائل القبلة ، كالدراسة التي أجراها ابن فضل الله العمري (المتوفى ٧٤٩ هـ) ، والتي تضمنها كتابه المسمى «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» ، ففي الخارطة التي في صفحة ٢٤٣ قام ابن فضل الله العمري بتقسيم الدائرة التي تحيط بـ «الكعبة الشريفة» إلى اثني عشر جزءاً ، كل جزء يقابل ثلاثين درجة قوسية ، وحدد على هذه الدائرة الاتجاهات الأصلية الأربعة والبلاد التي تقع وراء كل جزء ، وبحيث يصبح هذا الجزء هو قبلة البلاد التي تقع وراءه .

وأما قبلة أهل كل أرض من جهات «الكعبة الشريفة» فقد حددها عن طريق علم مواقع النجوم ، ففي الصفحات من ٢٤٤ حتى ٢٤٩ وصف لاتجاه القبلة عند كل أرض في أراضي المسلمين باستعمال مواقع النجوم والأبراج الفلكية ، ومعظم

النجوم والتجمعات النجمية والأبراج الفلكية التي وردت أسماؤها بالدراسة مازالت بنفس التسمية حتى الآن ، بل إن كثيراً منها نقل إلى اللغات الأوروبية بنفس التسمية العربية وحتى الآن .

كذلك قام العالم العربي الإسلامي الصفاقسي (نسبة إلى صفاقس بالمغرب) والمتوفى في ٩٥٨ هـ (١٥٥١ م) بعمل خارطة اسمها «صورة البلاد الإسلامية بالنسبة إلى مكة المكرمة» (انظر الخارطة في الصفحة التالية) .

وقد وجدت هذه الخارطة ضمن المجموعة الخامسة بين صفحتي ١٥٤ و ١٥٥ بكتاب «الخارطات العربية» التي جمعها ونشرها العالم الجغرافي الألماني ميللر .

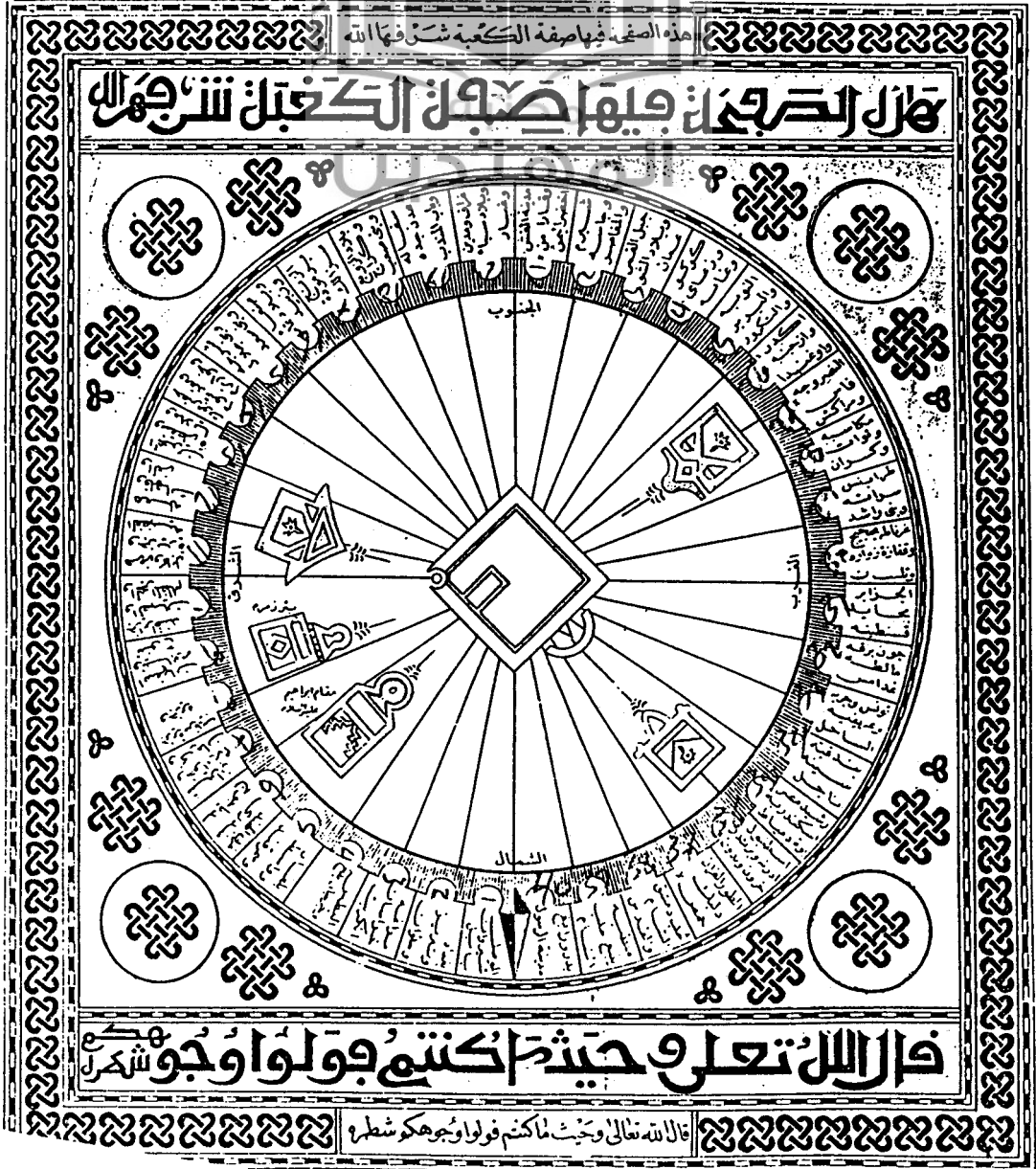
ولقد قام الصفاقسي بتقسيم الدائرة التي تحيط بـ «الكعبة المشرفة» إلى أربعين جزءاً ، وكل جزء يقابل تسع درجات قوسية ، وحدد على هذه الدائرة الاتجاهات الأربعة الأصلية ، بحيث إن ركن الكعبة ناحية الحجر الأسود يأخذ اتجاه الشرق تماماً ، والركن اليماني يأخذ اتجاه الجنوب تماماً ، والركن الشمالي يأخذ اتجاه الشمال تماماً ، والركن الغربي يأخذ اتجاه الغرب تماماً ، ثم قام بتحديد البلاد التي تقع وراء كل جزء ، بحيث يصبح هذا الجزء هو قبلة البلاد التي تقع وراءه ، انظر (الشكل رقم ٢٣) .

ولقد رغبتنا في التحقق فيما جاء في دائرة دلائل القبلة بالكعبة لابن فضل الله العمرى ، وصورة البلاد الإسلامية بالنسبة لـ «مكة المكرمة» للصفاقسي باستخدام علم الفلك الحديث ، وحساب قبلة «الكعبة المشرفة» عند جميع عواصم العالم الحديث ، وكذلك حساب اتجاه كل عاصمة بالنسبة إلى «مكة المكرمة» ، وذلك بحل المثلثات الكروية بواسطة الحاسب الآلي بعد معرفة فروق خطوط الطول والعرض بين «مكة المكرمة» وكل عاصمة .

صُورَةُ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ

بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ

لِلصَّفَاقْسِيِّ ٩٥٨ هـ - ١٥٥١ م.



عشر ميلار، الخارطات العربية

شكل رقم (٢٣) صورة البلاد الإسلامية بالنسبة إلى مكة المكرمة للصفاقسي عام ٩٥٨ هـ - ١٥٥١ م

وللمقارنة فإن (الجدول رقم ٦) يتضمن اتجاه ١٤ عاصمة وبلداً من الأقطار الإسلامية بالنسبة إلى «مكة المكرمة» آخذين في الاعتبار أن اتجاه الشمال الجغرافي يمثل القيمة صفر ، والشرق ٩٠° ، والجنوب ١٨٠° ، والغرب ٢٧٠° ، حيث إن الزاوية التي تبين انحراف أي مكان عن الشمال الجغرافي تسمى الزاوية الأفقية ، وتقاس من صفر إلى ٣٦٠° بداية من الشمال الجغرافي وفي اتجاه الشرق ، كما هو معمول به في جهاز التوليت المساحي .

م	البلد	القطر	الطريقة الحديثة	اتجاه البلد عند «مكة المكرمة»	
				طريقة ابن فضل الله العمري	طريقة الصفاقي
١	بغداد	العراق	١٨,٢٣°	٣٠° → ٠°	١٨° → ٩°
٢	أصفهان	إيران	٤٠,٠٠	٦٠° → ٣٠°	٨١° → ٧٢°
٣	كابول	أفغانستان	٥٦,٨٤	١٥٠° → ١٢٠°	٩٩° → ٩٠°
٤	إسلام آباد	باكستان	٦٠,٢١	١٥٠° → ١٢٠°	٥٤° → ٤٥°
٥	ظفار	عمان	٩٥,٠٠	١٥٠° → ١٢٠°	١٢٦° → ١١٧°
٦	صنعاء	اليمن	١٤٤,٥٠	١٨٠° → ١٥٠°	١٤٤° → ١٣٥°
٧	أكرا	غانا	٢٥٣,٥٦	٢٧٠° → ٢٤٠°	٢١٦° → ٢٠٧°
٨	الرباط	المغرب	٢٩٧,٤٥	٣٠٠° → ٢٧٠°	٢٤٣° → ٢٣٤°
٩	طرابلس	ليبيا	٣٠١,٣٥	٣٠٠° → ٢٧٠°	٢٦١° → ٢٥٢°
١٠	الجزائر	الجزائر	٣٠٣,٨٥	٣٠٠° → ٢٧٠°	٢٧٩° → ٢٧٠°
١١	تونس	تونس	٣٠٧,٥١	٣٠٠° → ٢٧٠°	٢٩٧° → ٢٩٠°
١٢	القاهرة	مصر	٣١٩,٧٦	٣٣٠° → ٣٠٠°	٣٣٣° → ٣٢٤°
١٣	بيت المقدس	فلسطين	٣٣٩,١٢	٣٣٠° → ٣٠٠°	٣٤٢° → ٣٣٣°
١٤	دمشق	سوريا	٣٤٦,٢٨	٣٦٠° → ٣٣٠°	٣٤٢° → ٣٣٣°

ولقد قمنا بتحويل الأجزاء الاثنى عشر في دائرة دلائل القبلة لابن فضل الله العمري ، والأجزاء الأربعين في صورة البلاد الإسلامية بالنسبة إلى «مكة المكرمة» للصفاقسي إلى درجات قوسية حتى تسهل المقارنة ، كما هو موضح بالجدول رقم (٦) .

ومن الجدول يتضح أن طريقة ابن فضل الله العمري تتفق مع طريقتنا الحديثة في ست بلاد وهي : بغداد ، وأصفهان ، وأكرا ، والرباط ، والقاهرة ، ودمشق ، بينما تقل حساباته عن الطريقة الحديثة بمقدار ٢٪ في المتوسط لأربع بلاد هي : طرابلس ، والجزائر ، وتونس ، وبيت المقدس ، وتزيد حساباته على الطريقة الحديثة بمقدار ٣٠٪ في المتوسط لأربع بلاد هي : كابول ، وإسلام آباد ، وظفار ، وصنعاء .

ويتضح من الجدول أيضاً أن طريقة الصفاقسي تتفق مع طريقتنا الحديثة في ثلاث بلاد هي : بغداد ، وصنعاء ، وبيت المقدس ، وحساباته تقل عن حساباتنا بمقدار ١٠٪ في المتوسط لسبع بلاد هي : إسلام آباد ، وأكرا ، والرباط ، وطرابلس ، والجزائر ، وتونس ، ودمشق ، بينما حساباته تزيد على حساباتنا بمقدار ٢٥٪ في المتوسط لأربع بلاد هي : أصفهان ، وكابول ، وظفار ، والقاهرة .

وقد يكون الاختلاف بيننا وبين طريقة الصفاقسي أكثر من الاختلاف الذي بيننا وبين طريقة ابن فضل الله العمري بسبب أن الصفاقسي قسم دائرة دلائل القبلة لأربعين جزءاً ، كل جزء يقابل ٩ درجات ، بينما قسمها ابن فضل الله العمري إلى اثني عشر جزءاً ، كل جزء يقابل ثلاثين درجة ، ومن المفترض أن دائرة دلائل القبلة للصفاقسي تكون أكثر دقة عن دائرة ابن فضل الله العمري لكثرة أجزائها ، كما أنها أجريت بعد حوالي قرنين من دائرة ابن فضل الله العمري .

المستخلص :

تعتبر دائرة القبلة عند «الكعبة المشرفة» لابن فضل الله العمري (المتوفى ٧٤٩هـ) وصورة البلاد الإسلامية بالنسبة إلى «مكة المكرمة» للصفاسي (المتوفى ٩٥٨هـ) هي أقرب للاتفاق مع الحسابات الفلكية ، والحقائق الجغرافية الحديثة عن الاختلاف .

وهما عملان علميان رائعان بالقياس للخرائط الأوروبية في ذلك الوقت ، لاسيما أن أجهزة الرصد الفلكي الحديثة (المناظير الفلكية) وكذلك الإبرة المغناطيسية لتحديد الشمال لم تكون متوافرة لهذين العالمين الإسلاميين الجليلين في عصر كل منهما .



الفصل الخامس

عمارة المسجد الحرام عبر التاريخ الإسلامي

. مقدمة .

. توسعة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٧ هـ .

. توسعة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٢٦ هـ .

. توسعة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه سنة ٦٥ هـ .

. توسعة الوليد بن عبد الملك سنة ٩١ هـ .

. توسعة أبي جعفر المنصور سنة ١٣٧ هـ .

. توسعة المهدي سنة ١٦٠ . ١٦٤ هـ .

. توسعة المعتضد العباسي سنة ٢٨١ هـ .

. توسعة المقتدر بالله العباسي سنة ٣٠٦ هـ .

. التوسعة السعودية المباركة للمسجد الحرام .

. المرحلة الأولى .

. المرحلة الثانية .

. المرحلة الثالثة .

. توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز

للمسجد الحرام .

الفصل الخامس

عمارة المسجد الحرام عبر التاريخ الإسلامي

مقدمة :

ما من مدينة على مدى تاريخ البشرية حظيت - وما زالت تحظى - بتقديس وتكريم ، مثلما تحظى به « مكة المكرمة » ، حيث « الكعبة المشرفة » أول بيت وضع للناس لعبادة الله وتوحيده ، والتي أقام قواعدها - بأمر من الله - أبو الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، ليكون مقاماً يقصده المؤمنون ، ويحجون إليه .

ولقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء إبراهيم عليه السلام - كما أسلفنا - فبعث من ذريته رسولاً بعد أكثر من ألفين وستمائة سنة ، إذ جاء خاتم النبيين الحبيب المحبوب محمد ﷺ ، الذي أرسله الله بالكتاب الحكيم ، لهداية الناس أجمعين .

وقد أدى ﷺ الحج في السنة العاشرة من الهجرة ، وخطب الناس ، وشهد أقواله وأفعاله الذين حجوا معه من الصحابة رضي الله عنهم ، وروى المحدثون ذلك ! ومنذ ذلك الوقت أخذ عدد الحجاج من ضيوف الرحمن يتزايد عاماً بعد عام ، حتى وصل في العصر الحاضر إلى حوالي مليوني حاج .

وعلى مر العصور الإسلامية احتفظت الأماكن المقدسة بحرماتها وقديسياتها ، وكانت محط اهتمام ورعاية القائمين على خدمتها .

ولذلك فقد أجرى الحكام التوسعات المختلفة على مر العصور ، حيث بدأت التوسعة الأولى في عهد ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وكان آخرها التي قام بها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز عاهل المملكة العربية السعودية .

توسعة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٧ هجرية : (١)

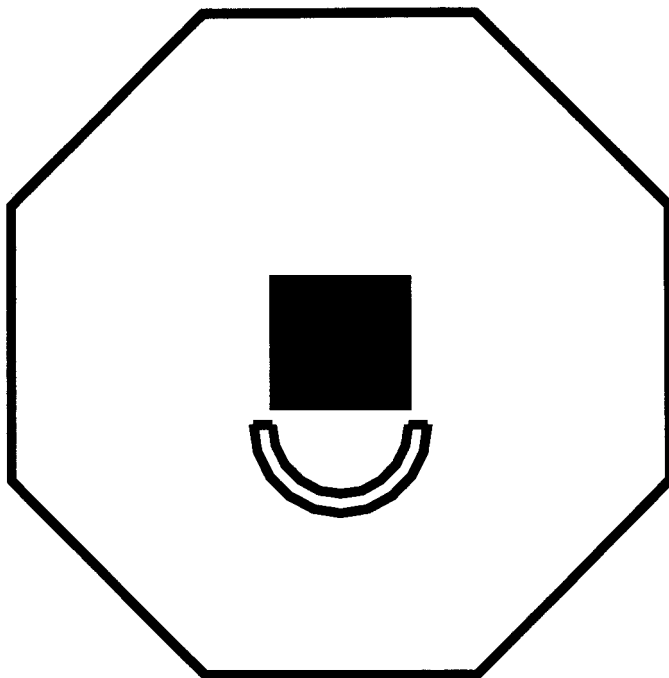
كانت التوسعة الأولى للمسجد الحرام في العام السابع عشر من الهجرة النبوية إبان حكم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عندما أفسد سيل «أم نهشل» مباني المسجد الحرام ، وقد انحدر من جانب المسعى وأحدث تلفاً عظيماً في المباني .

ولضيق المسجد بالمصلين رغب عمر رضي الله عنه في التوسعة ، فاشترى الدور الملاصقة للمسجد الحرام وضمها له ، وأقام جداراً حوله ، كان ارتفاعه دون ارتفاع قامة الإنسان ، وجعل له أبواباً ، ووضع عليه مصابيح كي تضيء بعد سدول الظلام ، وعمل سداً لحجز ماء السيول عن الكعبة وتحويلها إلى وادي إبراهيم المجاور .

وهكذا كان عمر رضي الله عنه ، أول من عمل توسعة للمسجد الحرام في العصر الإسلامي .

(١) المساجد في المدن العربية ، توطئة لموسوعة المساجد ، إعداد المعهد العربي لإنماء المدن ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

ونرى في (شكل رقم ٢٤) مخطط الكعبة بعد أن جُدد بناؤها (١) .



شكل رقم (٢٤) مخطط الكعبة بعد أن جُدد بناؤها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٢)

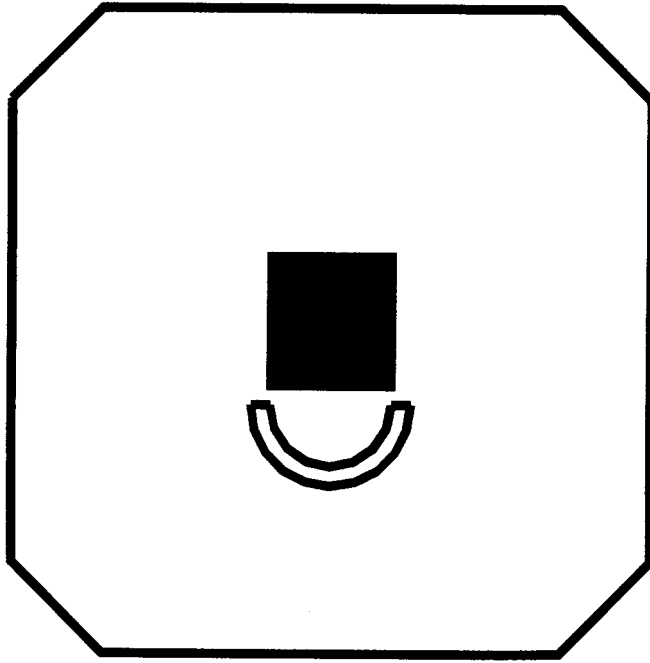
(١) قمنا بإعادة رسم الأشكال التالية باستخدام الكمبيوتر بأحدث البرامج المتاحة للرسم الهندسي (AUTOCAD RI 4) .

(٢) الأشكال (٢٤ : ٢٩) من كتاب : المساجد في المدن العربية ، توطئة لموسوعة المساجد ، إعداد المعهد العربي لإغناء المدن ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

توسعة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٢٦ هجرية :

وكانت التوسعة الثانية للمسجد الحرام إبان حكم الخليفة الثالث عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، وكانت بعد التوسعة الأولى بعشر سنوات ، وذلك عندما رأى الخليفة ازدياد السكان بمكة ، وازدياد ضيوف الرحمن لانتشار الإسلام السريع ، فقرر توسعة المسجد الحرام .

وقامت التوسعة في سنة ست وعشرين هجرية ، بشراء الدور الملاصقة للمسجد ، وضم أرضها ، ومع هذه التوسعة جدد المسجد تجديداً شاملاً ، وأدخل الأروقة المسقوفة ، وجعل في المسجد أعمدة من الرخام .
وكانت هذه التوسعة على وفق (شكل رقم ٢٥) .



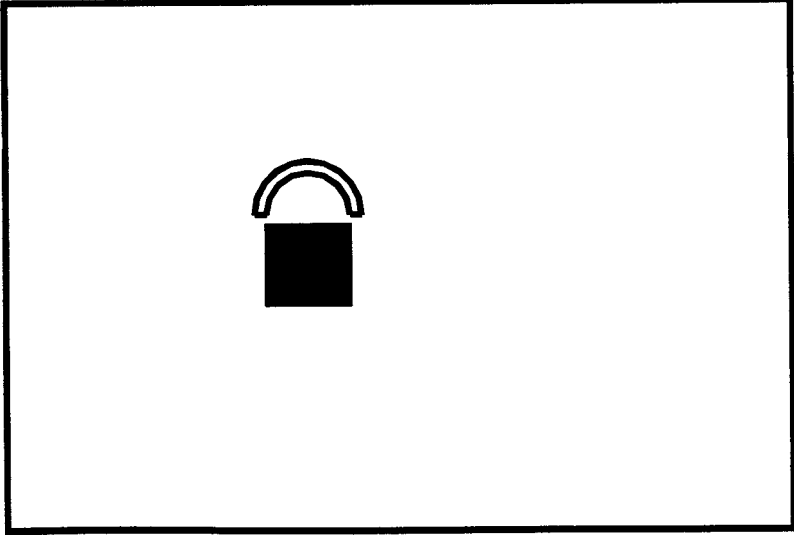
شكل رقم (٢٥) يوضح التوسعة على شكل مربع مشطوف الأركان في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه

توسعة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه سنة ٦٥ هجرية :

أما التوسعة الثالثة فكانت إبان حكم عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، وقد أعاد بناء الكعبة بعدما أصابها من الحريق الذي شب في الكعبة أثناء حصار يزيد لمكة في نزاعه مع عبد الله بن الزبير ، وانتهى الحصار بموت يزيد .

وقد تمت هذه التوسعة في السنة الخامسة والستين هجرية ، وضاعفت من مساحة المسجد فبلغ عشرة آلاف متر مربع .

انظر (شكل رقم ٢٦) .

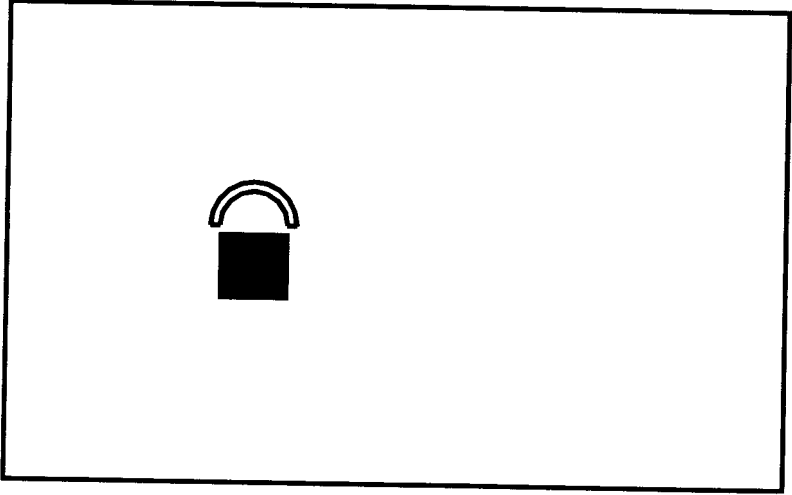


شكل رقم (٢٦) يوضح التوسعة عام ٦٥ هـ في عهد عبد الله بن الزبير رضي الله عنه

توسعة الوليد بن عبد الملك سنة ٩١ هجرية:

وفي عهد الوليد بن عبد الملك كانت عمارة التوسعة الرابعة للمسجد في سنة إحدى وتسعين هجرية ، بعد سيل جارف أصابها ، وقد زاد من مساحة المسجد ، وأجمع كثير من المؤرخين على أن الوليد بن عبد الملك كان أول من استعمل الأعمدة التي جلبت من مصر وسوريا في بناء المسجد ، وشيد الشرفات ، ليستظل بها المصلون من حرارة الشمس .

ونرى ذلك في (شكل رقم ٢٧) .

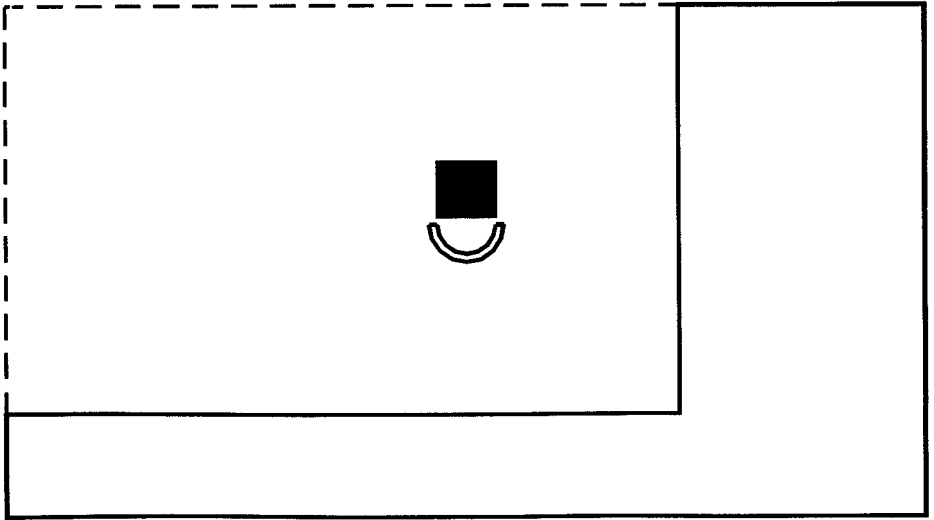


شكل رقم (٢٧) يوضح التوسعة التي أجراها الوليد بن عبد الملك بالمسجد الحرام

توسعة أبي جعفر المنصور سنة ١٣٧ هجرية :

وفي عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور زاد في توسعة المسجد الحرام سنة ١٣٧ هجرية ، فأضاف إلى مساحته من الشمال والغرب ، وكانت زيادته ضعف الزيادة السابقة .

وقد شيد منارة بالركن الشمالي والغربي ، كما أمر بتبليط حجر إسماعيل بالرخام وأمر بتغطية فوهة بئر زمزم بشباك لمنع السقوط بالبئر .
ونرى في (شكل رقم ٢٨) رسماً توضيحياً يبين التوسعة التي تمت في عهده .



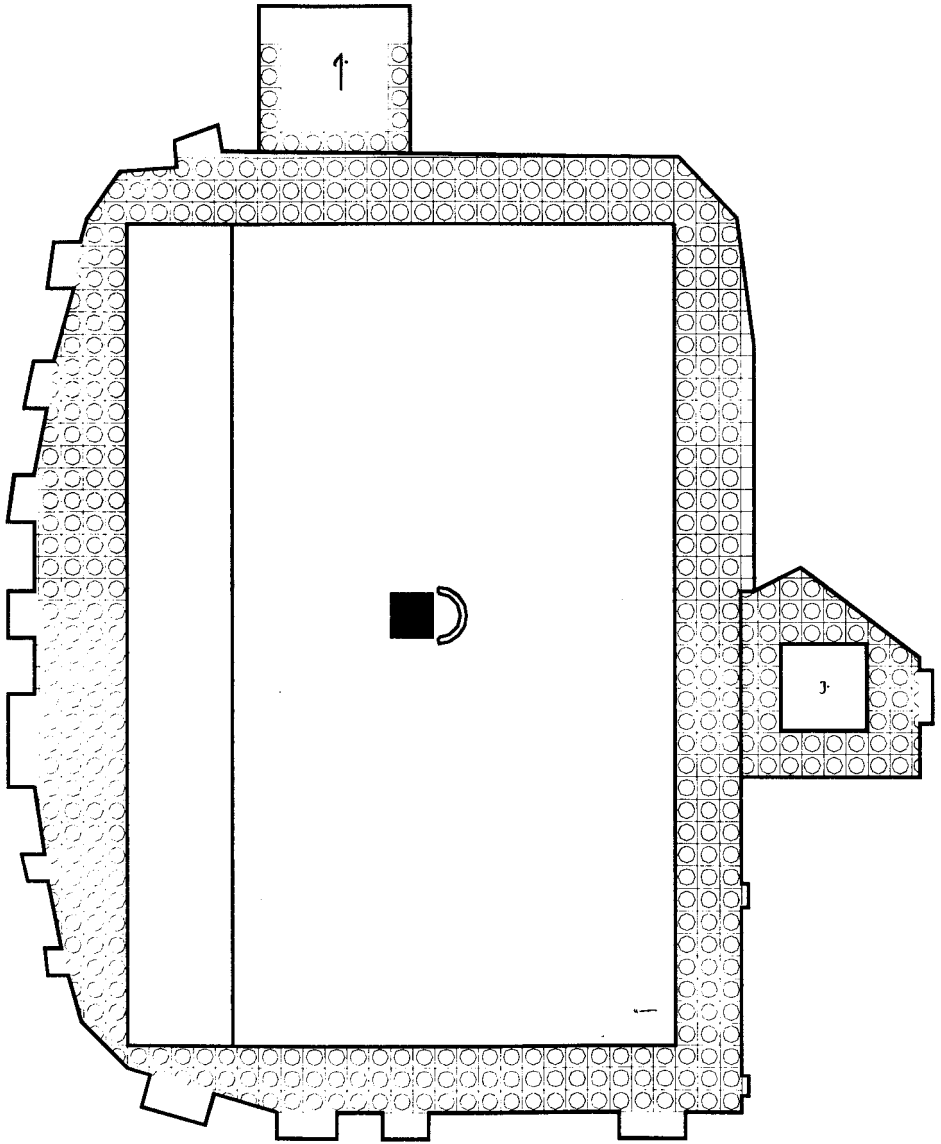
شكل رقم (٢٨) يوضح التوسعة التي تمت في عهد أبي جعفر المنصور

توسعة المهدي سنة ١٦٠. ١٦٤ هجرية:

وعندما حج الخليفة العباسي الثالث محمد المهدي حجته الأولى سنة ١٦٠ هجرية ، أمر بزيادة مساحة المسجد الحرام إلى ضعف مساحته التي كان عليها ، وكانت التوسعة من الجانبين الشمالي والشرقي ، ولكن بهذه الزيادة لم تبق الكعبة في الوسط ، وحينما لاحظ ذلك أثناء حجته سنة ١٦٤ هـ أصدر أمره بتوسعة الجانب الجنوبي وقد صعد على جبل أبي قبيس ليتأكد من أن الكعبة في وسط الفناء ، ولما كان وجود مجرى السيل في هذه الجهة عائقاً فنياً في سبيل التوسعة من الناحية الجنوبية ، أمر المهدي بتحويل مجرى السيل ، وإكمال مشروع التوسعة من الجنوب ، إلا أنه لم يعش ليرى إتمام عمله ، فأكماله ابنه موسى الهادي في عام ١٦٧ هجرية .

وبهذه الزيادة تضاعفت مساحة المسجد الحرام تقريباً .

انظر (شكل رقم ٢٩) .



شكل رقم (٢٩) يوضح توسعة المهدي سنة ١٦٠-١٦٤ هـ، حيث زادت مساحة المسجد
الحرام فيها إلى ٣٠,٢٤٠ متر مربع بعد أن كانت ١٦,٠٠٠ متر مربع

توسعة المعتضد العباسي سنة ٢٨١ هجرية:

وفي العصر العباسي - أيضاً - قام المعتضد ببعض الترميمات والتوسعة سنة ٢٨١ هـ ، فأمر بهدم دار الندوة وجعلت رواقاً من أروقة المسجد ، وأدخل فيها من أبواب المسجد الكبير ستة أبواب ، وأقيمت فيه الأعمدة ، وسقف بخشب الساج ، كما عمل لها اثني عشر باباً من الداخل ، وثلاثة أبواب من الخارج ، وتمت الزيادة في ثلاث سنوات .

انظر أيضاً (شكل رقم ٢٩) .

توسعة المقتدر بالله العباسي سنة ٣٠٦ هجرية:

وقد أضاف المقتدر بالله العباسي مساحة دارين للسيدة زبيدة ، أضيفت إلى مساحة المسجد سنة ٣٠٦ هـ ، وجعل لها باباً كبيراً وهو المعروف باسم باب إبراهيم ، وكانت هذه آخر زيادة في مساحة المسجد الحرام ، وبقي المسجد بلا تغيير مساحته إلى العهد السعودي المبارك ، فلم يشهد المسجد الحرام توسعة طيلة حكم الفاطميين ، والأيوبيين ، والمماليك ، والعثمانيين ، وإنما اقتصر العمل في المسجد خلال هذه الحقبة على الترميم والإصلاح .

التوسعة السعودية المباركة للمسجد الحرام:

لقد مرت فترة غير قصيرة على آخر توسعة للمسجد الحرام في عام ٣٠٦ هـ الموافق ٩١٨ م ، ومع تنامي أعداد المسلمين ، حيث اتسعت خلال هذه الفترة رقعة العالم الإسلامي ، لتشمل بلاداً وشعوباً جديدة في إفريقيا وآسيا ، فضلاً عن التطور الهائل الذي شهده العصر الحديث في وسائل المواصلات التي اختصرت المسافات ، وقاربت ما بين البلدان ، كل ذلك أدى إلى مضاعفة أعداد حجاج بيت

الله الحرام ، مما أظهر مدى الحاجة إلى توسعة المسجد الحرام لاستيعاب المصلين ، وقد تمت التوسعة السعودية على عدة مراحل :

المرحلة الأولى :

وقد بدأ العمل بها بأمر من الملك سعود - رحمه الله - في عام ١٣٧٥هـ الموافق ١٩٥٥م ، وتم خلال هذه المرحلة بناء المسعى من طابقين ، لاستيعاب أكبر عدد ممكن من المصلين ، ويبلغ طول المسعى من الداخل ٣٩٤,٥ متراً ، وعرضه ٢٠ متراً ، ويبلغ ارتفاع الطابق الأرضي للمسعى ١٢ متراً ، والطابق العلوي ٩ أمتار .

وأقيم في وسط المسعى حاجز يقسمه إلى قسمين طويلين ، خصص أحدهما للمسعى من الصفا إلى المروة ، والآخر من المروة إلى الصفا ، لتيسير السعي ، ومنع التصادم بين الساعين ذهاباً وإياباً .

وأنشئ للمسعى ١٦ باباً في الواجهة الشرقية ، كما خصص للطابق العلوي مدخلان ، أحدهما عند الصفا ، والآخر عند المروة ، وبني لهذا الطابق سُلمان من داخل المسجد ، أحدهما عند باب الصفا ، والآخر عند باب السلام .

المرحلة الثانية :

بدأت العمارة في هذه المرحلة عام ١٣٧٩هـ - الموافق ١٩٥٩م ، وتم الجزء الخارجي للمبنى الجديد ، وعند عمل الحفريات ، وجد أن الأرض الصالحة للتحميل الطبيعي تقع على عمق أربعة أمتار من مستوى الأرض الحالية وقد امتلأت بالردم المتخلف عن البناء القديم ، وفي هذا الفراغ بني البدروم الحالي الذي لم يكن موجوداً في التصميم المعماري أصلاً .

وخلال هذه المرحلة وسعت منطقة المطاف ، وأصبحت في شكلها الحالي ، كما أقيمت السلا لم الحالية لبث زمرم .

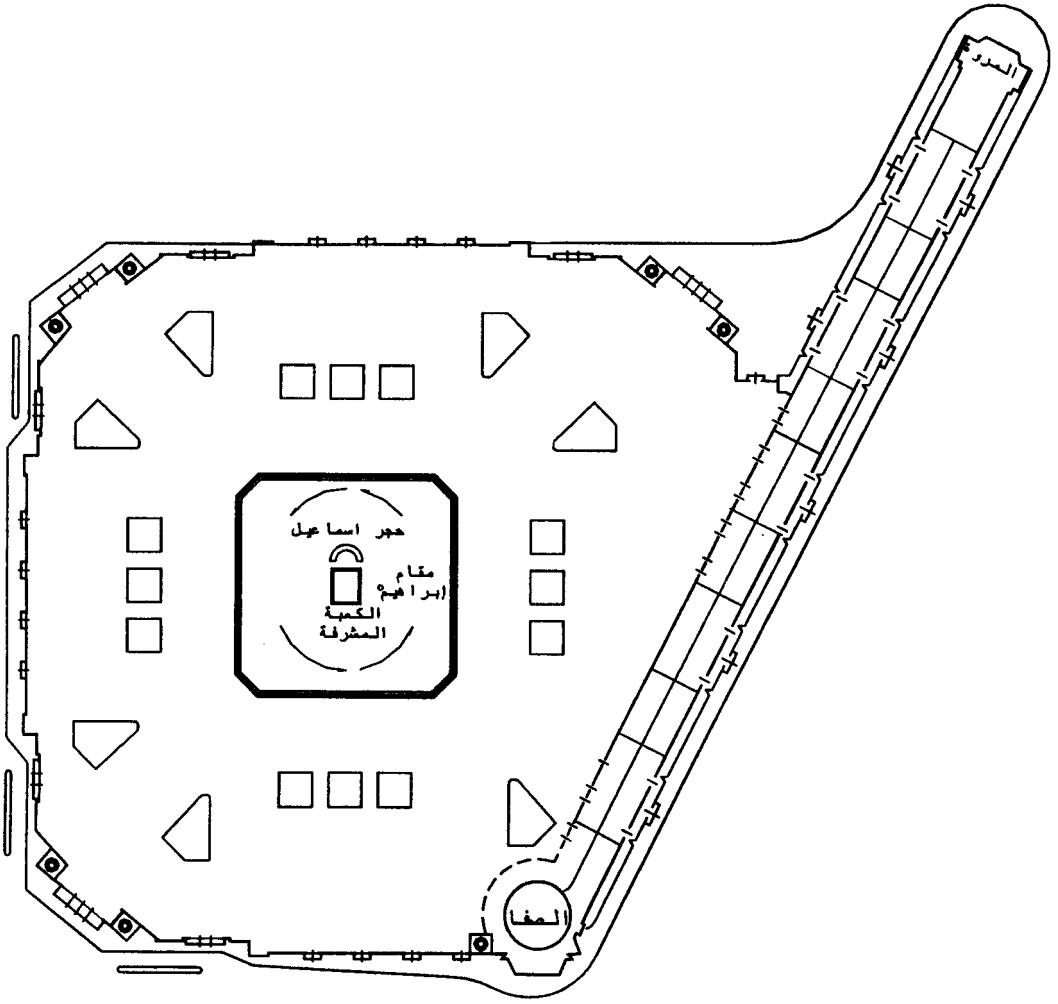
المرحلة الثالثة :

بدأت هذه المرحلة بالقرار التاريخي الحكيم الذي أصدره الملك فيصل ابن عبدالعزيز - رحمه الله - بتعديل التصميم الأصلي للتوسعة ، وذلك للاحتفاظ بمباني المسجد العثماني .

وقد اتخذ هذا القرار بعد أن عقد مؤتمر كبير من المهندسين المعماريين المسلمين في مكة عام ١٣٨٧هـ ، ليطلعوا على البدائل الممكنة لتطوير التصميم ، وقد أوصى المؤتمر بإزالة جزء كبير من المبنى العثماني ، ولكن الملك فيصل - رحمه الله - رأى أن اندماج القديم بالجديد سيحقق شعوراً عميقاً بالاستمرار . وهكذا وضع المهندس المعماري المرحوم طاهر الجويني اقتراحاً جديداً للدمج .

ونرى في (شكل رقم ٣٠) المسقط الأفقي العام للحرم المكي الشريف بعد هذه التوسعة ، وفي الوقت نفسه بنيت المكبرية ، وشقت الطرق المحيطة بالحرم المكي الشريف ، وأنشئت الميادين المتسعة لتنظيم المرور حول الحرم ، والدكاكين وغيرها من المرافق ، والخدمات المختلفة التي تحتاج إليها المنطقة ، لتسهيل لضيوف الرحمن والزوار والمواطنين الحصول على كل ما يحتاجون إليه في موسم الحج من كل سنة ، وفي مواسم العمرة ، وزيارة الحرم الشريف بـ «مكة المكرمة» .

وقد أصبحت عمارة المسجد الحرام بعد هذه التوسعة ١٩٣,٠٠٠ متر مربع (مائة وثلاثة وتسعين ألف متر مسطح) بعد أن كانت ٢٩,١٢٧ متراً مسطحاً ، أي بزيادة قدرها ٠٤١,١٣١ متراً مسطحاً ، مما جعل الحرم يتسع لحوالي أربعمائة ألف مصل .



شكل رقم (٣٠) يوضح المسقط الأفقي العام للحرم المكي الشريف بعد التوسعة التي تمت في عهد الملك فيصل - رحمه الله - والتي أصبحت مساحة المسجد الحرام فيها ١٩٣,٠٠٠ متر بعد أن كانت ٢٩,١٢٧ متراً، أي بزيادة قدرها ١٣١,٠٤١ متراً (١)

(١) دراسات في العمارة الإسلامية ، المهندس الاستشاري عبدالسلام أحمد نظيف - الخبير في العمارة الإسلامية ، ومدير عام الهندسة بوزارة الأوقاف - الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٩ م .

توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز للمسجد الحرام^(١) :

وفي الثاني من شهر صفر عام ١٤٠٩ هـ ، قام خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز بوضع حجر الأساس لتوسعة المسجد الحرام ، وتضمنت التوسعة إضافة جزء جديد على مبنى المسجد الحالي من الناحية الغربية في منطقة السوق الصغير ، بين باب العمرة وباب الملك .

وتبلغ مساحة أدوار مبنى التوسعة (٧٦, ٠٠٠)م^٢ موزعة على الدور الأرضي ، والدور الأول ، والقبو ، والسطح ، وتتسع لحوالي (١٥٢, ٠٠٠) مصل .

ويشمل المشروع تجهيز الساحات الخارجية ، ومنها الساحة المتبقية من جهة السوق الصغير ، والساحة الواقعة شرقي المسعى بمساحة إجمالية تبلغ (٨٥, ٨٠٠)م^٢ تكفي لاستيعاب (١٩٠, ٠٠٠) مصل .

وتصبح بذلك مساحة المسجد الحرام شاملة مبنى المسجد بعد توسعته ، والسطح ، وكامل الساحات (٣٥٦, ٠٠٠)م^٢ تتسع لحوالي (٧٧٣, ٠٠٠) مصل في الأيام العادية ، أما في أوقات الحج ، والعمرة ، ورمضان فيزيد استيعاب الحرم ليصل إلى أكثر من مليون مصل .

كما يضم مبنى التوسعة مدخلاً رئيساً جديداً ، و١٨ مدخلاً عادياً ، بالإضافة إلى مداخل المسجد الحرام الحالية ، والبالغ عددها ٣ مداخل رئيسة ، و٢٧ مدخلاً عادياً ، وقد روعي في التصميم إنشاء مدخلين جديدين للبدرم ، إضافة إلى المداخل الأربعة الحالية .

(١) المملكة العربية السعودية : مسيرة البناء ، وزارة الإعلام ، الإعلام الخارجي ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م .

ويتضمن مبنى التوسعة أيضاً مئذنتين جديدتين بارتفاع (٨٩) متراً ،
تشابهان في تصميمهما المعماري مع المآذن البالغ عددها سبع مآذن .

ولتسهيل وصول أفواج المصلين إلى سطح التوسعة في المواسم تم إضافة
مبنى للسلام المتحركة :

أحدهما في شمالي مبنى التوسعة .

والآخر في جنوبيه .

ومساحة كل منهما ٣٧٥ متراً مربعاً .

ويحتوي على مجموعتين من السلام المتحركة ، طاقة كل مجموعة
(١٥,٠٠٠) شخص في الساعة .

إضافة إلى مجموعتين من السلام المتحركة داخل حدود المبنى على جانبي
المدخل الرئيسي للتوسعة .

وقد صممت السلام المتحركة بحيث تستطيع بالإضافة إلى وحدات الدرج
الثابت الثماني خدمة حركة الحجاج والمصلين في أوقات الذروة ، لا سيما كبار
السن منهم دون عناء .

وبذلك يصبح إجمالي عدد مباني السلام المتحركة ٧ ، تنتشر حول محيط
الحرم والتوسعة لخدمة رواد الدور الأول والسطح .

وبلغ عدد الأعمدة لكل طابق بالتوسعة ٤٩٢ عموداً مكسوة جميعها
بالرخام .

واليكم توسعة المسجد المكي الشريف (بالأرقام) :

بيان	الوضع قبل التوسعة	التوسعة	الإجمالي
مساحة المسجد الحرام	١٩٣ ألف متر مربع	١٦٣ ألف متر مربع	٣٥٦ ألف متر مربع
عدد المصلين	٤١٠ ألف مصل	٧٧٣ ألف مصل	أكثر من مليون مصل
المآذن	٧	٢	٩ الواحدة ارتفاع ٨٩ م
المدخل الرئيسة	٣	١	٤ مدخل
المدخل العادية	٢٧	١٨	٤٥ مدخلاً
مدخل البدروم	٤	٢	٦ مدخل
السلام المتحركة	٧	٤	١١ سلماً
عدد أبواب المسجد الحرام	٢٧	١٤	٤١ باباً
عدد دورات المياه وأماكن الوضوء	٥٠٠٠	٤٠٠٠	٩٠٠٠ حمام وميضأة

وقد بلغت تكاليف مشروع خادم الحرمين الشريفين لتوسعة المسجد الحرام الشريف بـ «مكة المكرمة» بما في ذلك نزع الملكيات (٧٧٥، ١٨١، ١٧٨، ٣٠) ريالاً سعودياً، أي (١٦٥، ٨١٨، ٣١٦، ١١) دولار .

وفق الله خادم الحرمين الشريفين لما يحبه ويرضاه .



الفصل السادس

نفحات من المكان

- . مقدمة.
- . وحدة الأمة.
- . الأمن والسلام.
- . إكمال الدين وإتمام النعمة.
- . المسجد الحرام للمقيم والقادم.

الفصل السادس

نفحات من المكان

مقدمة :

ونعود مرة أخرى إلى الآية التي بدأنا بها حديثنا في الفصل الأول ، عن البيت الحرام ، وأنه أول بيت وضع في الأرض للعبادة . . وهي قوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾ .

(آية ٩٦-٩٧ سورة آل عمران)

نعود لنقبس من نفحات المكان - وهي كثيرة - (١) ما يشدنا شداً إلى الوقوف أمام بعض تلك النفحات التي تتصل بموضوعنا ، وتتطلب اهتماماً أكثر ، وعناية أشد وأقوى ، مع وجوب فريضة الحج في العمر مرة ، وفي الوقت نفسه تشد الرحال ، وتقطع البراري والقفار ، وتركب الأجواء والبحار ، ويأتي المسلمون من كل فج عميق ، ومرمى سحيق ، والقلوب رفاقة مجنحة ، وهي تهوي إلى البيت الحرام ، وهذا يتطلب فهماً عميقاً لمقاصد الحج وأسراره ، وتشبعاً بروحه وحقيقته !

(١) انظر كتابنا : نفحات الحج وأثرها في تكوين الشخصية الإسلامية ، دار الذخائر ، الدمام ، ط . أولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

وقد حفظ لنا ديننا كيف ارتبط تاريخ الإسلام والنبوة بهذه الرحاب الطاهرة ، وكيف سعى إبراهيم الخليل عليه السلام ، وأسكن من ذريته بواد غير ذي زرع . . وكيف كان الفداء !

وفوق هذه الأرض سعى خاتم النبيين الحبيب المحبوب محمد ﷺ يعرض نفسه على القبائل . . واستجاب الأنصار للرسول ، واستقبلت المدينة المنورة خاتم النبيين . . وفتحت مكة . . وخطب الرسول الحبيب المحبوب ﷺ في البيت الحرام ، وفي عرفات . . داعياً إلى الإيمان بالله ، مؤكداً كرامة الإنسان !

وحدة الأمة :

ونعود لنبصر في الحج وحدة إسلامية تظهر في أصالتها كل عام ، وفي بقاء هذا الدين القيم بعيداً عن التحريف والغموض والالتباس ، وبقاء هذه الأمة بعيدة عن الانقطاع عن الأصل والمصدر والأساس^(١) ، محفوظة من المؤامرات والمغالطات التي وقعت أمم كثيرة فريستها في الزمن الماضي ، وعن هذا الطريق تبقى الأمة الخالدة محتفظة بالحنيفية السمحة ، الثائرة على الباطل ، القوية بالحق ، وتتوارثها جيلاً بعد جيل ، فكأنها الجنان الحي القوي الفياض الذي يبيت الحياة ، وبها تستعرض هذه الأمة مجموعها في صعيد واحد ، فينفي بذلك علماؤها ودعاتها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وخرافة المخرفين ، ويردونها إلى الحنيفية السمحة ، وإلى الشريعة المحمدية الصافية ، وإلى الدين الخالص ، وبها تستطيع أن تحافظ هذه الأمة على وحدتها الدينية والفكرية ، وتعتصم عن أن تؤثر فيها الأقلية والمحلية تأثيراً يفقدها الوحدة الدينية ، والصبغة التي شاء الله أن تكون !

(١) وأذن في الناس بالحج ٤٦ : وما بعدها بتصرف .

وقد قدّر الله لهذه الأمة الخالدة أن تعيش في بيئات مختلفة ، وفي أقاليم عديدة ، وتجتاز أدواراً كثيرة جداً ، مختلفة جداً ، من حرارة وقسوة ، وجمود وخمود وركود ، ولين وشدة ، ومصارعة ومقاومة ، وإغراءات مادية وسياسية ، وتقدم في الحضارة والمدنية ، وتوسع في المال والمادة ، وضيق وضنك ، وبذخ وترف ، وعسر ويسر ، وشدة ورخاء ، وتسلبت عدو قاهر ، وسلطان جائر ، وكانت الأمة في حاجة دائمة إلى إشعال جذوة الإيمان ، وإثارة عاطفة الحب والحنان ، وإعادة الوفاء والولاء في سائر الأجزاء والأعضاء ، فكان الحج ربيعاً تزدهر فيه هذه الأمة ، وتظهر بالمظهر اللائق بها ، من الوحدة والترابط !

يقول الدهلوي :

وكما أن الدولة تحتاج إلى عرضة بعد كل مدة ، لتمييز الناصح من الغاش ، والمنتقاد من المتمرد ، ليرتفع الصييت ، وتعلو الكلمة ، ويتعارف أهلها فيما بينهم ، فكذلك الملة تحتاج إلى حج ، لتمييز الموفق من المنافق ، وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجاً ، وليرى بعضهم بعضاً ، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده ، إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والتراخي .

وإذا جعل الحج رسماً مشهوداً نفع عن غوائل الرسوم ، ولا شيء مثله في تذكر الحالة التي كان فيها أئمة الملة والتحضيض على الأخذ بها (١) .

والحج عرضة المسلمين ، وظهور شوكتهم ، واجتماع جنودهم ، وتنويه ملتهم (٢) .

وقضى الله عز وجل ألا يخلو الحج في أشد أيام هذه الأمة وأحلكها من

(١) حجة الله البالغة ١ : ٥٩ - ٦٠ .

(٢) المرجع السابق ٢ : ٤٢ .

الربانيين المخلصين ، ومن الصالحين المقبولين ، ومن الدعاة المرشدين ، ومن الداعين المبتهلين ، ومن الخاشعين المنيبين ، ومن العلماء الراسخين الذين يملؤون الجور روحانية وخشوعاً ، فترق القلوب القاسية ، وتخشع النفوس العاصية ، وتفيض العيون الجامدة ، وتلتهب المحامر الخامدة ، وتنزل رحمة الله ، وتغشى السكينة . . فينتفع الذين جاؤوا من كل صوب بعيد ، وفج عميق ، ويأخذون زاداً من إيمان وحب وحماسة ، وعلم وفقه ، يعيشون عليه في حياتهم ، ويقاومون به كل ما يواجهونه من إغراء وتزيين ، ويشاركونهم في هذا الزاد إخوانهم الذين قعد بهم الفقر ، أو الضعف ، أو المرض ، أو العدو ، فيتعلم الجاهل ، ويقوى الضعيف ، ويتحمس الخامد ، وتكتسب الأمة بذلك قوة جديدة على تأدية رسالتها ، وتستأنف كفاحها من جديد !

والحج انتصار للقومية الإسلامية على القوميات الوطنية والعنصرية واللسانية التي قد يصبح بعض الشعوب الإسلامية فريستها تحت ضغط عوامل كثيرة ، وهو إظهار لشعار هذه القومية الإسلامية ، فتتجرد جميع الشعوب الإسلامية عن جميع ملابستها وأزيائها الإقليمية التي تميز بعضها عن بعض ، ويتعصب لها أقوام ، وتظهر كلها في مظهر واحد هو الإحرام ، في لغة الدين والفقه ، وفي مصطلح الحج والعمرة ، حاسرة رؤوسها ، ما بين رئيس ومرؤوس ، وصغير وكبير ، وغني وفقير ، وتهتف كلها في لغة واحدة ، تلبية رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان وغيرهما عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن تلبية رسول الله ﷺ :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » (١) .

(١) البخاري : ٢٥ - الحج (١٥٤٩) ، ومسلم : ١٥ - الحج (١١٨٤) ، وأبو داود (١٨١٢) ، والبيهقي : ٥ : ٤٤ ، والبغوي (١٨٦٥) .

وهكذا تتجلى القومية الإسلامية في اللباس والهتاف ، وهما من أوضح ما تجلت فيه قومية ، وفي وحدة المناسك والغايات التي يقوم بها جميع الأفراد والشعوب ، ويسعى إليها العرب والعجم ، ويلتقي عليها القاصي والداني ، فكلهم يطوفون حول بيت واحد ، ويسعون بين غايتين مشتركتين «الصفاء والمروة» ، وكلهم يقصدون منى ، وكلهم يؤمنون عرفات ، ويقفون في موقف واحد ، وكلهم يبيتون في مبيت واحد ، ويفيضون إفاضة واحدة :

﴿ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) ﴾ .

(آية ١٩٨-١٩٩ سورة البقرة)

والجماعة المسلمة الأولى كانت تدرك حق الإدراك مدى وعمق هذه الحقيقة في حياتها^(١) . . لقد كانت قرية عهد بما كان العرب فيه من ضلال في التصور والاعتقاد ، وضلال في الحياة الاجتماعية والأخلاقية . . تمثلت تلك الفوارق الطبقية ، وتمثله تلك الحروب والمشاحنات القبلية التي لم تكن تجعل من العرب أمة يحسب لها حساب في العالم الدولي ، وتمثله تلك الفوضى الخلقية التي كانوا عليها ، وتمثله تلك المظالم التي يزاولها الأقوياء ضد الضعاف ، وتمثله حياة العرب بصفة عامة ، ووضعهم الذي لم يرفعهم منه إلا هذا الدين ، وحين كانوا يسمعون :

﴿ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴾ .

كانت ولاشك تتواكب على خيالهم وذاكرتهم ومشاعرهم صور حياتهم

(١) في ظلال القرآن : ١ : ١٩٩ بتصرف .

الضالة الزرية الهابطة التي كانت تطبع تاريخهم كله ، ثم يتلفتون على أنفسهم ليروا مكانهم الجديد الذي رفعهم إليه هذا الدين ، والذي هداهم الله إليه بهذا الدين ، فيدركون عمق هذه الحقيقة وأصالتها في وجودهم كله بلا جدال !

وهذه الحقيقة ما تزال قائمة بالقياس إلى المسلمين من كل أمة ومن كل جيل !

من هم بغير هذا الدين ؟ !

وما هم بغير هذه العقيدة ؟ !

إنهم حين يهتدون إلى الإسلام ، وحين يصبح المنهج الإسلامي حقيقة في حياتهم ينتقلون من طور وضع صغير ضال مضطرب إلى طور آخر رفيع عظيم مهتد مستقيم ، ولا يدركون هذه النقلة إلا حين يصبحون مسلمين حقاً !

وإن البشرية كلها لتتية في جاهلية عمياء ، ما لم تهتد إلى هذا النهج المهتدي !

وحين يطل الإنسان من قمة التصور الإسلامي على البشرية كلها في جميع تصوراتها وجميع نظمها ، يدركه العجب !

والحج مؤتمر المسلمين الجامع ، الذي يجتمعون فيه مجردين من كل أصرة سوى أصرة الإسلام ، متجردين من كل سمة إلا سمة هذا الدين ، عرايا من كل شيء إلا من ثوب غير مخيط يستر العورة ولا يميز فرداً عن فرد ، ولا قبيلة عن قبيلة ، ولا جنساً عن جنس . . . إن عقدة الإسلام هي وحدها العقدة ، ونسب الإسلام وحده هو النسب ، وصبغة الإسلام وحدها هي الصبغة !

وقد كانت قريش تتخذ لنفسها امتيازات عن سائر العرب . . منها أنهم

لا يقفون مع سائر الناس في عرفات ، ولا يفيضون من حيث يفيض الناس ، فجاءهم هذا الأمر ليردهم إلى المساواة التي أرادها الإسلام ، وإلى الاندماج الذي يلغي هذه الفوارق المصطنعة بين الناس (١) .

إن الدين القيم هنا يدعو إلى التجرد من كل ما يميز من الثياب ليلتقوا في الحج إخواناً متساوين ، فلا يتجردوا من الثياب ليتخيلوا بالأنساب ، وهكذا يقيم الإسلام سلوك المسلمين على أساس من التصور الذي هدى البشرية إليه . . . أساس المساواة ، وأساس الأمة الواحدة التي لا تفرقها طبقة ، ولا يفرقها جنس ، ولا تفرقها لغة ، ولا تفرقها سمة من سمات الأرض جميعاً . . . ويردهم إلى استغفار الله عز وجل من كل ما يخالف عن هذا التصور النظيف الرفيع :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) ﴾ .

(آية ٢٠٠-٢٠٢ سورة البقرة)

ولم تكن الأسواق عند العرب مجرد أسواق بيع وشراء فحسب ، إنما كانت كذلك أسواق كلام وتفاخر بالآباء ، وتعظيم بالأنساب . . . ذلك حين لم تكن لهم اهتمامات تشغلهم عن هذا التفاخر وذلك التعظيم !

فأما بعد الإسلام فيوجههم القرآن لما هو خير ، ويريههم مقادير الناس . . . وأن هناك فريقين :

(١) انظر البخاري : ٢٥٠ - الحج (١٦٦٥) .

فريقاً دنيوياً حتى حين يتوجه إلى الله بالدعاء ، لأن الدنيا هي التي تملأ فراغ نفسه ، وتحيط عالمه وتغلقه عليه .

وفريقاً أفسح أفقاً ، وأكبر نفساً ، لأنه موصول بالله ، يريد الحسنة في الدنيا ، ولكنه لا ينسى نصيبه في الآخرة .

إنهم يطلبون الحسنة في الدارين ، ولا يحددون نوع الحسنة ، بل يدعون اختيارها لله ، يختار لهم ما يراه حسنة ، وهم باختيار الله راضون . . وهؤلاء لهم نصيب مضمون ، والله سريع الحساب !

وهنا نبصر لمن يكون الاتجاه ، ونبصر أن من اتجه إلى الله وأسلم له أمره ، وترك لله الخيرة ، ورضي بما يختاره له الله ، فلن تفوته حسنات الدنيا ولا حسنات الآخرة ، ومن جعل همه الدنيا فقد خسر في الآخرة كل نصيب ، والأول رابح حتى بالحساب الظاهر ، وهو في ميزان الله أربح وأرجح ، وقد تضمن دعاؤه خير الدارين في اعتدال ، وفي استقامة على التصور الهادي المتزن الذي ينشئه الدين القيم !

ونبصر أن هذا الدين لا يريد من المؤمنين أن يدعوا أمر الدنيا ، فهم خلقوا للخلافة في هذه الدنيا ، ولكنه يريد منهم أن يتجهوا إلى الله في أمرها ، وألا يضيّقوا من آفاقهم ، فيجعلوا من الدنيا سوراً يحصرهم فيها . . إنه يريد أن يطلق الإنسان من أسوار هذه الأرض الصغيرة ، فيعمل فيها وهو أكبر منها ، ويزاول الخلافة وهو متصل بالأفق الأعلى . . ومن ثم تبدو الاهتمامات القاصرة على هذه الأرض ضئيلة هزيلة وحدها ، حين ينظر إليها الإنسان من قمة التصور الإسلامي !

ويطل الإنسان من تلك القمة الشامخة فيأخذه العجب من انشغال البشرية بهذا العبث وذلك العنت ، وتلك الشقوة والضلالة ، وهذا الاضطراب في الفهم

والإدراك ، نبصر كل هذا في جحود هؤلاء وكنودهم ، وهم يطلبون الدنيا وحدها ، وهم صنف مكرر في الأزمنة والأمكنة !

وهنا نبصر الدعاء قد تضمن خير الدارين في اعتدال . . ومن ثم لم نجد الصنف الثالث بحسب القسمة العقلية ، وهو الذي يطلب الآخرة وحدها ، فهذا غير مقبول بحال . . ونبصر الدين القيم يريد أن يطلق الإنسان من أسوار هذه الأرض الصغيرة ، فيعمل فيها ، وهو أكبر منها ، ويزاول الخلافة ، وهو متصل بالملأ الأعلى . . ومن ثم تبدو الاهتمامات القاصرة على ظهر هذه الأرض ضئيلة هزيلة ، حين ينظر إليها الإنسان من قمته وفق التصور الإسلامي . . ونبصر هذا الدعاء في قول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فيما رواه الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال :

كان أكثر دعاء النبي ﷺ : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » (١) .

وما أشد حاجتنا أن نبصر سر التوازن بين المادية والروحية في هذا الدين القيم ، حتى نتقدم ركب الحياة ، كما كان سلفنا الصالح . . علماً وعملاً . . فقهاً وسلوكاً . . فكراً وحركة . . تقدماً وريادة . . إمامة وقيادة !

وما دام الحج فريضة باقية إلى يوم القيامة (٢) ، وركناً خالداً خلود هذه الأمة ، فالمسلمون لا يتبلعهم القوميات ، كما ابتلعت غيرهم من أمم كثيرة ، ولا يصبحون ضحيتها ، ولا تكون بلادهم التي يحبونها بالفطرة والعاطفة والعصبية قبله يتوجهون إليها ، وكعبة يحجون إليها ، إنما هي قبله واحدة ، يتوجه إليها الشرقي والغربي ، والعربي والعجمي !

(١) البخاري : ٨٠ - الدعوات (٦٣٨٩) ، ومسلم : ٤٨ - الذكر (٢٦٩٠) .

(٢) وأذن في الناس بالحج : ٤٣ بتصرف .

ولما كان الحج عرضة سنوية للملة ، يلتقي فيها المسلمون على صعيد واحد ، من العقيدة والعاطفة والغاية ، في جو ديني رباني ، وفي محيط روحي إيماني ، يستمدون منه قوة جديدة ، وروحاً جديدة ، ويصحّحون ما وقع في فكرهم من انحراف ، وفي عاداتهم وشعاراتهم من فساد ، وما اعتراهم من زيغ أو وهن بتأثير الحضارات والفلسفات ، وتقليد الشعوب والأمم التي تجاورهم ، أو يعيشون فيها ، أو تتسلط عليهم ، ويستطيعون أن يردوا كل شيء إلى أصله ، وأن يستقوا الدين من منابعه الصافية الأصيلة ، وجَبَ بحكم العقل والمنطق ، وبحكم روح هذا الدين ، وحكمة الحج ، أن يظل البلد الأمين الذي يقع فيه الحج ، ويدور حوله أميناً للحياة الإسلامية الصافية الأصيلة ، يصور الحياة الإسلامية بجميع جوانبها ومزاياها ومظاهرها ، حتى يلمسها ويتذوقها كل وارد إليه ، مهما قصرت إقامته ، وقلّت معرفته ، لأن الحق جل شأنه قد قضى أن يكون البلد مركز الحج إلى آخر الزمان ، ومثابة للمسلمين من جميع أنحاء العالم في كل سنة ، يفدون إليه ، وهم مؤمنون بحق بأنهم يقصدون بلداً هو معدن الطهر ، ومهبط الوحي ، وعاصمة الإسلام الروحية ، وكل ما يشاهد ويُسمع في جوانبه هو حجة للمسلم الغريب الذي يعيش بعيداً عن مهد الإسلام !

الأمّن والسلام :

ونعود لنبصر في الحج ما يثير الجذ والقصد ، وينبه النفس والفكر ، ويحوط الحجاج بسياج من العبادة والروحانية والقدسية ، فإن الحج في أكثر الأحيان رحلة طويلة ، وانتقال من بلد إلى بلد ، يمر فيه الحاج ببقاع مختلفة ، وأجواء متنوعة ، وشواغل وصوارف ، وقد تقصر رحلة السفر وقد تطول ، ويدخل في بلد جديد ، ويختلط بأقوام وطبقات كثيرة ، ويخرج النساء وكذلك الرجال ، يلتقي الشيوخ والشباب ، وقد تجتمع أفراد الأسرة أحياناً ، ويكون مع الرجل زوجه وأهل بيته ،

وكل ذلك خَلِيق بأن يُفقد الحج روعته ومهابته ، وروح العبادة والجهاد فيه ،
وتصبح هذه الرحلة كأي رحلة عادية طبيعية ، أو الإقامة في مكة ، والتنقل في
مواضع المناسك كأي إقامة في أي بلد !

لذلك أضفى التشريع على الحج لوناً من الجدية والقدس لا يزول ، وحاطه
بأسوار وخنادق عديدة ، جعلته بعيداً عن الغفلة والذهول ، والعبث والفضول ،
وله في ذلك تشريعات دقيقة حكيمة ، كفيلة بأن يبقى الحج عبادة عميقة الأثر ،
في النفس والحياة ، ووسيلة قوية للتقرب إلى الله !

منها أنه قد جمع الله عز وجل للحج حرمتين : حرمة الزمان ، وحرمة
المكان ، ليقوى الشعور بحرمة هذا الركن وجلاله وروعته ، والشعور بالمسؤولية ،
وليكون الحاج في جميع حركاته وسكناته مرهف الحس ، حاضر الفكر ، لا يذهل
لحظة عن الجو الروحاني الذي يحيط به ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾
(آية ٣٦ سورة التوبة)

ويروي الشيخان وغيرهما عن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ
قال :

« إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض . السنة اثنا عشر
شهرًا ، منها أربعة حُرُم ، ثلاثة متواليات - ذو القعدة وذو الحجة والمُحَرَّم - ورجب
مضر الذي بين جُمادى وشعبان » (١) .

(١) البخاري : ٥٩ - بدء الخلق (٣١٩٧) ، ومسلم : ٢٨ - القسامة (١٦٧٩) ، وأبو داود (١٩٤٧) .

وعلى كثرة ما حرف العرب فيما يعتقدون ، وعلى شدة ما انحرفوا عنه في جاهليتهم قبل الإسلام فإنهم كانوا يعظمون هذه الأشهر الحرم ، لارتباطها بموسم الحج ، وبخاصة سكان «مكة المكرمة» !

وهنا نبصر هذه الأدلة ترد معيار الزمن^(١) ، وتحدد دورانه إلى طبيعة الكون التي فطره الله عليها ، وإلى أصل خلقة السموات والأرض ، وأن هناك دورة زمنية ثابتة ، مقسمة إلى اثني عشر شهراً ، وأنها ثابتة ، لا تتخلف ولا تتعرض للنقص والزيادة ، لأنها تتم وفق قانون ثابت ، هو ذلك الناموس الكوني الذي أراده الله يوم خلق السموات والأرض !

ونبصر أن التحديد والتحریم جزء من نواميس الله ، ثابت كسباتها ، لا يجوز تحريفه بالهوى ، ولا يجوز تحريكه تقدیماً وتأخيراً ، لأنه يشبه دورة الزمن التي تتم بتقدير ثابت ، وفق ناموس لا يتخلف !

ونبصر سلسلة طويلة من المدلولات العجيبة . . يتبع بعضها بعضاً ، ويمهد بعضها لبعض ، ويقوي بعضها بعضاً ، وتشتمل على حقائق كونية يحاول العلم الحديث جاهداً أن يصل إليها بطريقته ومحاولاته وتجاربه ، ويربط بين نواميس الفطرة ، في خلق الكون وأصول هذا الدين وفرائضه ، ليقرر في الضمائر والأفكار عمق جذوره ، وثبات أسسه :

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

لا تظلموا أنفسكم في هذه الأشهر الحرم التي يتصل تحريمها بناموس كوني تقوم عليه السموات والأرض . . ولا تظلموا أنفسكم بإحلال حرمتها التي أرادها الله لتكون فترة أمان وراحة سلام ، فتخالفوا عن إرادة الله ، وفي هذه المخالفة

(١) في ظلال القرآن ٣ : ١٦٥١ بتصرف .

ظلم للأنفس بتعريضها لعذاب الله ، وتعريضها للخوف والقلق في الأرض ، حين تستحيل جحيماً عدوانية ، لا هدنة فيها ولا سلام :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٩٧) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾

(آية ٩٧-٩٨ سورة المائدة)

إنها الكعبة الحرام ، والأشهر الحرام . . منطقة الأمان ، يقيمها الحق للبشر في زحمة الصراع بين المتحاربين والمتصارعين والمتزاحمين . . بين الرغائب والمطامع والشهوات . . فتحل الطمأنينة مكان الخوف ، ويحل السلام محل الخصام (١) ، وترف أجنحة من الحب والإخاء والأمن والسلام ، وتُدرب النفس البشرية في واقعها العملي - لافي عالم المثل والنظريات - على هذه المشاعر وتلك المعاني ، فلا تبقى مجرد كلمات مجنحة ورؤى حاملة .

لقد جعل الله هذه الحرمات تشمل الإنسان والطير والحيوان بالأمن في البيت الحرام ، وفي فترة الإحرام بالنسبة للمحرم ، حتى وهو لم يبلغ الحرم ، كما جعل الأشهر الحرم الأربعة لا يجوز فيها القتل ولا القتال .

ولقد ألقى الله في قلوب العرب - حتى في جاهليتهم - حرمة هذه الأشهر ، فكانوا لا يروعون فيها نفساً ، ولا يطلبون فيها دماً ، ولا يتوقعون فيها ثأراً ، حتى كان الرجل يلقي قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه ، فكانت مجالاً آمناً للسياحة والضرب في الأرض ، وابتغاء الرزق .

(١) المرجع السابق : ٢ : ٩٨٢ بتصرف .

جعلها الله كذلك ، لأنه أراد للكعبة - بيت الله الحرام - أن تكون مثابة أمن وسلام ، تقي الناس الخوف والفرع ، كذلك جعل الأشهر الحرم ، لتكون منطقة أمن في الزمان ، كالكعبة منطقة أمن في المكان ، ثم مدّ رواق الأمن خارج منطقة الزمان والمكان ، فجعله حقاً للهدى - وهو النعم - الذي يطلق ليلبغ الكعبة في الحج والعمرة ، فلا يمسّه أحد في الطريق بسوء ، كما جعله لمن يتقلد من شجر الحرم ، معلناً اجتماعه بالبيت العتيق .

لقد جعل الله عز وجل هذه الحرمات ، وجعل الكعبة البيت الحرام مثابة للناس وأمناً ، حتى لقد امتن به على المشركين أنفسهم ، إذ كان بيت الله بينهم مثابة لهم وأمناً ، والناس من حولهم يُتخطفون ، وهم فيه وبه آمنون ، ثم هم بعد ذلك لا يشكرون الله ، ولا يفرّدونه بالعبادة في بيت التوحيد :

﴿ وَقَالُوا إِن تَبِعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ .

(آية ٥٧ سورة القصص)

إنها النظرة السطحية الخاطئة (١) أوحى لهؤلاء أن اتباع هدى الله يعرضهم للمخافة ، ويُغري بهم الأعداء !

ومع ذلك فهم لا ينكرون أنه الهدى ، ولكنهم يخافون في الوقت ذاته أن يتخطفهم الناس ، وهم لا يدركون أن قوى الأرض لا تملك أن تتخطفهم وهم في حمى الله ، ولا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله ، ذلك أن الإيمان لم يخالط

(١) المرجع السابق : ٥ : ٢٧٠٣ بتصرف .

قلوبهم ، ولو خالطها لتبدلت نظرتهم للقوى ، ولاختلف تقديرهم للأمور ، ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا في التزام منهج الله ، وأن الخوف لا يكون إلا في البُعد عن هداه ، وأن هذا الهدى موصول بالقوة ، موصول بالعزة ، وأن هذا ليس وهماً وليس قولاً يُقال لطمأننة القلوب ، إنما هو حقيقة عميقة منشؤها أن اتباع هدى الله معناه الاصطلاح مع ناموس الكون وهداه ، والاستعانة بهذه القوة وتسخيرها في الحياة ، والذي يتبع هدى الله يستمد مما في الكون من قوى غير محدودة ، ويأوي إلى ركن شديد ، في واقع الحياة !

وهدى الله منهج حياة صحيحة ، حياة واقعة في هذه الأرض . . . وحين يتحقق هذا المنهج تكون له السيادة الأرضية إلى جانب السعادة الأخروية ، وميزته أنه لا انفصال فيه بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ، ولا يقتضي إلغاء هذه الحياة الدنيا أو تعطيلها ليحقق أهداف الحياة الآخرة ، إنما هو يربطهما معاً برباط واحد : صلاح القلب وصلاح المجتمع وصلاح الحياة في هذه الأرض ، ومن ثم يكون الطريق إلى الآخرة ، فالدنيا مزرعة الآخرة ، وعمارة هذه الأرض وسيادتها وفق المنهج الرباني وسيلة إلى سعادة الآخرة ، بشرط اتباع هدى الله والتوجه إليه بالعمل ، والتطلع إلى رضاه !

وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف ، بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة ، أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة !

وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه ، يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم ، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم ، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية !

وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت للرسول الحبيب المحبوب ﷺ :

﴿إِنْ تَبِعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ .

فلما تبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان !

وقد رد الله عليهم في وقتها بما يكذب هذا العذر الموهوم ، فمن الذي وهبهم الأمن ؟

ومن الذي جعل لهم البيت الحرام ؟

ومن الذي جعل القلوب تهوي إليهم تحمل من ثمرات الأرض جميعاً ؟

تتجمع في الحرم من كل أرض ، وقد تفرقت في مواطنها ومواسمها الكثيرة :

﴿أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ .

فما بالهم يخافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله ، والله هو الذي مكَّن لهم هذا الحرم الآمن منذ أيام أبيهم إبراهيم ؟

أَفَمَنْ أَمَّنَهُمْ وَهُمْ عَصَاةٌ ، يدع الناس يتخطفونهم وهم تقاة ؟ !

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

لا يعلمون أين يكون الأمن ، وأين تكون المخافة ، ولا يعلمون أن مرد الأمر لله !

وهؤلاء الذين كان يدينون بحرمة البلد الحرام والبيت الحرام ، ويستمدون سيادتهم من عقيدة تحريم البيت ، كيف لا يوحّدون الله الذي حرّمه وأقام حياتهم عليه !

وهنا نقرأ إعلان الرسول الحبيب ﷺ أنه مأمور أن يعبد رب هذه البلدة التي حرّمها ، لا شريك له ، وأن رب هذه البلدة هو رب كل شيء في الوجود ، وأنه مأمور بأن يكون من المسلمين ، والرعيّل الممتد في الزمن المتطاول من الموحّدين :

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٩١) .

(آية ٩١ سورة النمل)

ونقرأ ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمر و ابن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذّن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناي ، ووعاه قلبي ، وأبصرته عيناي ، حين تكلم به : أنه حمّد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

«إن مكة حرّمها الله ولم يُحرّمها الناس ، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ، ولا يعصدها شجرًا ، فإن أحدٌ ترخّص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له : إن الله أذن لرسوله ، ولم يأذن لكم ، وإنما أذن له فيه ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، وليبلغ الشاهد الغائب» .

ف قيل لأبي شريح : ماذا قال لكم عمرو؟ قال : قال : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيذ عاصياً ، ولا فاراً بدم ، ولا فاراً بخربة (١) .

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة :

(١) البخاري : ٦٤ - المغازي (٤٢٩٥) ، ومسلم : ١٥ - الحج (١٣٥٤) ، والترمذي (٨٠٩) ، والنسائي :

٢٠٠٥ : ٢٠٦ .

« لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا ، فإن هذا بلد حرم الله يوم خلق السماوات والأرض ، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعْضَدُ شوكه ، ولا يُنْفَرُ صيده ، ولا يُلْتَقَطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا ، ولا يُخْتَلَى خِلَاؤها .

قال العباس : يا رسول الله ! إلا الإذخر ، فإنه لقينهم وليوتهم ، قال : قال : «إلا الإذخر» (١) .

ومن الطبيعي أن يحنَّ المسلم ، لاسيما الوافد من مكان بعيد إذا قضى حجه (٢) ، وأدّى مناسكه ، إلى مهجر الرسول الحبيب ﷺ ، ومأزر الإسلام ، إلى المسجد الذي انبثق منه النور ، وانطلقت منه موجة الهداية والعلم ، وقوة الدين القيم في العالم كله ، إلى المدينة المنورة التي آوى إليها الإسلام ، وتمثّلت فيها فصول التاريخ الإسلامي الأول وشهد ترابها جهاد الرسول وصحبه ، وابتلَّ بدماء الشهداء ، فيصلي في المسجد الذي تعادل صلاة فيه ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، يروي الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

« صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » (٣) .

ويشهد المسلم مواقف الشهداء والصديقين ، والسابقين الأولين ، فيستمد

(١) البخاري : ٢٨ - جزاء الصيد (١٨٣٤) ، ومسلم : ١٥ - الحج (١٣٥٣) ، والنسائي : ٥٥ : ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٢) وأذن في الناس بالحج : ٤٥ بتصرف .

(٣) البخاري : ٢٠ - فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٩٠) ، ومسلم : ١٥ - الحج (١٣٩٤) ، ومالك : ١ : ١٩٦ .

الصدق والإيمان ، والحب والحنان ، والبطولة والشهادة ، ويصلي ويسلم على الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، ويتعرف معالم الطريق إلى الله عز وجل .

ويعود المسلم بذاكرته إلى مكة ، حين يقرأ ما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لا يحل لأحدكم أن يحمل السلاح في مكة » (١) .

وفي رواية قال : قال النبي ﷺ :

«إن إبراهيم حرّم مكة ، وإنّي حرّمت المدينة ما بين لابتيها ، لا يُقطع عضاهُها ، ولا يُصَاد صيدها » (٢) .

ويقرأ ما رواه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن زيد المازني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » (٣) .

وتسيطر علينا روحانية عالية ، يعجز القلم عن تصويرها ، وتهب نفحات حرمة الزمان والمكان ، ونتعرف معالم الطريق إلى الأمن والسلام ، في عالم أحوج ما تكون الإنسانية فيه إلى معرفة معالم هذا الدين القيم ، ليبصر العالم طريق الهداية إلى السلام الذي يسكبه هذا الدين في الحياة كلها ، فنحن الأمة التي تملك إنقاذ البشرية من ويلات الجاهلية وحربها المشبوبة في شتى الصور والألوان . . ولكننا لا نملك ذلك قبل أن ننقذ أنفسنا ، وقبل أن نفنيء إلى ظلال الأمن والسلام . . السلام الذي لا تجده البشرية - ولم تجده يوماً - إلا في هذا الدين

(١) مسلم : ١٥٠ - الحج (١٣٥٦) .

(٢) مسلم : ١٥٠ - الحج (١٣٦٢) .

(٣) البخاري : ٢٠ - فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٩٥) ، ومسلم : ١٥٠ - الحج (١٣٩٠) .

القيم ، وإلا في منهجه ونظامه وشريعته ومجتمعه الذي يقوم على عقيدته
وشريعته !

وإن محنة الساعة التي تواجهها ، والتي سلبت مقدساتنا ، يجب أن نقول
فيها كلمة حق ، لارياء فيها ولا زيف ، ولا مداراة ولا حيف !

وإذا أهملنا قضية هذا الدين القيم بمعناها الحقيقي ضاع الإنسان ، وضاعت
القيم ، وضاع الأمن والسلام !

وإن أوروبا عاشت في غفلتها وتأخرها ، وغفوتها وتخلفها ، خلال القرون
الوسطى في جو من التفكك الفكري ، والاجتماعي ، يختلف تماماً عما كان عليه
العالم الإسلامي من حضارة زاهرة ، حتى فتحت أعينها على روائع الحضارة
الإسلامية ، وبدأت تحطم القيود والأغلال . . إلى أن كانت نهضتها الحديثة !

في الوقت الذي ظهر فيه التخلف والتفكك في المجتمع الإسلامي ، والتخلي
عن حمل لواء الحضارة ، والأمن والسلام ، حتى كان ما كان من بسط النفوذ
الاستعماري على مقدراتنا ، كما يشهد الواقع !

وقد شهدت أوروبا في القرن التاسع عشر ، والقرن الحاضر ، حركات
متعددة تتوخى معالجة التخلف ، وتتوخى مسح جراح الجماهير !

وأفقنا نحن من غفلتنا الطويلة على ضجيج الحضارة الغربية الحديثة
ومخترعاتها !

وكما هي سنة الحياة من افتتاح الضعفاء بالأقوياء ، ساد الفكر الثقافي
المعاصر جو من الإعجاب بالحركات السائدة في عالم الحضارة المعاصرة ،
يصحبه جو من الشك فيما بين أيدينا من تراث عقائدي وحضاري ، وأمان
وسلام ، من حيث الصلاح للحياة الحديثة !

وأخذ هذا الصوت يخفت شيئاً فشيئاً ، بعد أن تكشفت الأمور !

وجدير بنا أن نتعرف حال الذي نام في النور !

وحال الذي استيقظ في الظلام !

الأول يصدق على المسلمين ، وأشعة الوحي تغمر ما حولهم وتنير الطريق أمامهم إلى الأمن والسلام ، وهم في غفلة !

والثاني يصدق على أولئك الذين استيقظوا في الظلام ، وساروا بقوة ، وهم في حرمان من شعاع يهديهم الطريق !

ولا تزال النقائص تترى وتتابع !

وليس هناك ما يحول دون ذلك !

وقصة حقوق الإنسان مثلٌ صادق لهذه المفارقات !

وقد ادعت الأمم الديمقراطية الحديثة أن العالم الإنساني مدين لها بتقرير حق المساواة ، وحق الحرية ، وحق الأمن والسلام !

فذهبت أمة إلى أنها أعرق شعوب العالم في هذا المضمار !

وزعمت أخرى أن هذه الاتجاهات جميعاً كانت وليدة ثورتها !

وأنكرت أمم أخرى على هذه وتلك هذا القول وادعته لنفسها !

والحق أن الدين القيم هو أول من قرر هذه المبادئ ، في أكمل صورة ، وأوسع نطاق !

يظهر ذلك واضحاً جلياً حين نذكر ميلاد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

في العاشر من ديسمبر عام ١٩٤٨ م .

نسخة منه (٢٠٠٠)

في الوقت الذي نطالع فيه حقوق الإنسان في الإسلام منذ أن بعث الله خاتم النبيين الحبيب المحبوب ﷺ .

ولا وجه للمقارنة بين حقوق الإنسان في الإعلان العالمي ، وحقوق الإنسان في الإسلام .

وحسبنا أن نذكر قول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ في حجة الوداع ، فيما يرويه مسلم عن جابر رضي الله عنه :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا . في شهركم هذا . في بلدكم هذا . ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع . ودماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ، كان مُسْتَرْضِعاً في بني سعد ، فقتلته هذيل . وربا الجاهلية موضوعة . وأول رباً أضع ربانا . ربا عباس بن عبدالمطلب . فإنه موضوع كله . فاتقوا الله في النساء . فإنكم أخذتموهن بأمان الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله . ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه . فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به . كتاب الله ، وأنتم تُسألون عني . فما أنتم قائلون؟ » .

قالوا نشهد أنك بلغت وأدّيت ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة ، يرفعها إلى السماء وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ :

« اللهم ! اشهد . اللهم ! اشهد » ثلاث مرات « (١) » .

وإذا كان العصر الحديث قد أَلْجَأَتْهُ ظُروفُ التَوَتُّرِ الْمُتَتَابِعَةِ ، وَالْقَلَقِ الْمُتَزَايِدِ ،

(١) مسلم : ١٥ - الحج (١٢١٨) وفيه قصة طويلة .

لإقامة هيئة الأمم ، أو عصبتها ، أو مجلس الأمن ، أو الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، في أواخر الأربعينيات من هذا القرن - كما عرفنا - ، فإن من معالم هذا الدين القيم إقامة هذا المؤتمر العالمي ، بخصائصه الحية ، ووسائله المباركة ، على أنه عبادة ، وأن المنطقة التي يكون فيها منطقة محرمة ، يحرم فيها الجدل والفسوق ، والتنازع والعقوق ، كما يحرم التعرض بالأذى لكل مخلوق ، حتى وجدنا الطير يعيش دون ما خوف ، في حرمة الزمان ، وحرمة المكان !

وواضح أن هذه الضمانات لا يمكن أن توجد في المؤتمرات التي هي من صنع البشر ، وهي تجعل للقوي صوتاً نافذاً بما تعطيه من حق «الفتو» كما يزعمون !

وواضح أن من اعتمد على زاد مثله طال جوعه !

ومن نام في مواطن الخطر طال هجوعه !

ومن شغلته شهوته عن كرامته كثرت حسرته !

ومن صرفته أحلامه عن تحقيق آماله ازدادت ندامته !

وعجيب والله أمر من يحاول إطفاء النار بالبنزين !

إكمال الدين وإتمام النعمة :

ونعود لنبصر في يوم عرفات إكمال الدين وإتمام النعمة ، ونحن نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ .

(آية ٣ سورة المائدة)

وهنا نبصر الذين كفروا قد يُيسوا أن يُبطلوا هذا الدين أو ينقصوه أو يحرفوه^(١) . . وقد كتب الله له الكمال ، وسجل له البقاء . . ولقد يغلبون على المسلمين في موقعة ، أو في فترة ، ولكنهم لا يغلبون على هذا الدين . . فهو وحده الدين القيم الذي بقي محفوظاً لا يناله الدثور ، وهو وحده الدين القيم الذي لا يناله التحريف أيضاً ، على كثرة ما أراد أعداؤه أن يحرفوه ، وعلى شدة ما كادوا له ، وعلى عمق جهالة أهله به في بعض العصور . . غير أن الله عز وجل لا يُخلي الأرض من عصبة مؤمنة ، تعرف هذا الدين ، وتناضل عنه ، ويبقى فيها منهجاً مفهوماً محفوظاً ، حتى تسلمه إلى من يليها . . وصدق وعد الله في يأس الذين كفروا من هذا الدين !

وما كان للذين كفروا أن ينالوا من هذا الدين القيم في ذاته أبداً !

وما كان لهم أن ينالوا من أهل هذا الدين إلا أن ينحرف أهله عنه ، فلا يكونوا هم الترجمة الحية له ، ولا ينهضوا بتكاليفه ومقتضياته ، ولا يحققوا في حياتهم نصوصه وأهدافه !

وهذا التوجيه من الله للجماعة المسلمة . . لا يقتصر على ذلك الجيل ، إنما هو خطاب عام للذين آمنوا في كل زمان ومكان . . الذين يرتضون ما رضىه الله لهم من هذا الدين ، بمعناه الكامل الشامل . . الذين يتخذون هذا الدين القيم منهجاً للحياة كلها !

واليوم الذي نزلت فيه هذه الآية هو يوم عرفات في حجة الوداع . . وفيه أكمل الله عز وجل هذا الدين . . فما عادت فيه زيادة لمستزيد . . فقد أتم الله نعمته الكبرى على المؤمنين بهذا المنهج الكامل الشامل ، ورضي لهم

(١) في ظلال القرآن : ٢ : ٨٤١ وما بعدها بتصرف .

الإسلام ديناً ، والذي لا يرتضيه منهجاً لحياته إنما يرفض ما ارتضاه الله للمؤمنين !

ويقف المؤمن أمام هذه الكلمات القرآنية ، فلا يكاد ينتهي من استعراض ما تحمله في ثناياها من حقائق كبيرة ، وتوجيهات عميقة ، ومقتضيات وتكاليف !

يقف المؤمن أولاً : أمام إكمال هذا الدين ، يستعرض موكب الإيمان ، وموكب الرسالات ، منذ فجر البشرية ، ومنذ أول رسول إلى هذه الرسالة الأخيرة ، رسالة النبي الأمي الحبيب المحبوب ﷺ إلى البشر أجمعين . . فماذا يرى ؟

يرى هذا الموكب المتطاوّل المتواصل . .

يرى موكب الهدى والنور . .

يرى معالم الطريق ، على طول الطريق . .

ولكنه يجد كل رسول قبل خاتم النبيين إنما أرسل لقومه ، ويرى كل رسالة قبل الرسالة الأخيرة ، إنما جاءت لمرحلة من الزمان . . رسالة خاصة ، لمجموعة خاصة في بيئة خاصة . . ومن ثم كانت كل تلك الرسالات محكومة بظروفها هذه ، متكيفة بهذه الظروف . . كلها تدعو إلى إله واحد ، فهذا هو التوحيد ، وكلها تدعو إلى عبودية واحدة لهذا الإله الواحد ، فهذا هو الدين ، وكلها تدعو إلى التلقي عن هذا الإله الواحد والطاعة لهذا الإله الواحد ، فهذا هو الإسلام ، ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف .

حتى إذا أراد الله أن يختم رسالاته إلى البشر ، أرسل إلى الناس كافة خاتم النبيين برسالة للإنسان ، لا لمجموعة من الأناسي في بيئة خاصة ، في زمان

خاص ، في ظروف خاصة . رسالة تخاطب الإنسان من وراء الظروف والبيئات والأزمنة ، لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير :

﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ فِطْرَتَ النَّاسِ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ .

(آية ٣٠ سورة الروم)

وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة الإنسان من جميع أطرافها ، وفي كل جوانب نشاطها ، وتضع لها المبادئ والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان ، وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان .

وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية ، وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة الإنسان منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان ، من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات ، لكي تستمر وتنمو وتتطور وتتجدد ، حول هذا المحور وداخل ذلك الإطار . .

وقد قال الله سبحانه للذين آمنوا :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ .

فأعلن لهم إكمال العقيدة ، وإكمال الشريعة معاً ، فهذا هو الدين . . ولم يعد للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين بمعناه هذا نقصاً يستدعي الإكمال ، ولا قصوراً يستدعي الإضافة ، ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير . .

وإلا فما هو بمقر بصدق الله ، ولا هو بمرتض ما ارتضاه الله للمؤمنين !

إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن ، هي شريعة كل زمان ومكان ، لأنها بشهادة الله شريعة الدين القيم الذي جاء للإنسان في كل زمان ومكان ، لا لجماعة من بني الإنسان ، في جيل من الأجيال ، في مكان من الأمكنة ، كما كانت تحيي الرسل والرسالات .

والأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي ، والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان ، دون أن تخرج عليه ، إلا أن تخرج من إطار الإيمان !

والله الذي خلق الإنسان ويعلم من خلق ، هو الذي رضي له هذا الدين ، المحتوي على هذه الشريعة ، فلا يقول : إن شريعة أمس ليست شريعة اليوم إلا رجل يزعم أنه أعلم من الله بحاجات الإنسان ، وبأطوار الإنسان !

ويقف المؤمن ثانياً : أمام إتمام نعمة الله على المؤمنين ، بإكمال هذا الدين ، وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة ، النعمة التي تمثل مولد الإنسان في الحقيقة ، كما تمثل نشأته واكتماله ، فالإنسان لا وجود له قبل أن يعرف إلهه كما يُعرفه هذا الدين له ، وقبل أن يعرف الوجود الذي يعيش فيه كما يُعرفه هذا الدين له ، وقبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود وكرامته على ربه ، كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضي له ربه ، وقبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة الله وحده ، وقبل أن ينال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع الله وبسلطانه ، لا من صنع أحد ولا بسلطانه !

إن معرفة الإنسان بهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الدين القيم هي بدء مولد الإنسان . . ويدون هذه المعرفة على هذا المستوى لا يكون الإنسان في

أكمل صورة للإنسان . . والمسافة بعيدة بعيدة بين هذه الحقائق الكبيرة كما صورها القرآن ، وسائر الصور التي اصطنعها البشر في كل زمان ومكان ، وجيل وقبيل !

وإن تحقيق هذه الصورة في الحياة الإنسانية لهو الذي يحقق للإنسان إنسانيته كاملة . . يحققها له ، وهو يخرج بالتصور الاعتقادي في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، من دائرة الحس الذي لا يدرك إلا المحسوسات ، إلى دائرة التصور الإنساني الذي يدرك المحسوسات وما وراء المحسوسات . . عالم الشهادة وعالم الغيب . . عالم المادة وعالم ما وراء المادة . . وينقذه من ضيق الحس المحدود ، ويحقق للإنسان إنسانيته ، وهو يخرج بتوحيد الله من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده ، والتساوي والتحرر والاستعلاء أمام كل من عداه .

فإلى الله وحده يتجه الإنسان ، ومن الله وحده يتلقى المنهج والشرعة والنظام ، وعلى الله وحده يتوكل ، ومنه وحده يرجو ويخاف .

ويحقق للإنسان إنسانيته بالمنهج الرباني ، حين يرفع اهتماماته ، ويهذب نوازعه ، ويجمع طاقاته للخير والبناء والارتقاء ، والاستعلاء على نوازع الحيوان ، ولذا تذ البهيمية وانطلاق الأنعام !

ولا يدرك حقيقة نعمة الله في هذا الدين ، ولا يقدرها حق قدرها ، من لم يعرف حقيقة الجاهلية ، ولم يذق ويلاتها - والجاهلية في كل زمان ومكان ، وجيل وقبيل ، هي منهج الحياة الذي يخالف منهج هذا الدين القيم - فهذا الذي عرف الجاهلية وذاق ويلاتها في التصور والاعتقاد ، وفي واقع الحياة . . هو الذي يحس ويشعر ، ويرى ويعلم ، ويدرك ويتذوق حقيقة نعمة الله في هذا الدين !

الذي يعرف ويعاني ويلات الضلال والعمى ، وويلات الحيرة والتمزق ،
وويلات الضياع والخوان ، في معتقدات الجاهلية وتصوراتها في كل زمان
ومكان ، وجيل وقبيل . . هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الإيمان !

والذي يعرف ويعاني ويلات الطغيان والهوى ، وويلات التخبط
والاضطراب ، وويلات التفریط والإفراط في كل أنظمة الحياة الجاهلية . . هو
الذي يعرف ويتذوق نعمة الحياة في ظلال الإيمان بمنهج هذا الدين القيم !

ولقد كان المخاطبون بهذا القرآن أول مرة ، يعرفون ويدركون ويتذوقون هذه
الكلمات ، لأن مدلولاتها كانت متمثلة في حياتهم ، في ذات الجيل الذي
خوطف بهذا القرآن !

كانوا قد ذاقوا الجاهلية . . ذاقوا تصوراتها الاعتقادية . . وذاقوا أوضاعها
الاجتماعية . . وذاقوا أخلاقها الفردية والجماعية . . وعرفوا من هذا كله ما
يدركون معه حقيقة نعمة الله عليهم بهذا الدين ، وحقيقة فضل الله عليهم
ومنته بالإسلام !

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية ، وسار بهم في الطريق
الصاعد ، إلى القمة السامقة . . فإذا هم على القمة ينظرون من علو إلى سائر أمم
الأرض من حولهم ، نظرتهم إلى ماضيهم في جاهليتهم كذلك !

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التصورات الاعتقادية
الساذجة ، والخرافات السخيفة ، لينقلهم إلى أفق التوحيد . . إلى أفق الإيمان بالله
القادر القاهر ، الرحيم الودود ، السميع البصير ، العليم الخبير ، يجيب دعوة الداع
إذا دعاه . . لا واسطة بينه وبين أحد ، الكل له عباد ، والكل له عبيد . . ومن ثم
حررهم من سلطان الكهانة ، ومن سلطان الرئاسة ، يوم حررهم من سلطان
الوهم والخرافة !

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في الأوضاع الاجتماعية ، من الفوارق الطبقية ، من العادات الزرية ، ومن الاستبداد الذي كان يزاوله كل من تهيأ له قدر من السلطان !

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التقاليد والعادات والأخلاق والصلوات الاجتماعية !

وكان الإسلام قد أنشأ منهم أمة ، تطل من القمة السامقة على البشرية كلها في السفح ، في كل جانب من جوانب الحياة ، في جيل واحد ، عرف السفح ، وعرف القمة .. عرف الجاهلية وعرف الإسلام .. ومن ثم كانوا يتذوقون ويدركون معنى نزول هذه الآية يوم عرفات :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ .

ويقف المؤمن ثالثاً : أمام ارتضاء الله للإسلام ديناً للذين آمنوا . . يقف أمام رعاية الله سبحانه وعنايته بهذه الأمة ، حتى ليختار لها دينها ويرتضيه . . وهو تعبير يدل على حب الله لهذه الأمة ورضاه عنها ، حتى ليختار لها منهج حياتها !

وإن هذه الكلمات الهائلة التي نزلت يوم عرفات لتلقي على عاتق هذه الأمة واجباً ثقيلاً!

وإن كان ما يكافئ هذه الرعاية الجليلة من الملك الجليل شيء تملك هذه الأمة بكل أجيالها أن تقدمه . . وإنما هو جهد الطاقة في شكر النعمة ، ومعرفة المنعم . . وإنما هو إدراك الواجب ، ثم القيام بما يُستطاع منه ، وطلب المغفرة والتجاوز عن التقصير والقصور فيه !

إن ارتضاء الله الإسلام ديناً لهذه الأمة ليقضي منها ابتداءً أن تدرك قيمة هذا الاختيار ، ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وسع واقتدار !

ولا فما أنكد وما أحقق من يهمل - بل يرفض - ما رضىه الله له ، ليختار لنفسه غير ما اختاره الله !

وإنها - إذن - لجرمة نكدة ، لا تذهب بغير جزاء ، ولا يُترك صاحبها يمضي ناجياً أبداً ، وقد رفض ما ارتضاءه له الله !

وواضح أن نزول هذه الآية يوم عرفات يعني إكمال الإسلام وتمامه ، ولا معنى للإكمال في الآية إلا وفاء النصوص بما يحتاج إليه الشرع^(١) ، إما بالنص ، وإما باندراج ما يحتاج إليه تحت العمومات الشاملة .

وفي الحديث الذي يرويه ابن ماجه بسند حسن عن أبي الدرداء قال :

خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نذكر الفقر ونتخوفه ، قال :

« أَلْفَقْرَ تَخَافُونَ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتُصَبَّنَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا صَبًّا ، حَتَّى لَا يُزِيغَ قَلْبَ أَحَدِكُمْ إِزَاعَةً إِلَّا هِيَ . . وإيم الله ! لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء . »

قال أبو الدرداء : صدق ، والله ! رسول الله ﷺ ، تركنا والله ! على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء^(٢) .

ويروي الشيخان وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من

(١) تفسير القاسمي ٦ : ١٨٣٤ .

(٢) ابن ماجه : المقدمة (٥) .

اليهود قال له : يا أمير المؤمنين ، آيةٌ في كتابكم تقرؤونها ، لو علينا معشر اليهود نزلت ، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : أيُّ آية؟ قال :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ .

[قال عمر : قد عرفنا ذلك اليوم الذي نزلت فيه على النبي ﷺ : وهو قائم بعرفة ، يوم الجمعة] (١) .

وفي فضل هذا اليوم يروي مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال :

« ما من يوم أكثر من أن يُعتق الله فيه عبداً من النار ، من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ، ثم يُباهي بهم الملائكة ، فيقول : ما أراد هؤلاء؟ » (٢) .

ويروي الحاكم وغيره بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء ، فيقول لهم : انظروا إلى عبادي جاءوني شعثاً غبراً » (٣) .

(١) البخاري ٢- الإيمان (٤٥) ، ومسلم ٥٤- التفسير (٣٠١٧) ، والترمذي (٣٠٤٣) ، والنسائي : ١١٤ : ٨ ، وأحمد (١٨٨) تحقيق أحمد شاكر .

(٢) مسلم ١٥- الحج (١٣٤٨) ، والنسائي ٥ : ٢٥١ ، ٢٥٢ ، والحاكم ١ : ٤٦٤ .

(٣) الحاكم ١ : ٤٦٥ وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وأحمد ٢ : ٣٠٥ ، وابن خزيمة (١٨٣٩) ، وأبو نعيم في الحلية ٣ : ٣٠٥-٣٠٦ ، والبيهقي ٥ : ٥٨ ، وابن حبان في الإحسان (٣٢٨٥٢) ، وانظر : الطبراني في الصغير (٥٧٥) ، والهيثمي في المجمع ٣ : ٢٥٢ ، ٢٥١ .

المسجد الحرام للمقيم والقادم :

وهنا نذكر موقف الذين كفروا وهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ويواجهون الدعوة الإسلامية في «مكة المكرمة» ، ونذكر الأساس الذي أقيم عليه ذلك المسجد ، يوم كلف الله عز وجل إبراهيم عليه السلام أن يقيم هذا البيت على التوحيد ، وأن ينفي عنه الشرك ، وأن يجعله للناس جميعاً ، سواء المقيم فيه والطارئ عليه ، لا يمنع عنه أحد ، ولا يملكه أحد ، قال تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ .

(آية ٢٥-٢٨ سورة الحج)

هكذا كان فعل المشركين : أن يصدوا الناس عن دين الله (١) - وهو سبيله الواصل إليه ، وهو طريقه الذي شرعه للناس ، وهو نهجه الذي اختاره للعباد - وأن يمنعوا المسلمين من الحج والعمرة إلى المسجد الحرام - كما فعلوا عام الحديبية - وهو الذي جعله الله عز وجل للناس منطقة أمان ، ودار سلام ، وواحة اطمئنان - كما أسلفنا - ، يستوي فيه المقيم بـ «مكة المكرمة» والطارئ عليها ، فهو بيت الله الذي يتساوى فيه عباد الله ، فلا يملكه أحد منهم ، ولا يمتاز فيه أحد منهم :

﴿سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ .

(١) في ظلال القرآن ٤ : ٢٤١٧ بتصرف .

ولقد كان هذا النهج الذي شرعه الله تبارك وتعالى في بيته الحرام سابقاً لكل محاولات البشر في إيجاد منطقة حرام ، يلقي فيها السلاح - كما عرفنا من قبل - ، ويأمن فيه المتخاصمون ، وتحقن فيها الدماء ، ويجد كل أحد فيها مأواه ، لاتفضيلاً من أحد ، ولكن حقاً يتساوى فيه الجميع !

قال الشوكاني : واختلفوا في مكة (١) :

فذهب مجاهد ، ومالك ، إلى أن دور مكة ومنازلها يستوي فيها المقيم والطارئ .

وذهب عمر بن الخطاب ، وابن عباس ، وجماعة ، إلى أن للقادم أن ينزل حيث وجد ، وعلى رب المنزل أن يؤويه ، شاء أم أبى .

وذهب الجمهور إلى أن دور مكة ومنازلها ليست كالمسجد الحرام ، ولأهلها منع الطارئ من النزول فيها .

والحاصل أن الكلام في هذا راجع إلى أصليين :

الأصل الأول : ما في هذه الآية : هل المراد بالمسجد الحرام : المسجد نفسه ، أو جميع الحرم ، أو مكة على الخصوص ؟

الأصل الثاني : هل كان فتح مكة صلحاً أو عنوة ؟ ، وعلى فرض أن فتحها كان عنوة ، هل أقرها النبي ﷺ في يد أهلها على الخصوص ؟ أو جعلها لمن نزل بها على العموم ؟

وقد فصل القول في ذلك (٢) .

(١) فتح القدير ٣: ٤٤٥ بتصرف .

(٢) انظر : نيل الأوطار ٨: ٢٨ .

وذكر ابن حجر أن مكة دار النسك ، ومتعبد الخلق ، وقد جعلها الله تعالى حرماً ، سواء العاكف فيه والباد ، وقال : والحق أن صورة فتحها كانت عنوة ، ومعاملة أهلها معاملة من دخلت بأمان ، ومنع جمع منهم السهيلي ترتب عدم قسمتها ، وجواز بيع دورها وإجارتها على أنها فتحت صلحاً^(١) .

وهكذا سبق الإسلام سبقاً بعيداً بإنشاء واحة السلام ، ومنطقة الأمان ، ودار الإنسان المفتوحة لكل إنسان !

والقرآن الكريم يهدد من يريد أعوجاجاً في هذا النهج المستقيم بالعذاب الأليم :

﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ .

والإلحاد في اللغة : الميل ، إلا أنه سبحانه بيّن هنا أنه الميل بظلم .

قال الشوكاني^(٢) : وقد اختلف في هذا الظلم ، ماذا هو؟ فقيل : الشرك ، وقيل : الشرك والقتل ، وقيل : صيد حيواناته ، وقطع أشجاره ، وقيل هو الحلف بالآيمان الفاجرة ، وقيل : المراد : المعاصي فيه على العموم ، وقيل : المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية في ذلك الزمان ، وقد ذهب إلى هذا ابن مسعود ، وابن عمر ، والضحاك ، وابن زيد ، وغيرهم ، حتى قالوا : لو هم الرجل في الحرم بقتل رجل بعدن لعذبه الله !

وعلى كل فالتعبير القرآني يهدد ويتوعد على مجرد الإرادة^(٣) ، زيادة في التحذير ، ومبالغة في التوكيد ، وذلك من دقائق التعبير !

(١) فتح الباري : ٨ : ١٢-١٣ .

(٢) فتح القدير : ٣ : ٤٤٥ .

(٣) في ظلال القرآن : ٤ : ٢٤١٨ بتصرف .

ومن دقائق التعبير - كذلك - أن يحذف خبر إن في الجملة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ .

فلا يذكر ما لهم؟ ما شأنهم؟ ما جزاؤهم؟ كأن مجرد ذكر هذا الوصف لهم يغني عن كل شيء آخر في شأنهم ، ويقرر أمرهم ومصيرهم !

ثم يرجع إلى نشأة هذا البيت الحرام ، الذي يستبد به المشركون ، يعبدون فيه الأصنام ، ويمنعون منه الموحدين بالله ، المتطهرين من الشرك . . يرجع إلى نشأته على يد إبراهيم عليه السلام ، بتوجيه ربه وإرشاده ، ويرجع إلى القاعدة التي أقيم عليها ، وهي قاعدة التوحيد ، وإلى الغرض من إقامته ، وهو عبادة الله الواحد ، وتخصيصه للطائفتين به والقائمين لله فيه :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَائِسِ الْفَقِيرِ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ﴾ .

(آية ٢٥ - ٢٩ سورة الحج)

فللتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة ، عرف الله مكانه لإبراهيم عليه السلام ، ليقمه على هذا الأساس :

﴿ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ .

فهؤلاء هم الذين أنشئ البيت لهم ، لا لمن يشركون بالله ، ويتوجهون بالعبادة إلى سواه .

ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام إذا فرغ من إقامته على الأساس الذي كلف به أن يؤذن في الناس بالحج ، وأن يدعوهم إلى بيت الله الحرام ، ووعد أنه يلبي الناس دعوته ، فيتقاطروا على البيت من كل فج عميق ، ومرمى سحيق :

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ .

وما يزال وعد الله عز وجل يتحقق إلى اليوم والغد ، وما تزال أفئدة من الناس تهوي إلى البيت الحرام ، وترف إلى رؤيته والطواف به . . الغني القادر الذي يجد الظهر يركبه ، ووسيلة الركوب المختلفة تنقله ، وغير الغني الذي لا يجد . . وعشرات الألوف من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الأرض البعيدة تلبية لدعوة الله منذ آلاف الأعوام !

ويقف السياق عند بعض معالم الحج وغاياته :

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ .

والمنافع التي يشهدها الحجاج كثيرة - سبق أن ذكرنا طرفاً منها - ، والحج موسم عبادة تصفو فيه الأرواح وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام ، وهي ترف حول هذا البيت ، وتستروح الذكريات التي تحوم حوله وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد !

طيف إبراهيم الخليل عليه السلام وهو يودع البيت فلذة كبده إسماعيل وأمه - كما أسلفنا - ، ويتوجه بقلبه الراجف إلى ربه بالدعاء .

وطيف هاجر ، وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة الملهته حول البيت ، وهي تهول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش ، وهداها الجهد ، وأضناها الإشفاق على الطفل . . ثم ترجع بعد الجولة السابعة لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء ، وإذا هي زمزم ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب !

وطيف إبراهيم الخليل عليه السلام وهويرة الرؤيا ، فلا يتردد ، ويمضي في الطاعة المؤمنة إلى ذلك الأفق البعيد :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتُ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ .

(آية ١٠٢-١٠٧ سورة الصافات)

يا لله ! ويا لروعة الإيمان والطاعة والتسليم ! (١) .

هذا إبراهيم المهاجر من الأرض والوطن ، المقطوع من الأهل والقربة ، ها هو ذا يرزق بسلام طالما تطلع إليه ، فلما جاء غلاماً ممتازاً يشهد له ربه بأنه حلیم ، وها هو ذا ما يكاد يأنس به ، وصباه يتفتح ، ويبلغ معه السعي ويرافقه في الحياة . . ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد ، حتى يرى في منامه أنه يذبحه ، ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية ، فماذا ؟ !

إنه لا يتردد ، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة ، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم !

(١) المرجع السابق : ٥ : ٢٩٩٤ بتصرف .

نعم إنها إشارة ، مجرد إشارة . . ولكنها إشارة من ربه . . وهذا يكفي . .
هذا يكفي ليلبي ويستجيب ، ودون أن يعترض ، ودون أن يسأل ربه . . لماذا
يا ربي أذبح ابني الوحيد ؟ !

ولكنه لا يلبي في انزعاج ، ولا يستسلم في جزع ، ولا يطيع في اضطراب !
كلا إنما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء . . يبدو ذلك في كلماته
وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء واطمئنان عجيب :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ .

فهي كلمات المالك لأعصابه ، المطمئن للأمر الذي يواجهه ، الواثق بأنه
يؤدي واجبه ، وهي في الوقت ذاته كلمات المؤمن ، الذي لا يهوله الأمر فيؤديه في
اندفاع وعجلة ، ليخلص منه وينتهي ، ويستريح من ثقله على أعصابه !

والأمر شاق - ما في ذلك شك - ، فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد
إلى معركة ، ولا يطلب إليه أن يكلفه أمراً تنتهي به حياته . . إنما يطلب إليه أن
يتولى هو بيده ، يتولى ماذا ؟

يتولى ذبحه . . وهو - مع هذا - يتلقى الأمر هذا التلقي ، ويعرض على
ابنه هذا العرض ، ويطلب إليه أن يتروى في أمره ، وأن يرى فيه رأيه !

إنه لا يأخذ ابنه على غرة ، لينفذ إشارة ربه وينتهي ، إنما يعرض الأمر عليه
كالذي يعرض المؤلف من الأمر ، فالأمر في حسه هكذا ، ربه يريد ، فليكن ما
يريد ، على العين والرأس ، وابنه ينبغي أن يعرف ، وأن يأخذ الأمر طاعة
وإسلاماً ، لا قهراً واضطراباً ، لينال هو الآخر أجر الطاعة ، وليسلم هو الآخر
ويتذوق حلاوة التسليم !

إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة الطاعة التي ذاقها ، وأن ينال الخير الذي يراه هو
أبقى من الحياة وأقنى !

فماذا يكون من أمر الغلام ، الذي يعرض عليه الذبح ، تصديقاً لرؤيا
رأها أبوه ؟ !

إنه يرتقي إلى الأفق الذي ارتقى إليه من قبل أبوه :

﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب ، ولكن في رضى كذلك
وفي يقين !

﴿ يَا أَبَتِ ﴾ في مودة وقربى ، فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده
رشده ، بل لا يفقده أدبه ومودته !

﴿ فَعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه ، يحس أن
الرؤيا إشارة ، وأن الإشارة أمر ، وأنها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل
ولا ارتياب !

ثم هو الأدب مع الله ، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال ،
والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية ،
ومساعدته على الطاعة !

ولم يأخذها بطولة ، ولم يأخذها شجاعة ، ولم يأخذها اندفاعاً إلى الخطر
دون مبالاة ، ولم يظهر لشخصه ظلاً ولا حجماً ولا وزناً . إنما أرجع الفضل كله
لله إن هو أعانته على ما يطلب إليه ، وأصبره على ما يراد به :

﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

يا للأدب مع الله !

ويا للروعة الإيمان !

ويا لعظمة التسليم !

ويخطو المشهد خطوة أخرى وراء الحوار والكلام . . يخطو إلى التنفيذ :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمًا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ .

ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة ، وعظمة الإيمان ، وطمأنينة الرضى وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان !

إن الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعداداً ، وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعاً ، وقد وصل الأمر إلى أن يكون عياناً !

لقد أسلما . . فهذا هو الإسلام . . هذا هو الإسلام في حقيقته . . ثقة و طاعة و طمأنينة و رضى و تسليم . . وتنفيذ . . وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم !

إنها ليست الشجاعة والجرأة والحماسة . . لقد يندفع المجاهد في الميدان ، يقتل ويُقتل ، ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنه قد لا يعود ، ولكن هذا كله شيء ، والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر . . ليس هنا دم فائر ، ولا حماسة دافعة ، ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص !

إنما هو الاستسلام الواعي المتعقل القاصد المريد ، العارف بما يفعل ، المطمئن لما يكون ، لا بل هنا الرضى الهادئ المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل !

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا . . كانا قد أسلما . . كانا قد حققا الأمر والتكليف ، ولم يكن باقياً إلا أن يذبح إسماعيل ، ويسيل دمه ، وتزهق روحه . . وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله ، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما !

كان الابتلاء قد تم ، والامتحان قد وقع ، ونتائجه قد ظهرت ، وغاياته قد تحققت ، ولم يعد إلا الألم البدني ، وإلا الدم المسفوح ، والجسد الذبيح ، والله عز وجل لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء ، ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء ، ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا ، وقد حققوا التكليف ، وقد جازوا الامتحان بنجاح :

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ^(١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ^(١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ^(١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ^(١٠٧) ﴾ .

قد صدقت الرؤيا وحققته فعلاً ، فالله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام ، بحيث لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه ، ولو كان هو الابن فلذة الكبد ، ولو كانت هي النفس والحياة ، وأنت يا إبراهيم قد فعلت . . جدت بكل شيء ، وبأعز شيء . . وجدت به في رضى وفي هدوء وفي طمأنينة ، وفي يقين ، فلم يبق إلا اللحم والدم ، وهذا ينوب عنه ذبح ، أي ذبح من دم ولحم !

وفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدت ، يفديها بذبح عظيم !

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ونجزئهم باختيارهم لمثل هذا البلاء ، ونجزئهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء ، ونجزئهم بإقذارهم وإصبارهم على الأداء ، ونجزئهم كذلك باستحقاق الجزاء !

ومضت بذلك سنة النحر في الأضحى ، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذي يرتفع منارة حقيقة الإيمان ، وجمال الطاعة ، وعظمة التسليم ، والذي ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم ، الذي تتبع ملته ، والذي تراث نسبه وعقيدته ، ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها أو تقوم عليها ، ولتعرف أنها الاستسلام لقدرة الله في طاعة راضية واثقة مليية ، لا تسأل ربها لماذا؟ ولا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه ، ولا تستبقي لنفسها في نفسها شيئاً ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلا كما يطلب إليها أن تقدم !

ثم لتعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء ، ولا يريد أن يؤذيها بالبلاء ، إنما يريد أن تأتيه طائعة مليية وافية مؤدية ، مستسلمة لا تقدم بين يديه ، ولا تتألى عليه ، فإذا عرف منها الصدق في هذا أعفاها من التضحيات والآلام ، واحتسبها لها وفاء وأداء ، وقبل منها ، وأكرمها كما أكرم أباه !

وتظل هذه الأطياف الكثيرة ، وتلك الذكريات التي يضيق المقام عن ذكرها ترف وتتابع . . ثم تتواكب من الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وقد ولد قريباً من هذا البيت ، ودرج في طفولته وصباه فوق هذا الثرى حول هذا البيت . . وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين . . وهو يوحى إليه في غار حراء الذي يقع في موقع يبصر منه المعتكف فيه بيت الله المحرم «الكعبة المشرفة» ، والنظر إلى هذا البيت عبادة تذكر بأعظم متعبد بقي على تقلبات الحياة وصرورها ، وقد طاول الزمن وغالبه ، فاستطال عليه وغلبه ، وهو الأثر الثابت تاريخياً من تراث أبي الأنبياء

خليل الرحمن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، وهما جدا محمد ﷺ
الأعليان ، وإليهما يرتفع نسبه الشريف المحقق ، وقد بقي التعبد بتعظيم هذا
البيت ، والطواف حوله ، سنة متبعة من سنن الرسالات الإلهية التي أحيت رسالة
الحبيب المحبوب ﷺ معالمها الأصيلية ، فجعلت من الطواف حول هذا البيت
وتعظيمه أحد أركانها ، وشرعة في منهاج تعبداتها^(١) . . وهو يصلي . . وهو
يطوف . . وهو يخطب . . وهو يعتكف !

وإن خطوات الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لتنبض حية في الخاطر ، وتتمثل
شاخصة في الضمير ، ويكاد الحاج يلمسها وهو مستغرق في تلك الذكريات !
وخطوات الحشد من الصحابة الكرام وأطيافهم ترف وتتابع فوق هذا
الثرى ، حول ذلك البيت ، تكاد تسمعها الأذن ، وتكاد تراها الأبصار !
وقفنا الله لما يحبه ويرضاه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



(١) انظر : بهجة النفوس : ١ : ٩ وما بعدها ، وشرح الزرقاني : ١ : ٢٢٢ وما بعدها ، ومحمد رسول الله
ﷺ : ١ : ٤٧٠ - ٤٧٢ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥

الفصل الأول

خصائص الجزيرة العربية

٩	مقدمة
١١	البيت الحرام
١١	« مكة المكرمة »
١٣	[الله لا يُضِيع أهله]
١٩	طلائع الأسرار في بناء « الكعبة المشرفة »
٢١	دعوة إبراهيم عليه السلام
٢٦	أنبياء في الجزيرة
٢٨	الجزيرة مهجر المضطهدين
٣٢	صفات العرب
٣٦	وحدة اللغة
٥٤	حرم الإسلام
٥٥	

الفصل الثاني

وسطية الأمة الإسلامية

٥٧	مفهوم الوسطية
٥٩	

٦١	مزايا الوسطية وفوائدها
٦١	الوسطية تعني العدل
٦٢	الوسطية تعني الاستقامة
٦٤	الوسطية دليل الخيرية
٦٥	الوسطية تمثل الأمان
٦٥	الوسطية دليل القوة
٦٥	الوسطية مركز الوحدة
٦٦	مظاهر الوسطية في الإسلام
٦٦	وسطية الإسلام في الاعتقاد
٦٩	وسطية الإسلام في العبادات والشعائر
٧٠	وسطية الإسلام في الأخلاق
٧٤	الأمة الوسط في التفكير والشعور
٧٤	الأمة الوسط في الزمان
٧٥	الأمة الوسط في المكان
٧٦	حكمة اختيار القبلة التي كانوا عليها
٧٨	الكعبة قبله المسلمين

الفصل الثالث

٩١	﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾
٩٣ موقع الجزيرة الجغرافي
٩٣ وسطية الإسلام في المكان والشكل والأداء
١٠٣ شكر
١٠٤ الترجمة

١٠٤ خلاصة
١٠٦ الخلفية
١٠٧ وجهة نظر غير غربية
١١٠ وحدة الإسلام
١١١ منطقة الحج
١١١ النمو الحالي والمستقبلي
١٢٠ أنماط الانتقال إلى الحج
١٢٣ بُعد آخر لتفاعل الحج مع الإسلام
١٢٤ ملخص البحث والخاتمة
١٢٥ عدد المسلمين عام ١٩٩٦ م
١٣٢ تعقيب
١٣٣ مركز الدعوة العالمية

الفصل الرابع

١٣٩	الإعجاز العلمي في إثبات أن الكعبة مركز العالم
١٤١ الإسلام دين العلم
	إسقاط جديد للكرة الأرضية حول مدينة «مكة المكرمة» لمعرفة اتجاهات القبلة
١٤٨ للصلاة في جميع مدن العالم
١٥١ مقدمة
١٥٢ تعيين الاتجاه بين مكانين على سطح الكرة الأرضية
١٥٧ حساب البيانات المطلوبة من المثلث
١٦٣ ملاحظات
١٦٦ حسابات المسافات والانحرافات اللازمة لإسقاط الخريطة المطلوبة

١٨٤	إعادة إسقاط خريطة العالم بالنسبة للاتجاهات الصحيحة للصلاة
١٨٤	ملاحظات على هذا الإسقاط
١٩٨	ملاحظات أخرى
٢٠٤	مركزية «مكة المكرمة» للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية
	دائرة دلائل القبلة عند الكعبة الشريفة ، وصورة البلاد الإسلامية بالنسبة
٢٠٨	لـ «مكة المكرمة»

الفصل الخامس

٢١٥	عمارة المسجد الحرام عبر التاريخ الإسلامي
٢١٧	مقدمة
٢١٨	توسعة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٧ هـ
٢٢٠	توسعة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٢٦ هـ
٢٢١	توسعة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه سنة ٦٥ هـ
٢٢٢	توسعة الوليد بن عبد الملك سنة ٩١ هـ
٢٢٣	توسعة أبي جعفر المنصور سنة ١٣٧ هـ
٢٢٤	توسعة المهدي سنة ١٦٠ - ١٦٤ هـ
٢٢٦	توسعة المعتضد العباسي سنة ٢٨١ هـ
٢٢٦	توسعة المقتدر بالله العباسي سنة ٣٠٦ هـ
٢٢٦	التوسعة السعودية المباركة للمسجد الحرام
٢٢٧	المرحلة الأولى
٢٢٧	المرحلة الثانية
٢٢٨	المرحلة الثالثة
٢٣٠	توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز للمسجد الحرام

الفصل السادس

نضحات من المكان

٢٣٣

٢٣٥ مقدمة

٢٣٦ وحدة الأمة

٢٤٤ الأمن والسلام

٢٥٧ إكمال الدين وإتمام النعمة

٢٦٧ المسجد الحرام للمقيم والقادم

٢٧٩ الفهرس



للمؤلف

- ١ - (النقد ومراحله في السنة : دفاع عن الحديث والمحدثين ، رد شبهات ودحض مفتريات) ماجستير ، تقدير امتياز ، كلية أصول الدين ، جامعة الأزهر ، ١٩٧١ م .
- ٢ - (السنة بين أنصارها وخصومها) رسالة دكتوراة في الحديث وعلومه ، تقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى ، والتوصية بطبعتها على نفقة جامعة الأزهر ، وتداولها بين الجامعات ، كلية أصول الدين ، جامعة الأزهر ١٩٧٦ م .
- ٣ - (مشكل الحديث في ضوء أصول التحديث رواية ودراية ، ورد الشبهات ودحض المفتريات) المؤتمر العالمي الثالث للمسيرة والسنة النبوية - الدوحة - قطر ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م .
- ٤ - (العمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة) إدارة البحوث الاجتماعية والجنائية بالأمانة العامة لمجلس الوزراء ، الكويت ، ودار البحوث العلمية ، الكويت ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م .
- ٥ - (الثقافة الإسلامية) بالاشتراك - جامعة الكويت ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م .
- ٦ - (معالم في السلوك الإسلامي) دار الشعاع للنشر ، الكويت ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م .
- ٧ - (الهجرة النبوية ودورها في بناء المجتمع الإسلامي) دراسة تحليلية في ضوء الكتاب والسنة ، مكتبة الفلاح ، الكويت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م .
- ٨ - (نفحات رمضان وأثرها في تكوين الشخصية الإسلامية) مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م .
- ٩ - (المادية والروحية في الميزان) مكتبة المعلا - الكويت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦ م .
- ١٠ - (المسؤولية الاجتماعية في الإسلام) مكتبة المعلا - الكويت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م .
- ١١ - (أضواء على أخطاء المستشرقين في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) دار القلم - الكويت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م .

- ١٢- (الجامع المفهرس لألفاظ صحيح مسلم) جامعة الكويت ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .
- ١٣- (ابتداء الخلق في ضوء الحديث النبوي) ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .
- ١٤- (السحر السحرة في ضوء الحديث النبوي) ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .
- ١٥- (الفهارس ومكانتها عند المحدثين) ذات السلاسل ، الكويت ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .
- ١٦- (الوطن والمواطن تحت راية الإسلام) الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية ١٤١١هـ-١٩٩٢م .
- ١٧- (أسطورة الوطن اليهودي) مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .
- ١٨- (الفكر اليهودي) مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .
- ١٩- (موقف اليهود من الرسالة والرسول ﷺ) مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .
- ٢٠- (الطبيعة اليهودية) مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .
- ٢١- (التأمر اليهودي على حياة الرسول ﷺ) مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .
- ٢٢- (اليهود والخيانة) مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .
- ٢٣- (القضاء على اليهود عسكرياً) مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .
- ٢٤- (محاكمة اليهود) مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .
- ٢٥- (الخطر اليهودي) مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .
- ٢٦- (معالم النصر على اليهود) مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .

- ٢٧- (الرسول ﷺ واليهود وجهها لوجه) مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت
١٤١٢هـ-١٩٩٢م .
- ٢٨- (الجامع الصحيح للسيرة النبوية- الجزء الأول) - مؤسسة الريان ، بيروت ، ومكتبة
المنار الإسلامية ، الكويت ١٤١٥هـ-١٩٩٤م .
- ٢٩- (المستشرقون والسنة) مؤسسة الريان ، بيروت ، ومكتبة المنار الإسلامية ، الكويت
١٤١٥هـ-١٩٩٤م .
- ٣٠- (أضواء على أحاديث الإسراء والمعراج) مؤسسة الريان ، بيروت ، ومكتبة المنار
الإسلامية ، الكويت ١٤١٥هـ-١٩٩٤م .
- ٣١- (أحاديث الرضاع : حجيتها وفقهها) مؤسسة الريان ، بيروت ، ومكتبة المنار
الإسلامية ، الكويت ١٤١٥هـ-١٩٩٤م .
- ٣٢- (دفاع عن حديث «خلق الله التربة . . .») مؤسسة الريان ، بيروت ، ومكتبة
المنار الإسلامية ، الكويت ١٤١٥هـ-١٩٩٤م .
- ٣٣- (شبهات حول أحاديث الرجم وردها) مؤسسة الريان ، بيروت ، ومكتبة المنار
الإسلامية ، الكويت ١٤١٥هـ-١٩٩٤م .
- ٣٤- (أحاديث الختان : حجيتها وفقهها) مؤسسة الريان ، بيروت ، ومكتبة المنار
الإسلامية ، الكويت ١٤١٥هـ-١٩٩٤م .
- ٣٥- (دفاع عن حديث فضائل أبي سفيان رضي الله عنه) مؤسسة الريان ، بيروت ،
ومكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ١٤١٥هـ-١٩٩٤م .
- ٣٦- (حديث السحر في الميزان) مؤسسة الريان ، بيروت ، ومكتبة المنار الإسلامية ،
الكويت ١٤١٥هـ-١٩٩٤م .
- ٣٧- (حديث حد الردة في ضوء أصول التحديث رواية ودراية) مؤسسة الريان ،
بيروت ، ومكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ١٤١٥هـ-١٩٩٤م .
- ٣٨- (أحاديث حد السرقة في ضوء أصول التحديث رواية ودراية) مؤسسة الريان ،
بيروت ، ومكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ١٤١٥هـ-١٩٩٤م .

- ٣٩ - (المسئولية الوطنية في الإسلام) دار الذخائر، الدمام، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .
- ٤٠ - (نفحات الحج وأثرها في تكوين الشخصية الإسلامية) دار الذخائر، الدمام، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .
- ٤١ - (شبهات حول حديث الجساسة وردها) مؤسسة الريان، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
- ٤٢ - (أحاديث الولاية في النكاح في ضوء أصول التحديث رواية ودراية) مؤسسة الريان، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
- ٤٣ - (حديث بدء الوحي في الميزان) مؤسسة الريان، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
- ٤٤ - (أضواء على حديث «إنما الأعمال بالنيات») مؤسسة الريان، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
- ٤٥ - (الكعبة مركز العالم) مؤسسة الريان، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .



تحت الطبع

- ٤٦ - (المدخل إلى ثقافة المسلم) .
- ٤٧ - (عمدة المسلم : شرح أحاديث القسامة والمحاربين والقصاص والديات من صحيح مسلم) .
- ٤٨ - (عمدة المسلم : شرح أحاديث حد السرقة من صحيح مسلم) .
- ٤٩ - (عمدة المسلم : شرح أحاديث حد الزنى من صحيح مسلم) .
- ٥٠ - (دفاع عن الحديث النبوي في ضوء أصول التحديث رواية ودراية، ورد الشبهات ودحض المفتريات) .

بالاشتراك

- ٥١ - القانون الجنائي الإسلامي : الأحكام العامة) .
- ٥٢ - (جرائم القصاص) .
- ٥٣ - (جرائم الحدود) .
- ٥٤ - (التعزير على جرائم ليست من قبيل القصاص والحدود) .
- ٥٥ - (السجون في الإسلام) .
- ٥٦ - (معالم القانون الإسلامي) .
- ٥٧ - (قانون الزكاة في الإسلام) .



تحت الإعداد

- ٥٨ - (دفاع عن الحديث القدسي : «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب . . .») .
- ٥٩ - (حقيقة المشبهات في حديث «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبهات . . .» وموقف المسلم منها) .
- ٦٠ - (حتمية الحل الإسلامي لمشكلة الخمر والمخدرات في ضوء الحديث النبوي) .



